الجُمهورية الجزائرية الديمقراطية الشّعبية

وزارة التّعليم العالي و البحث العلمي

جامعة منتوري -قسنطينة

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم التاريخ و الآثار

رقم التسجيل:.......................................

الرقم التسلسلي: :..................................

الزراعة في بلاد المغرب القديم

(ملامح النشأة و التطور حتى تدمير قرطاجة سنة 146 ق.م)

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ القديم.

تخصّص: تاريخ وحضارات البحر الأبيض المتوسط.

إعداد الطالب:

قعر المثرد السعيد

تحت إشراف الأستاذ:

الدكتور غانم محمد الصغير

أعضاء لجنة المناقشة:

تاريخ المناقشة:.....................................

	الإسم و اللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
1	عبد الغني غانم	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة منتوري/قسنطينة
2	محمد الصغير غانم	أستاذ التعليم العالي	مشرفا و مقررا	جامعة منتوري/قسنطينة
3	عبد العزيز بلحرش	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة منتوري/قسنطينة
4	عبد القادر بوعيزم	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة وهران
5	أم الخير عقون	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة وهران

السنة الجامعية : 2007/2008م/ 1428-1429هـ.



قائمة بأسماء المختصرات الأجنبية .

- A.A.A.: Atlas Archéologique de L'Algérie .
- A.A.:Antiquités Africaines .
- B.A.C.:Bulletin Archéologique de Comité des travaux historiques et scientifiques de Paris .
- C.N.R.S.:Centre National de recherche Scientifique .
- C.R.A.P.E.:Centre de recherches Anthropologiques Préhistoriques et Ethnographiques .
- H.A.A.N.:Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord.
- R.A. :Revue Africaine.

المقدمة

تنفتح قارات العالم القديم، أوروبا و آسيا وأفريقيا، على البحر الأبيض المتوسط بحوضيه الشرقي و الغربي فكانت البلاد المطلّة عليه،و بدرجات متفاوتة، فضاءات للتفاعل الحضاري منذ استقرار الأقوام البشرية وتأسيس أولى المدنيات فيها .

وإذا كانت الدراسات التاريخية الحديثة والمعاصرة قد أسهبت في التعريف بمواقع الحضارات التي توفرت عنها المصادر الأدبية بالإضافة إلى الشواهد الأثرية ، مثل حضارتي بلاد مصر القديمة وبلاد الإغريق وغيرهما،فإن هذه الدراسات أهملت مواطن بشرية أخرى ساهمت بدورها في الحضارة الإنسانية ولكن مصادرها الأدبية كانت أحادية الجانب أو أصابها التلف مثل بلاد المغرب القديم التي أحرق الرومان مصادرها الأدبية وحطموا حتى شواهدها المادية عندما قرروا طمس مدنيتها طمسا كاملا بتدمير قرطاجة سنة146ق م، تماما كما دمر جيش الإسكندر المقدوني مدينة صور وطن قرطاج الأم قبل ذلك وأتلف الكثير من مصادر تاريخ بلاد المغرب غير المباشرة سنة 332 ق م ،رغم أن موْطنين من بلاد المغرب،منحا إسميهما مرتين لكل القارة السمراء وهما " ليبيا و إفريقيا " أي تونس تباعا في العصر القديم سابقا،و العصر الوسيط لاحقا وهذا ما لم تستطع منحه حتى مصر التي شهدت أعظم حضارات القارة بفضل نهر النيل الذي لولاه ما وُجدت هذه الحضارة أصلا .

وإذا كان بعض المؤرخين الغربيين يرون بأن التاريخ لم يصطدم ببلاد المغرب إلاّ عرضا،وذلك عند اتصالهم بالشعوب الأخرى فإن هذا الحكم المتحيز و المختزل يعبر عن نظرة أحادية الجانب ذات حكم مجاني، وذلك لأن الظروف التي أدخلت مناطق العالم القديم إلى العصور التاريخية هي نفس الظروف التي مرت بها بلاد المغرب وإن اختلفت بعض معطيات الجغرافيا كاختلاف السطح والتربة و المناخ وتباين أنظمة الرّي والتي وإن جعلت نمط المعيشة مختلفا فإنها لم تعق قيام حضارة ساهم أهلها بدورهم في تقدم المسيرة الإنسانية منذ الشواهد الأولى للتجمعات البشرية و التي تعود إلى بدايات ما قبل التاريخ لتلامس أصول البشرية نفسها .

رغم وحدتها الجغرافية فإن ظروف بلاد المغرب البشرية طغت بصفة دائمة على واقعها الطبيعي، فوقفت الجغرافيا حيالها لتترك الكلمة للتاريخ وهذا خلافا لمصر التي أمْلت الجغرافيا فيها كل شروط التطور فما كان من أهلها سوى الإذعان لعطاء النيل الذي حدّد منظومتها الحضارية ،فكانت مصر فعلا هبة النيل .

وبعبارة أخرى فإن الجغرافيا أعاقت تاريخ بلاد المغرب وسببت عزلتها حيث وقفت الصحراء جنوبا و البحر المتوسط شمالا عائقا في وجه التيارات الحضارية الوافدة لقرون عديدة، فكان التحدي عند الإنسان المغاربي أكبر،وهذا ما جعل التطور الداخلي و التفاعل المحلي يسبق المؤثرات الخارجية فعرفت البلاد نتيجة لذلك حضارات صميمة نموذجية ضاربة في القدم وليس أدل على ذلك من ظهور الحضارات العاترية و القفصية و الطاسيلي وهي حضارات تفرّدت بعطاءاتها المتميّزة التي طبعت بلاد المغرب وأدخلتها مدونة الحضارات الإنسانية وإن انقطعت بها سُبل التطور، نظرا لظروف بيئية صرفة تمثلت في تغير المناخ الذي نتج عنه الجفاف فأصبحت الصحراء منطقة طرد نحو مواطن أكثر ملاءمة للنشاط البشري .

إن هذا الطرح لا ينفي مسألة إسهام الوافدين في البناء الحضاري للمنطقة، ولكنه يؤكد جهود أبنائها ومبادرتهم التي طبعت الحضارة الإنسانية من خلال استنطاق مخلفاتهم من صناعة حجرية ورسوم صخرية ومقابر متنوعة وربط كل ذلك بفجر التاريخ و الفترة التاريخية .

لقد توجهّت الدراسات التاريخية لبلاد المغرب القديم في معظمها إلى الفترة الرومانية وما تلاها لأن مصادرها كثيرة ومتنوعة حتى وإن كانت أحادية الجانب .

وبالمقابل كانت الدراسات حول الممالك المغاربية و قرطاج نادرة وخاصة ما يتعلق بالجانب الحضاري وخصوصا الأنشطة الريفية وعالم الزراعة وأشغالهما المتنوعة.

إن مسألة التواجد البشري وقدمه في بلاد المغرب تطرح بالضرورة إشكالية إنتاج الغذاء الضامن لاستمرار الحياة نفسها. وأمام النقص المسجّل في المكتبة العربية حول أهم الأنشطة البشرية في المنطقة ، ومحاولة منّا المساهمة في تغطية جانب حضاري هام من تاريخنا، إخترنا موضوع الزراعة في بلاد المغرب القديم وملامح نشأتها وتطوراتها حتى تدمير قرطاجة سنة 146 ق.م .

إن أغلب الدراسات التاريخية المعاصرة ركّزت على المدن وفعالياتها السياسية لارتباطها بالحُكّام و المُلوك بينما شكّلت الأرياف في الغالب موضوعا مرتبطا بالحملات العسكرية والمعارك

الحربية فقط . أمّا فيما يتعلق بخدمة الأرض فإنها جاءت في الغالب على شكل نُتفٍ متفرّقة سواء تعلق الأمر بالمصادر أو الأبحاث الحديثة و المعاصرة .

غير أنه لا مناص للباحث من التعامل معها وإخضاعها للدراسة و التحليل والمقارنة بما جادت به جهود علم الآثار من مصادر مادية ما فتِئَتْ تكشف عن أسرارها على مرّ السنين .

إن المصادر الإغريقية و اللاتينية هي في الغالب كتابات وصفية إعتمدت على الأخبار المتناقلة ولم يُعايش كتابها،في معظمهم، أهل بلاد المغرب إلا من ندر، وصحب ذلك عدم الاهتمام بلغة السكان ولهجاتهم ، كما أن بعض هؤلاء وخاصة اللاتينيين منهم، كانت تدفعهم رؤية عنصرية مقيتة لكل من هو سامي من فينيقيين و بونيين وحتى ليبيين وتجلّى ذلك خاصة في المؤرخ سالوست (Salluste) الذي وصف يوغورطة (Jugurtha) بأسوإ النعوت كالخداع والمكر والرشوة وعدم مراعاة الذمة .

كما أن كتابات القدماء أهملت ما أورده المصريون في وثائقهم المادية والأدبية مثل الصلاّيات والألواح والملابس وأوراق البردي ،من أخبار تحكي جوانب من حياة الليبيين خاصة وأن هؤلاء تفاعلوا مع المصريين في أزمنة السلم و الحرب فتسنّت لهم بذلك المعرفة الجيدة لجوانب الحياة الاقتصادية لجيرانهم في بلاد المغرب.

أما ما نقله الكتاب اللاتينيون القدماء من تراث مغاربي إلى لغتهم فقد كان موضوع اختزال و تغبية، بل و سطو أحيانا ويتجلى ذلك في المصير الذي آلت إليه تعليمات ماغون القرطاجي التي احتواها مؤلفه في الزراعة حتى تلاشت وحفلت بها كتب كوليمال (Columelle)و فارون (Varron)، وكاد يتلاشى اسم مؤلفها الذي لم يُذكر مجرد الذكر كعالم من علماء الزراعة في الموسوعة العالمية (Encyclopédie Universelle) .

أما الملاحظة الأخيرة التي نسوقها حول المصادر الإغريقية واللاتينية، فإنها وقعت في بعض الأخطاء العائدة أساسا إلى الجغرافية مثل إتجاه الساحل المغاربي الذي مثّله هيرودوت و سترابون بالخط المستقيم تقريبا من غربي النيل حتى أعمدة هرقل (Colonnes d'Hercule)غربا،وهذا ما يربك مواقع القبائل خاصة تلك التي قطنت ما وراء بحيرة تريتون (Triton) أين يتجه الساحل شمالا وليس غربا، في الواقع .

وإذا كان لا مناص من التعامل مع هذه المصادر، وأمام هذه الرؤية الأحادية التي حاول الغربيون تكريسها كمسلّمات في تاريخنا القديم، هل ينبغي لنا أن نُجيز ما كتبُوه كثوابت تاريخية دون بحث ودراسة ومقارنة وتمحيص لاستجلاء الحقائق إنصافا لتاريخنا وصانعيه ؟ .

لهذا راودتنا عدة تساؤلات رأيناها جديرة بالطرح والمعالجة ، ونسجلها فيما يلي:

- ما موقع بلاد المغرب القديم من المجال المتوسطي الذي تطل عليه كل قارات العالم القديم وما هي أهميته الإستراتيجية التي جلبت إليه أنظار الوافدين بشتّى مشاربهم وأهدافهم ؟.

- ما هي المعطيات الطبيعية لبلاد المغرب وهل تتطابق مع بيئتهم في استثمار مواردها المتاحة ؟ وما هي دلالات الرسوم الصخرية في ذلك؟،وما دور هذه المعطيات في تشكيل النظام القبلي في بلاد المغرب وما هي أوجه الاختلاف مع جارتها مصر الفرعونية ؟ .

- كيف تفاعلت القبائل و التجمعات القبلية مع محيطها المغاربي و مع جيرانها في وادي النيل من أجل استغلال خيرات الأرض ؟.

- إلى أي مدى تعود الملامح الباكرة للزراعة في بلاد المغرب القديم ؟ وكيف انتقل الإنسان من حياة الترحال و القنص والجمع والالتقاط إلى حياة الاستقرار و الاستئناس فالرعي والزراعة ؟ .

- ما هي منتوجات الزراعة المبكرة ؟ وهل كان ذلك نتيجة للتطور الداخلي أو نتيجة وصول وافدين أكثر تقدّما ؟.

- هل يمكن الحديث عن أصول مبكّرة للزراعة في بلاد المغرب ؟ وما هي أصول الزراعة في الواحات وأصول منظومة الري فيها ؟ .

- لماذا اتجهت قرطاج للإقتصاد الزراعي بعد أن كان اقتصادها يعتمد أساسا على التجارة الدولية في البحار ؟ و ما هي إسهامات البونيين في الزراعة وخاصة جهود عالمهم ماغون القرطاجي ؟ وماذا أضاف مؤلفه في الزراعة وكيف أثر في عصره والعصور اللاحقة من خلال مختصريه ومترجميه ؟

- ما طبيعة الملكية الزراعية واليد العاملة عند البونيين ؟ وما دور المنتوجات الزراعية وخاصة القمح في فترة الحرب بين روما و قرطاج ؟ .

- ما هي العوامل التي ساعدت ماسينيسا في نجاح سياسته الزراعية بنوميديا الموحدة ؟ و ما هي السياسة التي انتهجها العاهل النوميدي على الصعيد السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي لتثبيت السكان ؟ وهل توصل الشعب النوميدي إلى الأمن الغذائي حتى صدّر ما فاض عن حاجته ؟ و ماهي نتائج سياسة ماسينيسا الزراعية ؟

أما بالنسبة إلى المصادر والمراجع المعتمدة في بحثنا فلقد عدنا إلى المصادر الكلاسيكية وعلى رأسها كتاب التواريخ Histoires ،للرحالة و المؤرخ الإغريقي هيرودوت بجزئيه الثاني والرابع الذي أورد فيه أسماء القبائل ومواقع انتشارها على طول الساحل الشمالي لبلاد المغرب وكذا قبائل الداخل وأنماط معيشتها وعاداتها و تقاليدها . وقد اعتمد في ذلك على مشاهداته وما رُوي له أثناء رحلته التي قادته حتى قورينا (Cyrenae) بإقليم برقة و كثيرا ما كانت معلوماته متطابقة مع معاصره ومواطنه الرحالة سيلاكيس (Scyllax) .

كما إعتمدنا على كتب المؤرخين اللاتين ومنها حرب يوغرطة (La guerre de jugurtha) لسالوست والذي أشار فيه إلى إنتاج الحبوب وتخزينها وتجارتها عند النوميديين ، كما استفدنا من كتاب الجغرافي سترابون (Strabon)،جغرافية العالم (Universelle Géographie) ، و كتاب بلين الأكبر (Pline l’ancien) ،التاريخ الطبيعي(Histoire naturelle) وفيهما إشارات إلى طبيعة أهل المغرب و الثروة الحيوانية والنباتية التي تزخر بها ،كما اعتمدنا على ما لخصه علي فهمي خشيم من تراجم في كتابه نصوص ليبية ، أما علماء الزراعة اللاتين ، فبالإضافة إلى ما أورده بلين كمترجم لماغون فقد إعتمدنا على فارون(Varron) و كوليمال(Columelle)اللّذيْن قدّما تعليمات ماغون القرطاجي Magon de Carthage ضمن كتاب أشرف عليه م.نيزار M.Nizard بعنوان علماء الزراعة اللاتين Les Agronomes latins .

أما أهم المراجع التي اعتمدنا عليها في بحثنا فأولها كتاب ستيفان قزالStéphane) (Gsellالتاريخ القديم لشمال إفريقياH.A.A.N وكذلك كُتب كامبس G.Camps،و ج.ش.بيكار G.Ch.Picard ف.دوكري و م.ح فنطر.F.Decret/M.H.Fantar وبالنسبة للمراجع العربية إعتمدنا على الرسائل الجامعية لمحمد الصغير غانم وكذا كتاباته المتنوعة حول تاريخ وحضارة بلاد المغرب القديم، وغيره من الباحثين مثل بحوث محمد الهادي حارش وغيره .

كما اعتمدنا على بعض الدراسات المتخصصة في بعض الدوريات التاريخية مثل بعض أعداد من المجلة الإفريقية Revue Africaine ومجلة كرطاقو Carthago .

بناء على ما استقيناه من مادة علمية في كل ما جادت به المصادر و المراجع المختلفة قسّمنا بحثنا هذا إلى مدخل و أربعة فصول .

لقد خصّصنا المدخل للتعريف ببلاد المغرب القديم من حيث الموقع ومصطلحات التسمية من حيث الأصول والمدلول .

ثم أفردنا الفصل الأول للمعطيات الطبيعية و البشرية، فتناولنا في القسم الأول المعطيات الطبيعية من مظاهر للسطح في الشمال و الصحراء، فالمناخ و النبات الطبيعي ،كما تناولنا المعطيات الجغرافية في العصر القديم،ونتائج المناخ .

وتناولنا في القسم الثاني المعطيات البشرية انطلاقا من أصل السكان و نشاطهم البشري المتميّز بفعل الظروف الطبيعية و ختمناه بالقبائل المغاربية القديمة حسب المنظورين المصري والمصادر الكلاسيكية الإغريقية و الرومانية التي صنّفتها إلى بدو رعاة ومستقرّين مزارعين.

أما الفصل الثاني فقد تناولنا فيه بدايات الزراعة في بلاد المغرب القديم، فخصّصنا القسم الأوّل للملامح الباكرة للزراعة حيث تكلّمنا عن تحوّلات العصر الحجري الحديث التي أهّلت الإنسان إلى إنتاج طعامه، ثم انتقلنا إلى عملية الاستئناس فالرعي وأهم الحيوانات التي تم استئناسها وتربيتها،ثم انتقلنا إلى الاستقرار وإرهاصات الزراعة فتناولنا الآلات الزراعية البدائية التي استخدمها أجدادنا،و المساحات الزراعية و المدافن التي تدل على الإستقرار البشري.

أما القسم الثاني فتحدّثنا فيه عن الإنتاج الزراعي المبكّر من خضر وحبوب وأشجار مثمرة ونبات طبيعي أستُغِل في الغذاء المغاربي القديم.

كذلك خصّصنا القسم الثالث للأصول المُبكّرة للزراعة وإمكانية وصول وافدين كنعانيين حتى قبل وصول الفينيقيين وظروف انتقالهم إلى بلاد المغرب ثم تحدّثنا عن أصول الزراعة في الواحات وأصول منظومة الرّي فيها .

أما الفصل الثالث فخصّصناه للزراعة عند البونيين، حيث أفردنا القسم الأول لقرطاجة كقوة عسكرية واقتصادية خلفت صور وكيف تحوّلت إلى الاقتصاد الزراعي بعد أن كانت تعتمد أساسا على التجارة البحرية الدولية.

وفي القسم الثاني درسنا توسع قرطاجة على حساب مستقبليها الليبيين بعد أن اقتنعت بجدوى الإقتصاد الزراعي .

أما القسم الثالث فقد خصّصناه للعالم الزراعي ماغون ومؤلّفه في الزراعة وكذلك ترجمته إلى الإغريقية و اللاتينية وتأثيره في علماء الزراعة الذين جاؤوا من بعده.

أما القسم الرابع فتناولنا فيه الملكية الزراعية و اليد العاملة فيها، وختمنا هذا الفصل بقسم خامس خصّصناه للإنتاج الحيواني والنباتي .

أما الفصل الرابع و الأخير فقد تناولنا فيه الزراعة في نوميديا الموحدة كنموذج للممالك المغاربية وخاصة في عهد الملك ماسينيسا .

خصّصنا القسم الأول لعوامل نجاح سياسة ماسينيسا الزراعية . وتناولنا في القسم الثاني مسألة الملكية الزراعية و وسائل الإنتاج في نوميديا.

أما القسم الثالث فأبرزنا فيه الإنتاج الفلاحي النوميدي بشقّيه النباتي و الحيواني .

أما القسم الأخير فأفردناهُ لنتائج سياسة ماسينيسا الزراعية .

وأخيرا توّجنا بحثنا بخاتمة شملت ما توصّلنا إليه من نتائج في بحثنا الذي بدأناه بمقدّمة، و أثريناهُ ببعض الخرائط والأشكال والصور والنصوص التي رأينا أنها تخدم موضوعنا مع البيبليوغرافيا والفهارس اللازمة .

لقد دفعتنا عدة أسباب لاختيار هذا الموضوع يُمكننا تلخيصها في:

- إختيارنا التخصّص في التاريخ القديم منذ التدرّج وميلنا في ذلك إلى تاريخنا المغاربي القديم وخاصة ما تعلّق منه بالجانب الحضاري .

- محاولة الإسهام،و لو بقدر قليل، في إبراز حضارة بلاد المغرب القديم،إيمانا منّا بالماضي المشترك ووحدة المصير المغاربي .

- المساهمة في إثراء مكتبتنا الوطنية و المغاربية والعربية بدراسة تتعلّق بجهود وإسهامات أجدادنا المغاربة في الحضارة الإنسانية .

- محاولة إعادة النظر في بعض ما كتبته بعض المصادر اللاتينية و المراجع الفرنسية المعاصرة، خاصة عن تاريخ أجدادنا، إذ اتّهمتهم بالعجز و الكسل في مواكبة المستوى الحضاري المعاصر لهم .

- الإقتراب من قضايا تاريخية جادة ومُتميّزة تستنهض هِمَمَ أجيالنا نحو غد أفضل بمقارنة واقعهم بما حقّقه أجدادهم في القديم .

-محاولة البحث في مواضيع تمسّ عمق التاريخ المغاربي،تنعدم الدراسات المتخصصة فيها.

- محاولة استكشاف موروثنا الحضاري المغاربي المشترك ومحاولة إستنطاق ما كاد يتلاشى من تراثنا الصميم وربطه بجذوره المغاربية العميقة .

- إنصاف صانعي تاريخنا المغاربي من خلال إعادة الاعتبار لجهودهم وإبرازها وتثمينها بالبحث و الدراسة حتى تكتمل حلقاته المتسلسلة .

- التأكيد على التاريخانية الزراعية الرعوية لبلاد المغرب وهي التي حدّدت صيرورته عبر العصور.

وقد اعتمدنا في بحثنا على الأسلوب الوصفي التحليلي مع ما أمكن من مقارنة بين المصادر والمراجع والدراسات الأثرية .

إن انعدام المصادر المحلية شكّل أكبر العوائق التي وقفت في طريق بحثنا هذا،مع قلة الدراسات المعاصرة المتخصصة في تاريخ وحضارة بلاد المغرب القديم وخاصة ما تعلّق منها بالأنشطة البشرية كالزراعة .

وختاما لا يسعنا إلا أن نتقدم بجزيل الشكر و خالص الامتنان لمشرفنا ، أستاذنا الفاضل الدكتور محمد الصغير غانم الذي كان لنا نِعم المُكوّن عند دراستنا وخير ناصح وموجّه في بحثنا هذا .

كما لا يفوتنا أن نتقدم بالشكر و العرفان إلى كل طاقم التدريس الذي أشرف على تكويننا في مرحلتيْ التدرّج والماجستير،وإلى عمال المكتبات وعلى رأسهم عمال مكتبة معهدنا وإلى كل الأساتذة والزملاء الذين أمدّونا بالدعم المعنوي، وإلى كل من أعاننا بالدعاء و الكلمة الطيبة.

والله ولي التوفيق

مـــــــــدخـــــــــل:أهمية الموقع و تنوّع المصطلح.

1- الموقع وأهميته:

تحتل بلاد المغرب شمال غربي إفريقيا،محصورة بين غربي نهر النيل شرقا والبحر المتوسط شمالا و المحيط الأطلسي غربا والصحراء الكبرى جنوبا،وهي المنطقة التي تقابل السواحل الجنوبية لدول جنوب غرب أوروبا إبتداء من البرتغال فإسبانيا على مضيق جبل طارق حتى بلاد اليونان في الركن الشمالي الشرقي للبحر المتوسط(أنظر الخريطة رقم01 ص5).

وتحديدا فإن خط الطول 10º غرب غرينتش والمار غرب مدينة لشبونة ينطبق على الساحل الأطلسي لبلاد المغرب،بينما خط25º شرق غرينتش و المار بمنتصف جزيرة كريت ينطبق على الحدود الشرقية لليبيا الحالية بينما تنحصر المنطقة بين دائرتي عرض 18º و38º شمالا[1] .

وتدخل الصحراء على شساعتها، بما فيها الطاسيلي و الهقار ضمن بلاد المغرب أين تشكلت محطات الإنتشار البشري الذي زحف شمالا لتعمير بلاد المغرب وذلك أثناء العصر الحجري الحديث أو النيوليتي (Néolithique) والذي عرف فيه الإنسان أوج تقدمه في عصور ما قبل التاريخ انطلاقا من الصحراء [2]التي بدأت تعرف الجفاف تدريجيا منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد و بدأ مع ذلك نزوح المجموعات البشرية نحو الشمال فرارا من الجدب واستقر بعضها في مناطق محدودة من واحات الصحراء [3] التي وإن كانت تتوغل جنوبا حتى نهر النيجر، فإنها تلامس البحر المتوسط في الشمال، خاصة عند الساحل الليبي حول خليج سرت [4].

لقد احتلت بلاد المغرب بهذه الإحداثيات موقعا استراتاجيا جعلها تنتمي للحوض الغربي للمتوسط بالإضافة إلى انفتاحها على الحوض الشرقي من خلال سواحل ليبيا وتونس الشرقية .

---

[1] محمد الهادي حارش،التاريخ المغاربي القديم السياسي و الحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي،المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر 1995،ص.14.

[2] - S .Gsell,H.A.A.N,Tome 1,édition Osnabruck,1972,p.23.

[3] - Ch.A. Julien,Histoire de l'Afrique blanche des origines à 1945, édition Que sais-je? Presses Universitaires de France,Vendôme,1966.p.12.

[4] للمزيد عن الصحراء أنظر: إسماعيل العربي الصحراء الكبرى و شوطئها،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1983.

وبهذا الموقع تكون شديدة القرب من القارة الأوروبية إذ لا يفصلها عن شبه جزيرة إيبيريا سوى مضيق جبل طارق (أعمدة هرقل) [1] بـ 13 كلم ،وعن إيطاليا عبر مضيق صقلية بـ 140 كلم .كما لا تفصل سواحل برقة الليبية، جزيرة كريت اليونانية سوى مسافة 300 كلم .

من جهة أخرى تنفتح بلاد المغرب على المحيط الأطلسي الذي سهّل تواصلها مع غرب و شمال أوروبا وكذلك مع سواحل إفريقيا الغربية .

وإذا كانت الصحراء على شساعتها تبدو فاصلة لبلاد المغرب عن بقية القارة الإفريقية، إلا أنها شكلت قديما همزة وصل وطيدة خاصة أن ظروف المناخ و الغطاء النباتي في القديم كانت مغايرة لظروف الصحراء على أيامنا،إذْ أن وجود المجاري المائية وإن كانت جافة فهي دليل على أنها كانت تنال كمية أكبر من الأمطار مما هي عليه الآن،لأن درجة الرطوبة كانت أكثر ارتفاعا[2]،وهذا ما جعل التفاعل الحضاري يتم ولقرون عديدة، مع جيران بلاد المغرب من إثيوبيين جنوبا ومصريين شرقا وذلك قبل استفحال فترة الجفاف التي قطعت سُبل التواصل بين شعوب المنطقة[3].

أما بالنسبة إلى الإتصالات بحرا،فخلافا للمنطقة الشرقية للبحر المتوسط التي دخلت عصور التاريخ مبكرا،فإن المنطقة الغربية التي تنتمي إليها بلاد المغرب قد تأخرت حوالي ألفي سنة [4].

وهكذا فقد كان انغلاق بلاد المغرب على المجتمعات الوافدة من البحر قد أخّر بداية الفترة التاريخية فيها بالنسبة إلى مثيلاتها في الشرق الأدنى وذلك حتى حلول البحّارة الفينيقيين في نهاية الألف الثانية قبل الميلاد [5].

---

[1] هو البرزخ الواقع بين إسبانيا والمغرب الأقصى، وهو المدخل الطبيعي و الوحيد للبحر المتوسط.عُرف قديما بأعمدة هرقل عند الكتاب الغربيين، وعُرف عند العرب ببحر الزقاق،اجتازه طارق بن زياد سنة 711 م لفتح الأندلس فحمل اسمه بعد ذلك. للمزيد أنظر: شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا و سويسرا وإيطاليا وجزائر المتوسط،دار مكتبة الحياة، بيروت1966، ص.45.

[2] محمد الصغير غانم، مواقع وحضارات ما قبل التاريخ في بلاد المغرب،جامعة منتوري، قسنطينة،دار الهدى، عين مليلة،ص. 12 .

[3] نفسه ، ص.13.

[4] محمد الصغير غانم،المرجع السابق،ص. 183.

[5] هشام صفدي، أضواء جديدة على تاريخ المغرب، مجلة الأصالة،العدد 14-15، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر،ص. 99.

غير أن أهمية بلاد المغرب المتمثلة في توسطها للعالم القديم قد جلبت الوافدين إليها من مستوطنين وفاتحين و غُزاة على مرِّ العصور خاصة بعد تطور النقل البحري .

لقد شكلت سواحل بلاد المغرب،منذ نهاية الألف الثانية قبل الميلاد،محطات للتجار الفينيقيين للتبادل والإستراحة في طريقهم إلى شبه جزيرة إيبيريا وما وراء أعمدة هرقل لاستجلاب المعادن الثمينة [1] .

وحين ضاقت بلاد الإغريق بأهلها كان ساحل بلاد المغرب القديم،مثل جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية،متنفسا للمهاجرين من جزر اليونان الفقيرة فأسّسوا مستوطنات استعمروها لقرون عديدة تمثلت في مجموعة من الموانئ أسموها المدن الخمس (Pentapolis) أشهرها قورينا (Cyrenae) بإقليم برقة [2].

وحين اشتد ساعد روما وقويت شوكتها لم تقنع بإخراج القرطاجيين من صقلية فحسب،بل سعت إلى تدمير قرطاجة، ليس لتنفيذ وصية كاتون "Caton" ،بل لاحتلال البلاد كلها والانتفاع بخيراتها الزراعية [3] .وقد ورثهم الوندال و البيزنطيون في الاستيلاء على بلاد المغرب لتتواصل الهيمنة ضمن ما عُرف بالاستعمار الثلاثي .

أما العرب الفاتحون، فبالإضافة إلى واجبهم المقدس في نشر الإسلام، فإن فتح بلاد المغرب وضمّ أراضيها شكّل لهم هاجسا استراتيجيا وخاصة بعد فتح مصر ،فلم تعقهم شساعة الصحراء عن مواصلة الفتوحات غربا حتى لامست قوائم جيادهم مياه المحيط الأطلسي بعد أن فتحوا كل أصقاع المنطقة وذلك لتأمين حدودهم الغربية بحاجز طبيعي منيع. ومن ثمّة استطاعوا اجتياز أعمدة هرقل لنشر الإسلام في القارة الأوروبية[4].

أما في التاريخ المعاصر فقد شكلت بلاد المغرب ميدانا لإنزال الحلفاء الذين وجَدوا في موانئها منطلقا إستراتيجيا للعبور إلى صقلية وجنوب فرنسا لطرد النازيين من إيطاليا وشمال فرنسا وحسم الحرب العالمية الثانية لصالح الحلفاء [5].

---

[1] **محمد الصغير غانم،مقالات وآراء في تاريخ الجزائر القديم،جامعة منتوري، قسنطينة،دار الهدى عين مليلة،2005 ،ص. 56.**

[2] **محمد شفيق،ثلاثة وثلاثون قرن من تاريخ الأمازيغيين،دار مكتبة الفكر،طرابلس،1988،ص.25 .**

[3] **دعا كاتون المعروف بالقديم أو المحاسب(234-149 ق.م)، إلى تدمير قرطاج في كل خطبه بعبارة: فالتدمر قرطاج(Delenda Carthago)، له كتاب في الاقتصاد الزراعي .**

[4] **شكيب أرسلان، المرجع السابق،ص.46.**

[5] **- G.Arnold, Les grandes Dates de l'Histoire du Monde,Ed.Casterman,Paris,1983,p.77.**

- مما سبق تتّضح أهمية موقع بلاد المغرب عبر العصور من خلال التسابق للفوز بالاستيلاء عليه والتواجد فيه بقوة لأن الثابت في التاريخ يؤكد انتصار من يسيطر عليه في فضاء البحر المتوسط الذي يفتح بحوضيه الشرقي و الغربي على كل قارات العالم القديم[1]

- إن الموقع الفلكي لبلاد المغرب (18°- 38° شمال خط الاستواء) يجعلها تنتمي إلى المنطقة المعتدلة الجافة مقابلة لأوروبا التي تنتمي إلى المنطقة المعتدلة الباردة ،وهذا الموقع يجعل بلاد المغرب من المناطق الصالحة لإنتاج الحبوب و خاصة القمح [2] الذي هو أساس نشأة الحضارات القديمة إذ تُعدّ من المراكز الأولى التي دُجّنت فيها أصناف متعددة من القمح الذكر(الصلب) [3] وهذا ما جلب إليها الغزاة والفاتحين منذ القِدم . وقد ثمّن هذا البُعد الاقتصادي موقع بلاد المغرب .

لقد ارتبطت السيطرة الرومانية على امتداد خمسة قرون بالاستغلال الاقتصادي المكثف الذي ركز على الزراعة بوجه خاص .وقد انطلق ذلك من اعتبار الرومان شمال إفريقيا خلفية اقتصادية هامة تساهم في تغطية استهلاكهم من الحبوب حيث أن الولايات الإفريقية قد زودت روما بثلثي(2/3)حاجتها الاستهلاكية خلال العهد الإمبراطوري الأول [4].

وقد استلهم الغزاة الأوروبيون التجربة الرومانية منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر للميلاد فاحتلوا بلاد المغرب معتمدين على الاستيطان الزراعي الواسع لسد حاجة أوروبا من الغذاء و تصريف فائض السكان ولعلّ أدلَّ مَثَلٍ على ذلك ما حفظه التاريخ عن قضية الديون التي كانت في ذمة فرنسا للجزائر والتي ماطلت الحكومات الفرنسية في دفعها حتى شكلت سببا لحادثة المروحة الشهيرة بين داي الجزائر وقنصل فرنسا وهي الحادثة التي استغلها شارل العاشر ذريعة لغزو الجزائر صيف 1830 م [5].

---

[1] سعت دول المغرب العربي بعد تحررها من الاستعمار إلى التكتل في كيان قوي في عصر تطبعه التكتلات الكبرى فولد اتحاد المغرب العربي الذي تحدد إطاره في قمة زرلدا بالجزائر سنة1982 وأعلن تأسيسه بمراكش في السنة الموالية .

[2] لا تزال مواطن زراعة الحبوب هي العروض المعتدلة (الدافئة والباردة) في نصفي الكرة الشمالي والجنوبي وهذا ما جعل بلاد المغرب من أهم مناطق إنتاج الحبوب وخاصة القمح الصلب .

[3] رالف لينتون،شجرة الحضارة، تقديم محمد السويدي، ج 1 ، موفم للنشر،الجزائر،1990،ص.188.

[4] محمد بشير شنيتي،التوسع الروماني نحو الجنوب وآثاره الاقتصادية والاجتماعية،مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر،عدد جانفي 1977،ص ص. 2-3 .

[5] أورد مفدي زكريا قضية الديون وحادثة المروحة الشهيرتين في إلياذته إذ قال :

وجاءت فرنسا فكنا كراما * وكنا الألى يطعمون الطعاما**

فأبطرهم قمحـــــنا الذهبي * وكــم تبطر الصدقات اللئاما**

للمزيد أنظر: مفدي زكريا ،إلياذة الجزائر،موفم للنشر،الجزائر،2001، ص.51.



الخريطة رقم 1: بلاد المغرب في المجال المتوسطي.
عن موسوعة .Encarta2005–

2- مصطلحات التسمية:

تعددت المصطلحات التي أطلقت على بلاد المغرب أي شمال إفريقيا أو شمال غربي إفريقيا تحديدا[1] وذلك بحسب الأزمنة والأقوام البشرية سواء منها أصيلة المنطقة أو المجاورة لها أو الوافدة إليها من بعيد .

وإذا كان التصور الجغرافي في أذهاننا يرتبط دوما بما ينطبق على ما توفره دقة الخرائط التي أنجزها التقدم العلمي، إلا أن الأمر لم يكن بمثل هذا الوضوح في القديم،إذ كانت الأقاليم تـُحدّد بجنس سكانها، وهذا يقف عائقا أمام الباحث في التاريخ أو الجغرافيا السياسية إذ لا يمكن أن نجد حدًّا بين الحدود الإثنولوجية للشعوب إلا إذا فصَل بينها فاصل طبيعي كبير كالبحر أو الصحراء [2].

أ- بلاد الغرب:

لم تكن منطقة شمال إفريقيا معروفة في فجر التاريخ الفرعوني بأي إسم يختص بها،وأقدم ما جاء في نقوش المصريين للدلالة على الغرب هي كلمة: " أمنت " (IMNT) التي دلّ عليها رسم ريشة النعام كحلية تقليدية لازمت رأس الليبي في التاريخ الفرعوني [3] .

ومعنى " أمنت ": الغرب الذي يقع غربي وادي النيل مباشرة وهو الذي تجتمع فيه الأرواح وتعيش فيه، أو هو أرض غروب الشمس التي سَمَّى العرب المحيط المحاذي لها من الغرب بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) [4] .

وبعد الإتصالات والإحتكاك عرّف المصريون بلاد المغرب وسكانها بأسماء وُجدت في النصوص الهيروغليفية منذ الألف الرابعة قبل الميلاد ،وهي: التحنو (Tehenou)و التمحو (Temahou)، و الليبو(Libou)، والمشوش(Machoucha)[5] وهي قبائل ليبية كبرى تواجدت غرب النيل وتفاعلت مع أهله (أنظر الشكل1 ص41).

---

(1) - S.Gsell,Textes relatifs à l'Histoire de l'Afrique du nord(Hérodote),Topographie A.Jourdan,Alger,1915,p.10.

(2) محمد مصطفى بازما، ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية، دار مكتبة الفكر طرابلس،1975،ص. 64.

(3) إبراهيم زرقانة، الحضارات المصرية في فجر التاريخ،دار المعارف القاهرة،1948،ص.152.

(4) اختارت المدرسة التاريخية الوطنية مصطلح بلاد المغرب،وهو يحمل ملمح التسمية المصرية القديمة(بلاد الغرب) الذي أطلقه المصريون على ماهوغربي وادي النيل دون أن يعني مفهوما محدد.للمزيد أنظر مصطفى بازما...ليبيا ص ص66-69.

(5)لون المصريون رسوم وجه نماذج من هذه القبائل بلون فاتح خلافا للون الداكن الذي لون رسوم الفراعنة.وتحمل كلمة تحنو معنى الاشراق والبياض.للمزيد أنظر سليم حسن،مصر القديمة ج5،دار الكتب ،القاهرة ،1948،ص ص. 73-74.

ب-ليبيا(لوبا) :

يعود هذا المصطلح إلى الجذر " ليبو" (L.B.W) وقد ورد في النصوص الهيروغليفية للتدليل على الشعوب التي تقطن غرب نهر النيل وتكون المصادر المصرية هي أقدم الشواهد على هذه التسمية: ليبيا أو لوبا[1] .

وقد ورد اسم الليبيين في التوراة[2] كمحاربين في جيش " شيشنق"[3] ضد الملك " رحبعام"[4].وقد إتفقت المصادر الفرعونية على ذكر الشعوب الغازية لمصر ومن بينها الليبيون بقيادة بعض حكامهم من أجل الاستيطان في مصر[5].

أما المصادر الإغريقية فقد ذكر هيرودوت (Hérodote) أن لوبا أو ليبيا هي القارة الثالثة من قارات العالم القديم بعد أوروبا وآسيا[6]مؤكدا وحدة الأرض و السكان:" فساحل ليبيا الشمالي من مصر حتى رأس صوليس (CapSoleis) الذي هو نهاية ليبيا، تسكنه قبائل كثيرة من الليبيين على طول امتداده، عدا الجزء الواقع في يد الإغريق و الفينيقيين" [7].

وقد أورد المؤرخان محمد حسين فنطر (M.H.Fantar) وفرانسوا دوكري (F.Decret) فرضية تستند إلى فقه اللغة مفادها أن الأصل " ليبو " قد يكون منسوبا للبحارة الإيجيين – الكريتيين (Egéo-Cretois) الذين أطلقوا مصطلح ليبوس (Libus) على سكان السواحل الجنوبية للمتوسط بمعنى داكن أو أسود،مقابل مصطلح ليقوس (Ligus) الذي يعني فاتح ،لتعيين سكان السواحل الشمالية للمتوسط [8].

---

[1] تعود هذه الشواهد إلى عصر ماقبل الأسرات (أكثر من 3000سنة ق.م) منها لوحةالأسود ولوحة التحنو ولوحة التوحيد.للمزيد أنظر :علي عيسى،الليبيون من خلال المصادر الأثرية والتاريخية القديمة، قسم التاريخ جامعة الفاتح،طرابلس،ص ص، الموقع الإلكتروني WWW.LIBSC.ORG، ص ص.2-3 .

[2] التوراة هي كتاب اليهود المقدس، ينقسم إلى خمسة أسفار،هي سفر : التكوين،الخروج،اللاوين ،العدد، والتثنية.

[3] شيشنق هو فرعون من أصل ليبي أسس الأسرة الثانية والعشرين منذ سنة 935ق.م رد لمصر نفوذها السياسي وتواصل حكم الأسر الأمازيغية حتى 715 ق.م على عهد الفرعون تافناخت.للمزيد أنظر محمد شفيق...المرجع السابق ص.28.

[4] هوابن الملك النبي سليمان بن داوود، حكم بين 931-913 ق.م.إنقسمت مملكة إسرائيل في عهده.للمزيد أنظر إنجيل متى الفصل الأول،الإصحاح الثامن.

[5] منهم مرمايو وابنه ديسا، وكابور وابنه ماشاشار. أنظر: M.Gaid,Aguellids et Romains en Berbèrie,SNED,Alger,72,p.70.

[6] - S.Gsell,textes relatifs….p.71.

[7] -Hérodote, HistoireII,32,texte établie par Ph.Le grand,Ed.Les Belles Lettres,Paris,1960.

[8] - F.Decret et M.H.Fantar, L'Afrique du nord dans L'Antiquité,Ed payot,Paris,1998, pp.17-18.

وإذا كان المتعارف عليه أن هيرودوت هو أول الكُتّاب الإغريق الذين تحدّثوا عن ليبيا،إلا أن هوميروس(Homère) قد سبقه في ذلك بعدّة قرون وتحدث عن ليبيا وأهلها الذين تطغى على نشاطهم تربية الأغنام [1] .

أما في المصادر الرومانية فقد أورد سالوست (Salluste) واصفا المغاربة القدماء " إن أول سكان إفريقيا الجيتوليون والليبيون وهم قوم متعجرفون يتغذون على الحيوانات المتوحشة أو حشائش الحقول على طريقة القطعان، لا يحكمهم عرف ولا قانون ولا حاكم،يتسكعون متفرقين للمغامرة ،ولا يتوقفون إلا إذا باغتهم الليل" [2] .ولا تُخفى هنا النظرة العنصرية التحقيرية التي تميّز بها سالوست ضدّ اللّيبيين.

وتحدث كُتّاب آخرون عن ليبيا و الليبيين مثل: فرجيل(Virgile) الذي ذكر ليبيا والدببة الليبية في ملحمته الأنياذة (Enéiade)[3] ،كما تعرّض بلين الأكبر (Pline l'ancien) إلى ليبيا و المنتوجات الليبية الأصيلة الحيوانية منها و النباتية بينما أورد المؤرخ جوستان (Justin) مصطلح ليبيا في ذكره لهجرة الفينيقيين إلى ساحل المتوسط الجنوبي الغربي أي شمال إفريقيا موطن الليبيين [4].

أما المصادر المحلية المادية فقد عُثر على بعض النقائش والنُّصب البونية في معبد صلامبو (Salambo) بقرطاج (Carthage)ومعبد الحفرة بـ سيرتا (Cirta) كُتبت باللغتين البونية والبونية الحديثة وحملت المصطلحين (L.B.T) و(L.B.Y) وكذلك في موقع مكثر بتونس، تمكّن فيفري (J.C.Février) من ترجمة نقيشة حملت المصطلح(BSD LBYM) بما معناه: في "بلاد الليبيين".وفي موقع إقليم طرابلس الغرب ترجم كلارمونت – غانو(Clermont-Ganneau)نقيشة حملت جُملة (RB MHNT BSD LBYM) إلى:"رئيس الجيوش في بلاد الليبيين" [5] .

---

[1] **هوميروس شاعر إغريقي عاش في القرن التاسع قبل الميلاد، تُنسب إليه ملحمتي الإلياذة والأوديسة.أنظر:**
-F.Decret et M.H.Fantar,op.cit.,p.15.

[2] **-Salluste,Jugrtha,XVII,Texte établi et traduit par A.Ernout,10ème tirage,Les Belles lettres,Paris, 1974.**

[3] **فرجيل،الإنياذة،ترجمة عنبرة سلام الخالدي، دار العلم للملايين، بيروت،1995،ص98.**

[4] **-F.Decret et M.H.Fantar,op.cit.,p.15.**

[5] **-Ibid,p.16.**

وبعد استعراض المصطلح يمكننا أن نتساءل هل كان مصطلح ليبيا ومشتقاته على امتداد استعماله لدى الشعوب المجاورة مصطلحا محليا أصيلا أو تسمية وافدة من الأقوام التي تواصلت مع سكان بلاد المغرب ؟

إن القول بأن أصل المصطلح محلي هو ما خلص إليه كل المؤرخين المعاصرين مثل غبريال كامبس (G.Camps) و أدريان بيربروجير (A.Berbrugger) وذلك بعد استعراض العديد من الآراء [1] .

ويؤكد فنطر و دوكري أن:" الاسم " ل.ب.ي" أو " ل.ب.ت" يترجم الإعتزاز بالإنتماء إلى المجموعة ويُولّد نوعا من الكبرياء العرقي. إنه تمجيد الأصل.وللتعبير عن المشاعر لا نعتقد أن عرقية أجنبية يُمكن أن تُتَبنّى،ويتعيّن على الإختصاصيين في اللغة الليبية تحديد المعنى الدلالي لهذا الجذر (racine) الذي يعود إليه اسم المكان ليبيا " [2] .

ومما سبق يتّضح الطابع المطاطي المتحول للمصطلح ليبيا،فبعد أن دلّ تباعا على كامل القارة الإفريقية ثم شمال إفريقيا،فالمناطق الشرقية الخاضعة سياسيا وإداريا لقرطاج،هاهو المصطلح يعود ليُطلق على منطقتي برقة وطرابلس والقطاع الصحراوي التابع لهما. وهكذا،وبعد أن وصل إلى أقصى اتساع له فإن بُعْدَ اسم المكان أخذ في الانكماش ليُعيّن الجُزء الذي ذُكر سكانه في نصوص المصريين تحت اسم الليبيين [3] اللذين أشير إليهم في كتابات المصريين باسم المشّوش أو التّحنو [4] .

أما عن معنى التسمية "ليبيا" فقد تضاربت الآراء حوله فهناك من رأى أن الاسم مشتق من اللّوب ويعني العطش[5] ويجد المعنى تفسيرا له في جفاف المنطقة وخلوها من المجاري المائية الدائمة.

---

[1] للمزيد: أنظر: **-G.Camps,Aux origines de la Berbérie,Massinissa ou les débuts de L'Histoire,Imprimerie Officille,Alger,1961,pp.24-29.**

[2] **- A.Berbrugger,Sur les inscriptions lybiques,R.A. N°12, 1968,O.P.U,Alger,p.162.**

[3] **-F.Decret et M.H.Fantar,op.cit.,p.19.**

[4] **محمد الصغير غانم، المرجع السابق،ص.77.**

[5] **أحمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب،تقديم عبد الله العلايلي،المجلد الثالث،دار العرب،بيروت، ب ت،ص.407.**

وقد تكون إسما لملكة (لوبية أو ليبية) قد حكمت شعبا غرب النيل حسب أسطورة أوردها المؤرخ واللغوي علي فهمي خشيم الذي أضاف بأن الإسم قد يكون ساميا إذ اشتُقّ من كلمة لبؤة أي أنثى الأسد ثم عُمّم على المنطقة التي أصبحت تعني أرض الأسود [1] .

ج – إفريقيا :

ورد في الموسوعة العالمية أن إسم إفريقيا قد يكون مشتقا من الجذر السامي " فرّق" والذي يعني قسّم [2] وهذا يتفق مع ما أصّله المؤرخون العرب في العصر الوسيط من أمثال ابن خلدون،من أن بطلا أسطوريا يسمى " إفريقش" (Africos)[3]،أعطى إسمه لهذه المنطقة في غرب البحر المتوسط.

لكن المصطلح أقدم من العصر الوسيط إذ تعود بداياته إلى الكُتّاب الرومان الذين أطلقوه على الأراضي التي احتلوها بعد تدمير قرطاجة سنة 146 ق.م، ثم بدأ إسم المقاطعة يتوسّع ليشمل الشمال الإفريقي من طرابلس إلى المحيط الأطلسي حتى أصبح يُطلق على كل القارة عِوض إسم ليبيا عند الإغريق [4].

لقد طُبقت الصّفة "أفريكانوس" على نباتات ذات أصل إفريقي ففي مؤلفه الزراعي ذكر كاطون(Caton) [5] التين الإفريقي (Figus africanus) كما اشتهرت بعض الشخصيات بهذه الصفة مثل ترانتيوس أفريكانوس (Trentius Africanus) [6] .ويبدو أن هذه الصفة استُعملت لتعني ما كان خاضعا لإدارة قرطاج، وأصبح من المألوف أن يُدعى المكان إفريقيا (Africa) .

---

[1] علي فهمي خشيم،آلهة مصر العربية،ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،1998،ص.73.

[2] -Encyclopédia,Universalis,Paris,1980,p. 363.

[3] عبد الرحمان بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مجلّد 6 ،مؤسسة جمال للطباعة والنشر،بيروت،1979، ص.89.

[4] -F.Decret et M.H.Fantar,op.cit.,p. 24.

[5] كاتون(234-149 ق.م) من مشاهير الخطباء ورجال الدولة في روما،دعا إلى التقشّف و القضاء على قرطاج.كان يُنهي خُطبه بعبارته الشهيرة:" لتُدمّر قرطاج" .

[6] ترانتيوس أفريكانوس(155-125م) نشأ على الوثنية ثم تنصّر واستمسك بالمسيحية. كتب قصصا في الأخلاق هي : فتاة أنديرسن، الخصي،معذّب نفسه، فرميون،الحماة،الأخوان،المنشورة في الموقع الإلكتروني:www.tawalt.com .

كما يجد هذا الجذر له دلالة محلية تمثلت في مشتقات الكلمة إفري (IFRI) بمعنى مغارة مثل قبيلة " بني إفران" و" إيفيرا" و إيفري بمنطقة القبائل [1].وكان سكنُ المغارات ولا يزال يُمارس إلى اليوم في بعض مناطق بلاد المغرب [2] .

وممّا سبق يمكننا القول أن هذا المصطلح "إفري أو إفريقي" هو مصطلح محلي الدلالة وإن كان قد أطلق على سكان بلاد المغرب القديم من طرف غيرهم من الأقوام .

د- بلاد البربر :

أطلق العرب مصطلح البربر على سكان شمال إفريقيا الأصليين وخاصة أولائك الذين لم يندمجوا في الحضارة الرومانية [3].وقد أعاد بعض المؤرخين هذه التسمية إلى جدٍّ مشترك إسمه " بَرْ " بينما أعاده آخرون من أمثال الطبري و المسعودي كما أورد بن خلدون،إلى "إفريقش" الفاتح الأسطوري الذي سمع همهمات من مختلف القبائل المُكوّنة لجيشه فأطلق عليهم إسم بربر لهمهمتهم بكلام غير مفهوم فقال فيهم :

برْبَرت كنعان لمّا سُقتُها ** من أراضي الضّنك للعيش الرغيد [4].

غير أن العرب في الغالب يكونون قد أخذوا التسمية "بربار" (Barbare) عن الرومان الذين أخذوها بدورهم عن الإغريق. وهو يعني الأعاجم أو الغرباء عن الحضارة اليونانية فالرومانية.ويمكن اعتبار بداية الفتح الإسلامي لبلاد المغرب في سنة 647 م منطلقا لهذه التسمية بالنسبة إلى العرب [5].

أما الأوروبيون فقد ظلّوا يُطلقون على شمال إفريقيا بلاد البربر (Barbarie) أو الدول البربرية (Etats Barbaresques)،إلى أوائل القرن التاسع عشر للميلاد .ولمّا احتكّوُا بأهالي المغرب والجزائر سمعوا منهم إسم "برابر" (براءين مُرققتين) فنقلوه إلى لغاتهم (Berbères et Berbers) [6].

---

[1] منها قرية إيفري بمنطقة القبائل التي توجد بحوض وادي الصومام الذي انعقد فيه أوّل مؤتمر للثورة الجزائرية في 20 أوت 1956.

[2] لا يزال بعض منطقة سكان شنين بولاية تطاوين على الحدود اللّيبية يستعملون سكنات تُحفر في التربة الصلبة، وتُشكّل مأوى يتميّز بالدفء شتاءاو البرودة صيفا. أنظر: - F.Decret et M.H.Fantar,op.cit.,p. 25.

[3] -S.Gsell,H.A.A,N,T.1,op.cit .,p.337.

[4] أنظر بن خلدون، المصدر السابق،ص. 94.

أنظر: محمد بن جرير الطبري،تاريخ الأمم و الملوك،مج1، ط3،دار الكتب العلمية ،بيروت،1991،ص.96 .

[5] -F.Decret et M.H.Fantar,op.cit.,p.27.

[6] محمد شفيق،المرجع السابق،ص.19.

وإذا كان "شارل أندري جوليان"(Ch.A.Julien) يميل إلى تسمية شمال إفريقيا ببلاد البربر فإن أهلها يفضلون الإحتفاظ بتسمية أصيلة هي بلاد الأمازيغ [1] .

إنّ مصطلح بربر (Barbare) هي مسألة ارتبطت بتسمية الغريب الذي لا تُفهم لغته. فكما كان للعرب عجَمُهم،و لليونانيين والرومان عجمهم ،فقد كان للمغاربة القدامى عجمهم أيضا وهم " إكناون" ويتجلى ذلك فيما تفرّع عن التسمية من أسماء لبلدان إفريقية مع قلب حرف "الكاف" "غين " مثل غينيا وغانا [2] .

هـ - إمازيغن:

هو الإسم الذي أطلقه المغاربة القدامى على أنفسهم وهو جمع ومفرده إيمازيغ ومؤنثه تمازيغت .ومعناه (الأحرار أو النبلاء) [3]وجذر هذا المصطلح (MZK) أو (MZG) هو الذي جعل بعض المؤرخين يذهبون إلى اعتباره الإسم الحقيقي لبلاد المغرب نظرا لتواجده في العديد من أسماء القبائل وفي عدة مناطق من بلاد المغرب ،بل والأهم من ذلك هو الإسم الذي سَمَّى به بعض المغاربة أنفسهم إلى اليوم [4] .

فمنذ القرن السادس قبل الميلاد ذكرهم هيكاتي (Hécaté de Milet) باسم مازيس (Mazyces) ،كما ذكرهم هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد باسم الماكسيس (Maxyes) [5] .و قد تسرّب المصطلح إلى اللاتينية فذكر "إيتيكوس" (Ethicus) و هونوريوس (Honorius)أنه كان يوجد،على عهدهم ،الكثير من الأحراراو المازيكاس [6]

وعند المصريين نجد أن المصطلح قد يكون حُرّف لمبررات لغوية ليُصبح "مَشّوش" (Mashwaesh) [7] .

---

[1]شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية(تونس،الجزائر، المغرب الأقصى)،ج1 منذ البدء إلى الفتح الاسلامي سنة 647، تعريب م.مزالي و ب. بن سلامة، الدار التونسية للنشر 1969.

[2] لا يزال بعض سكان المغرب من أصول إفريقية يُسَمّونَ كناوة،أو قناوة...أنظر محمد شفيق، المرجع السابق،ص.16.

[3]شارل أندري جوليان، المرجع السابق،الصفحة نفسها.

[4] محمد شفيق، المرجع السابق، ص.8.

[5] -Hérodote,IV,191.

[6] - H.Tauxier,Notes sur Les variations de mots Berbers,Roum,Afarek,Baranès, Bothr, et Frank,R.A.,n° 23,1879,O.P.U ,Alger,p.473.

[7]محمد شفيق،المرجع السابق،ص.9.

وإذا كان مصطلح "مازيغ"(MZK) أو (MZG) قد تعددت أشكاله في بلاد المغرب نفسها فمصدره نفس الجذر وله دلالة واحدة،ففي غرب فزان هو " إيموساغ " (Imusagh) وفي القبائل والريف والأطلس هو" إمازيغن" (Imazighen) وفي الهقار عند الطوارق هو"إيموشار"(Imoshar) [1].

وتدعيما لكل ذلك نسب " عبد الرحمان بن خلدون" سكان بلاد المغرب القديم إلى أبيهم " مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام " [2] .

وأخيرا يمكن استخلاص الواقع التاريخي لهذه التسمية " إمازيغن" بمعنى الأحرار و النبلاء ، ذلك أن أهل المنطقة كانوا على مر العصور لا يخضعون لأية قوة غازية استوطنت بلادهم بما في ذلك العرب الذين جاؤوا بالإسلام. ألم يستغرق فتح بلاد المغرب عدّة حملات على مدى عشرات السنين قبل اقتناع أهلها بأن الفاتحين إنما جاؤوا مبشرين بدين يحرّرهم نهائيا من بقايا الغزو الثلاثي الروماني فالوندالي فالبيزنطي ؟ [3] .

وأمام هذا المدلول،ألا يمكننا أن نتساءل عن سرّ الأمازيغ في انتهاج أسلوب الإنتجاع و الترحّل الضامن لحُرية الرّعاة كخيار اقتصادي ،عكس الإرتباط بزراعة الأرض؟

وإلى جانب المصطلحات السابقة، لا يجدر بنا أن ننسى ذكر بعض المصطلحات التي أثرت الفسيفساء المغاربي مع اقتصارنا على ذكر مصطلحين هامين منها وهما:

- نوميديا: وقد وردت كلمة نوماد (Nomades) صفة عند هيرودوت أضفاها على الليبيين وتعني الليبيين الرّحل [4] وذكر مصطلح نوميديا للدلالة على المنطقة التي يسكنها النوميديون والتي تمتد من ممتلكات قرطاجة شرقا حتى وادي ملّوشة (Mulucha) أو ملوية[5] حيث حدود مملكة موريطانيا غربا و جيتوليا جنوبا [6] .

---

(1) -G.Camps,op.cit.,p.26.

(2) إبن خلدون، المصدر السابق، ص.97.

(3) استغرق فتح بلاد المغرب 70 سنة من خلال حملات متعدّدة بينما لم يستغرق فتح مصر مثلا سوى سنتين ومن خلال حملة واحدة هي حملة عمرو بن العاص.

(4) -Hérodote,IV,181.

(5) - G.Camps,op.cit.,p.154.

(6) -B.A Ben Kort,Syphax,Massinissa entre les impérialismes romains et Carthaginois, E.N.A.L,Alger,1984,p.17.

- موريتانيا: أُخِذ هذا المصطلح من كلمة مُورُو التي تعني سكان الغرب أي منطقة ما بعد نهر ملوشة.غير أن هذا المصطلح تمدد شرقا حتى منطقة سطيف و الأوراس[1] لتنقسم موريطانيا إلى موريطانيا الطنجية وعاصمتها طنجة،و موريطانيا القيصرية وعاصمتها إيول (Iol) شرشال [2] .

أخيرا،ورغم اختلاف مصطلحات التسمية إلا أنها تعني مكانا جغرافيا واحدا ومجموعة بشرية اندمجت وتفاعلت مع من حولها في حركية أكّدت التواصل الإنساني في كل الظروف سلما أو حربا،وهذه الحركية هي التي شكّلت على مّر العصور صيرورة المجتمع المغاربي الذي كان ملتقى للعديد من الحضارات منذ بدايات التاريخ وهذا ما فرضه الموقع الجغرافي للشمال الإفريقي الذي هو قلب قارات العالم القديم . وقد تُوِّجَ اكتمال الشخصية المغاربية بدخول أهم عناصر الإندماج والوحدة والمتمثلة في الدين الإسلامي واللغة العربية اللذين طبعا شمال إفريقيا بمصطلح المغرب العربي الذي امتزجت دماء أبنائه منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرن[3] وهي التسمية التي أكدها التاريخ رغم محاولات المسخ الذي مارسه الإستعمار الأوروبي في العصر الحديث .

ويبقى مصطلح بلاد المغرب الذي أقرّته المدرسة التاريخية الوطنية هو المصطلح الملائم لكل العصور التاريخية فنقول بلاد المغرب القديم فبلاد المغرب الوسيط أو الإسلامي،فالحديث و المعاصر [4] .

---

[1] محمد الصغير غانم، مقالات وآراء...، المرجع السابق،ص.12.

[2] قسّمت موريطانيا في عهد الامبراطور كلوديوس (Claudius)سنة 43 م إلى المقاطعتين المذكورتين بعد مقتل ملكها بطليموس سنة 40 م على يد الرومان: أنظر محمد الهادي حارش، المرجع السابق، ص ص. 102-103.

[3] محمد الصغير غانم، المرجع السابق،ص. 224.

[4] إن هذه التسمية في مدلولها الحيادي هي الأكثر انسجاما مع مقتضيات البحث العلمي الذي يفرض الموضوعية (Objectivité) والابتعاد عن الذاتية.

الفصـــل الأول:

المعطيات الطبيعية و البشرية لبلاد المغرب القديم

أولا- المعطيات الطبيعية

1- السطح

أ/ تضاريس الشمال.

ب/ تضاريس الصحراء .

2- المناخ والنبات الطبيعي

3- معطيات الجغرافيا في العصر القديم

أ/ الأقاليم الطبيعية .

ب/ إتجاه الساحل المتوسطي .

ج/ المناخ ونتائجه.

ثانيا- المعطيات البشرية

1- أصل السكان.

2- الأنماط الاقتصادية في بلاد المغرب القديم.

3- القبائل المغاربية القديمة وأنشطتها.

أ- القبائل الليبية في المصادر المصرية.

ب- القبائل الليبية في المصادر الكلاسيكية .

أولا – المعطيات الطبيعية :

1- السطح : من خلال الخريطة الطبيعية لبلاد المغرب نميز تباينا بين الشمال و الصحراء . فإذا كانت ظاهرة الإرتفاع تطغى على السطح في الجزء الشمالي إذ سماها الجغرافيون "بلاد الأطلس"[1] فإن ذلك لا يعني خلوّها من السّهول المتنوعة[2].وإذا كان التكوين الحديث يطغى على تضاريس الشمال،فإن الصحراء تنتمي إلى الهضبة الإفريقية قديمة التكوين . [3]

وإذا تتبعنا تضاريس بلاد المغرب انطلاقا من الساحل نحو الداخل فإنه يُمكننا التعرّف على المظاهر التالية :

أ- تضاريس الشمال :

* السهول الساحلية:تكون واسعة وممتدة في الساحل الأطلسي للمغرب الأقصى،وضيقة ومتقطعة بالجبال في الساحل المتوسطي.وأهمها من الغرب إلى الشرق :

- سهول الساحل الأطلسي: وهي الغرب و سِبُو و دوكالة والسوس.

- سهول الشمال الساحلية المتوسطية: وهي وهران و متيجة و عنابة :وهي ضيقة ومتقطعة بالجبال .

- سهول الشرق الساحلية المتوسطية: وهي ضيقة ومتقطعة في الشمال الشرقي مثل بنزرت و ماطر، لكنها أكثر اتساعا في الشرق أهمها سهل الساحل . [4]

- سهول ليبيا الساحلية : أهمها سهول طرابلس و جفارة و البريقة ودرنة على خليج السرت [5].

أما من حيث التكوين فإن هذه السهول رسوبية خصبة أغنتها التربة التي نقلتها الأمطار من الجبال المحاذية ويعود تكوينها إلى الزمن الرابع [6].

---

(1) -E.Albertini et autres,Afrique du Nord Française dans l'histoire,Ed .Archat,Lyon(sans date),p.29.

(2) هي السهول الساحلية الضيقة والسهول الداخلية المحصورة بين جبال الأطلس التلي.

(3) حليمي عبد القادر،جغرافية الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر،1968،ص.11.

(4) -E.Albertini et autres, op.cit.,p.28.

(5) يسري الجوهري،جغرافية المغرب العربي،مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،2001،ص.16.

(6) محمد الصغير غانم، مواقع وحضارات.................................،المرجع السابق،ص10.

- السهول الداخلية: تنحصر بين الجبال وهي أكثر ارتفاعا من السهول الساحلية أهمها من الغرب إلى الشرق :

- سهول فاس،مكناس،مراكش وملوية العليا والسفلى بغرب بلاد المغرب .

- سهول تلمسان،السرسو، أو تيارت ، سيدي بالعباس وعين بسام و قسنطينة في الوسط [1].

- سهل غار الدماء و باجة أو سهل الدّخلة في الشمال الشرقي حيث يلتقي واد مجردة بواد ملاّق [2] .

وتتميز هذه السهول باستقرار تربتها ولكنها أقل خصوبة من السهول الساحلية .

- الهضاب: تختلف من حيث ارتفاعها واتساعها وتكوينها:

- ففي الغرب نُميز الهضبة المراكشية بين جبال الأطلس الأوسط والساحل الأطلسي جنوب نهر سِبو، وهي هضاب قديمة تغطيها صخور رسوبية ترتفع إلى 1600 متر. كما نميّز هضاب حوز مراكش و تادلة و الهضبة الشرقية [3]التي تعتبر امتدادا للهضاب العليا في الجزائر.

- وفي الوسط تمتد الهضاب العليا محصورة بين سلسلتي الأطلس التلي و الصحراوي بمتوسط ارتفاع 1000 متر وتمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي على مسافة 800 كيلومتر وتنقسم إلى غربية واسعة وشرقية ضيّقة ،وتتميز بوجود بحيرات ضحلة مالحة تعرف بالشطوط وهي : شط الغربي و الشرقي و الحُضنة[4].

- أما في الشرق فتمتد السباسب العليا والسفلى من جبال الظهرة منحدرة في اتجاه الشرق لتتواصل بسهل الساحل .

- الجبال: يُشكل الأطلس التّــلي والصحراوي هيكل التضاريس المغاربية في الشمال وهي موازية للساحل و تقف دون التّوغل إلى الداخل فيما عدا مجاريها المائية التي يشكل تتبّعها منافذ ونقاط اتصال بين الساحل وداخل الإقليم [5]

- ففي الغرب تحتل الجبال معظم مساحة البلاد: إذ نُميّز:

---

[1] هو أعظم سهول الجزائر يمتد من سطيف حتى سوق أهراس ويُعتبر مركز إنتاج الحبوب الأول.

[2] **-S.Gsell,H.A.A.N,T1,op.cit.,p.19.**

[3] **-E.Albertini et autres, op.cit.,p.13.**

[4] **-Ibid,p.17.**

[5] محمد الصغير غانم،المرجع السابق،ص .11.

- في الشمال: جبال الريف التي تشكل قوسا يفتح على البحر المتوسط، ويتربع الأطلس الأوسط جنوبها ،أما الأطلس الكبير أو الأعلى فهو الأكثر ارتفاعا في بلاد المغرب، بينما يمتد الأطلس الصغير ذو التكوين القديم بالجنوب وينخفض باتجاه الغرب.[1]

- وفي الوسط: نميز سلسلتين جبليتين:

- فالسلسلة التلية [2] تُطل على البحر وتترك مجالا ضيقا للسهول الساحلية أو تصطدم بالبحر المتوسط ،تبدأ غربا بجبال تلمسان وفي جنوبها جبال الضاية وسعيدة،ثم جبال الونشريس و الظهرة و زكّار التي تتميز بشدة التوائها،وتتواصل بجبال الأطلس البليدي ثم جرجرة ،ثم جبال البابور فجبال القُل ثم إيدوغ .

وإلى الجنوب توازيها جبال التيطري، فالبيبان ثم جبال نوميديا و قسنطينة وسوق أهراس وتتخلل هذه السلسلة التلية سهول داخلية سبق ذكرها [3]

أما السلسلة الأطلسية الصحراوية فتمتد جنوب الهضاب العليا في كتل موازية للأطلس التلي تقريبا ويمكن تقسيمها إلى : سلسلة الأطلس الصحراوي الغربية بها جبال القصور و عمور وأولاد نايل.أما الشرقية فتتكوّن من جبال الأوراس والنمامشة.وبين القسمين تضمر الجبال كثيرا فتبدو جبال الزاب،قبل أن تختفي عند عتبة بسكرة التي تسمّى عتبة الصحراء وهي ممر طبيعي بين الشمال و الجنوب ويعود الارتفاع فجْأة شرق بسكرة لتبدأ الأوراس[4].

وإذا كانت السلسلتان تتّجهان متفرّقتين من الغرب لتلتقيا في الشرق،فإن جبال الأطلس الأوسط في المغرب وجبال الحضنة في الجزائر تربط بين هاتين السلسلتين من الشمال إلى الجنوب لتحصر الهضاب العليا وتقسّمها إلى هضاب عليا غربية واسعة وشرقية ضيّقة.

وفي الشرق تلتقي السلسلة التلية متمثلة في جبال الخميرومقعد، بالسلسلةالأطلسية متمثلة في:

---

[1] **تعتبر قمة طبقال (4165 م) بالأطلس الكبير أعلى قمم بلاد المغرب على الإطلاق، بينما تفوق كتلته المركزية في معظمها 3000 م،أنظر: .** - **E.Albertini, op.cit.,p.12.**

[2] **بها أعلى قمم شمال الجزائر (لالة خديجة 2308 م)،تأخذ الوديان منها مجاريها لتصب في البحر المتوسط،ما عدا وادي الشلف الذي يأخذ مجراه من الأطلس الصحراوي.**

[3] **للمزيد أنظر: حليمي عبد القادر، المرجع السابق،ص ص. 47-50.**

[4] **نفسه،ص ص .54-55 .**

- جبال الظهرية و يتواصل التحام السلسلتين حتى الرأس الطيب حيث تنخفض لتصبح تِلالا لا يتعدى ارتفاعها 300 متر[1] .

- أما في ليبيا فلا يظهر أثر للسلاسل الجبلية الساحلية ماعدا في الشمال إذ تبدو كُتلا منفردة قريبة من الساحل وهي أقرب إلى الهضاب منها إلى الجبال ،وتتمثل في جبال نفوسة غربا والجبل الأخضر شرقا [2].

ب- تضاريس الصحراء :

إلى الجنوب من الأطلس الصحراوي،تمتد الصحراء مشكلةعمق المجال المغاربي بتوغلها في القارة السمراء.ويغلب عليها طابع الرتابة مع احتوئها لكل أشكال التضاريس:

- الأحواض و المنخفضات : هي مساحات شاسعة تغطيها الكثبان الرملية ترسّبت بفعل الحتّ والنقل أهمها العرق الشرقي والعرق الغربي وعرق مرزوق[3].

- السهول الصحراوية: وتسمى الرّق و يغطيها الحصى نتيجة الرّواسب الصخرية من جرّاء السّيول الجارفة قديما. [4]

- الهضاب الصحراوية: تشغل أكبر مساحة من الصحراء وهي نوعان:الحمادة وهي هضاب جيرية تنحدر من سفوح الأطلس الصحراوي الجنوبية مثل تادمايت و قير والحمادة الحمراء، و هضاب رملية مثل الطاسيلي حفرتها الرياح عن طريق الحت [5] .

- الجبال:تشغل مساحة قليلة وهي بركانية قديمة التكوين على شكل قباب بللورية فوق سطح هضاب قديمة بدورها.أهمها الهقار[6]وجبل العوينات وجبال تبستي بليبيا[7].

---

[1] توجد بها أعلى قمم تونس(جبل الشعنبي 1554 م) في إقليم القصرين. أنظر: م. الهادي حارش، المرجع السابق،ص.17.

[2] يبلغ ارتفاع أعلى قمم نفوسة 968 م والجبل الأخضر 876 م، أنظر: الأطلس العالمي،المعهد التربوي الوطني، الجزائر(ب.ت)، ص.30.

[3]ينتهي العرق الشرقي بشط ملغيغ وهو أكثر المناطق انخفاضا في الجزائر. أنظر: حليمي عبد القادر، المرجع السابق،ص.57.

[4] نفسه،ص.59.

[5] ما تحتــّـه الرياح من الهضاب الرملية هو الذي شكل بفعل نقل الرياح ظاهرة الكثبان التي تطبع العرق.

[6]بها أعلى قمم الجزائر(تهات آتاكور2918 م)،أنظر: حليمي عبد القادر، المرجع السابق، ص.55.

[7] يقع جبل لعوينات على الحدود مع مصر و السودان،ويوجد تبستي في جزءه الأصغر بليبيا على حدود تشاد.أنظر: الأطلس العالمي، المرجع السابق، ص.30.

2- المناخ و النبات الطبيعي:

- من خلال نظرة متأنية لخريطة المغرب الطبيعية وما حولها يمكننا استخلاص العوامل المؤثرة في مناخها وهي: الموقع الفلكي والجغرافي،التضاريس المتمثلة في جبال الشمال وامتداد الصحراء في الجنوب،إختلاف مراكز الضغط الجوي ،وأثر الرياح الدائمة[1]

إن هذه المؤثرات مجتمعة تجعل مناخ بلاد المغرب متجاذبا بين الرطوبة والجفاف فنميّز به فروقا مناخية بين الشمال والجنوب[2] فيتزايد التساقط بالإتجاه شمالا نحو المناطق الساحلية عموما ويتناقص بالإتجاه نحو الداخل ليسود المناخ القاري[3].وفي الجنوب يزداد المناخ تطرّفا لانعدام المسطحات المائية والغطاء النباتي إذ يعتبر الجفاف أهم ظواهر الصحراء لأنه هو الذي أنتجها [4] .

أما اختلاف الحرارة فيتمثل في اتساع المدى الحراري كلما ابتعدنا عن الساحل وتوغلنا داخل القارة ليبلغ التطرف الحراري مداهُ في أعماق الصحراء التي تهب منها رياح السموم نحو الشمال منذ أواخر الربيع[5].

ويتجلى الإختلاف وسوء التوزيع في كمية الأمطار التي تتلقاها بلاد المغرب، فإذا كان غربها يتلقى أكبر الكميات بفعل المحيط الأطلسي والرياح الغربية و الشمالية الغربية فإن مناطق الوسط والشرق، بالإضافة إلى ليبيا، تتلقى كميات أقل وهي محصورة في المناطق الشمالية وخصوصا الساحلية منها.

وقد إنعكس هذا الإختلاف على المياه الجارية .ففي حين نجد أن وديان الجهة الغربية هي أشبه بالأنهار[6] فإن أودية الوسط و الشرق تتراوح بين الجريان شتاءا والجفاف صيفا[7].أما أودية الصحراء فهي نادرة الجريان وتعرف بالأودية الكاذبة.

- و يبرز تأثير المناخ في تنوع الغطاء النباتي ببلاد المغرب الذي يتدرج من الغابات المتنوعة في جبال الأطلس،إلى الحشائش في إقليم الهضاب العليا(La steppe)[1] إلى النباتات القصيرة والمتباعدة في بعض مناطق الصحراء مثل منخفضات العرق[2] .

---

[1] نفسه،ص ص. 73-77.

[2] بينما يتزايد التساقط بالاتجاه من الغرب إلى الشرق إبتداءا من الجزائر نظرا لوقوع غربها في منطقة ظل المطر.

[3] حليمي عبد القادر، المرجع السابق،ص.89.

[4] سجّل مرصد تيميمون بأقصى جنوب الصحراء 58^{o} .

[5] محمد الهادي حارش ، المرجع السابق ،ص. 15.

[6] خاصة أم الربيع وسِبو وملوية التي تأخذ مجاريها من الأطلس الأوسط الذي تُشكّـل ثلوجه المذابة موردا شبه دائم لمياهها .

[7] تعود هذه الظاهرة إلى اعتماد الوديان على مياه الأمطار التي تتهاطل من أكتوبر حتى أفريل ليبدأ فصل الجفاف.

3- معطيات الجغرافيا قديما:

إن ما استعرضناه آنفا هو الواقع الجغرافي الذي حددته الدراسات العلمية الحديثة، ومن الضروري أن نتساءل عن صورة المشهد الجغرافي لبلاد المغرب القديم بدء بتصور الموقع والخريطة والسطح والمناخ وما نتج عنهما من مجارٍ مائية ونباتات وحيوانات .

أ- الأقاليم الطبيعية:

ذكر هيرودوت كما أسلفنا أن ليبيا هي ثالث قارات العالم المعروفة آنذاك بعد كل من أوروبا و آسيا وتمتد من مصر حتى رأس صوليبس الذي هو نهايتها عند طنجة على المحيط الأطلسي.
هذا بالنسبة لامتداد البلاد من الشرق إلى الغرب . أما التقسيم الإقليمي فقد حدده هيرودوت بثلاثة أقاليم رئيسية هي:

- الإقليم الساحلي : وينقسم إلى منطقتين تفصلهما بحيرة تريتون (Triton)

- المنطقة الشرقية تمتد من النيل شرقا حتى بحيرة تريتون غربا ساحلها رملي منخفض وهي موطن قبائل البدو (Les Lybiens nomades) .

- المنطقة الغربية من بحيرة تريتون شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا وهي موطن الليبيين المزارعين(Les Lybiens cultivateurs).وهي منطقة جبلية تعجّ غاباتها بالحيوانات المتوحشة كالثعابين الضخمة و الأسود و الفيلة والدببة [3].

-الإقليم الداخلي: يوازي الإقليم الساحلي بشقيه الشرقي والغربي وهو منطقة الحيوانات الضارية (La Lybie des bêtes féroces)[4].

---

[1] أهم هذه الحشائش نبات الحلفاء الذي يشكل ثروة نباتية للرعي كما تصنع منه مادة السيلليلوز التي تعطي أجود أنواع الورق
[2] تشكل مناطق العرق على اعتبارها منخفضات موطنا لنباتات قصيرة يرتادها الرعاة بقطعانهم في فصل الربيع.
[3] -Hérodote,IV,op.cit.,180,191.
[4] -Ibid, 181.

- الاقليم الجنوبي: يمتد من طيبة بمصر (Thèbes) إلى أعمدة هرقل (Colonnes d'Heraclès) موازيا للإقليم الداخلي تغطيه الكثبان الرملية و يسكنه أقوام آخرون ممن يجاورون الصحراء[1].

وفي مقابل هذا التقسيم الإغريقي كان للرومان رأيهم الخاص في تقسيم ليبيا على أساس التوزيع القبلي و الإمتداد الإقليمي السياسي،ومنهم سالوست[2]الذي انطلق في كتاباته من مصر كحدود شرقية بمحاذاة النيل:

- تليها غربا مدينة قورينة(Cyrène)،فمنطقتا السّرت (Syrtes)وتفصل بينهما لبدة (Leptis)[3]ونُصب فيلان(Autels des Philènes)[4]وتتواصل البلاد بمدن أخرى تابعة لقرطاج غربا حتى موريتانيا(Maurétanie)،وهي المنطقة التي يسيطر عليها النوميديون.

- إلى الجنوب يأتي إقليم جيتوليا (Gétulie) وخلفه إقليم الإثيوبيين (Ethiopiens).
- أخيرا المنطقة الملتهبة بحرارة الشمس[5].

ب-اتجاه الساحل:إن تصور الخريطة عند هيرودوت يجعل إتجاه الساحل وبالتالي تحديد المواقع غير دقيق بل مغلوطا تماما،لأن الساحل عند هيرودوت يمضي غربا حتى أعمدة هرقل،ولكن الأصحّ أنه يمضي شمالا من أراضي قرطاج ليتّجه غربا بعد ذلك.

فعندما يقول هيرودوت:" عند غرب بحيرة تريتون فالليبيون ليسوا رعاة وليس لهم نفس العادات.إنهم الليبيون المزارعون ولديهم بيوت ويدعون بالماكسيس(Maxyces)،فإنه يقصدُ ما صوّرته خريطة عهده ولكن الحقيقة أن غرب ليبيا المقصود هنا،هو في الحقيقة شمالها.

---

(1) - **Ibid.**

(2) - **Salluste,op.cit.,XIX.**

(3) **هي مدينة لبدة الحالية بشرقي طرابلس بليبيا.**

(4) **هي الحدود بين المستوطنة الإغريقية قورينة التي أسّسها باتوس بغربي ليبيا سنة 631 ق.م وممتلكات قرطاج في المنطقة الساحلية بين السرت الكبير والصغير. وكانت محل نزاع بين الطرفين، وللتحكيم تقرّر أن ينطلق رجلان من كل مدينة في اتجاه السّرت وكان السّبق للأخوين" فيلان" القرطاجيين ولكن القورينيين لم يعترفوا للقرطاجيين بهذه الحدود،إلا إذا تم دفن الأخوين فيها وهما على قيد الحياة، فضحّى الأخوان من أجل وطنهما قرطاج وأقيم لهما نُصب يخلّدهما هناك. أنظر:-**

- **Salluste,op.cit.,LXXIX.**

(5) **ويقصد بهذه المنطقة الصحراء الشاسعة.**

ونفس الخطأ وقع فيه سترابون الذي كتب " أن الساحل الليبي يرسم من الإسكندرية حتى أعمدة هرقل خطا مستقيما لا يقطعه إلا خليجا السّرت وخِلجان أقل اعتبارا أو نتوءات ورؤوس تشكّلها هذه الخلجان [1] .

وبالعودة إلى بحيرة تريتون ونهر تريتون ،نجد أن التفسيرات تختلف حولهما:

- ذهب قزال إلى أنها خليج السرت الصغير أي خليج قابس وهناك من رأى بأنها شط الجريد [2].

- وهناك من رجّح بأنها رصيف الصخيرة الرملي المنخفض(Banc de Skhira) بخليج قابس،وأن نهر تريتون هو "وادي اللبن" الذي ينتهي إليه وهو أهم الأودية التي تصب في البحر المتوسط على طول الساحل الشرقي [3] .

- ومن الطروحات التي نراها منسجمة مع واقع الجغرافيا،الرأي الذي يقول بأن " تريتون هو شط ملغيغ والذي يُعتبر شط الغرسة وشط الجريد امتدادا له نحو الشرق. وليس هناك ما ينفي أن هذه المنخفضات الثلاثة كانت موصولة في القديم لعدة اعتبارات : أوّلها أن منطقة الجريد لا تبعد سوى 80 كيلومتر عن منطقة سُوف والتي يوجد شط ملغيغ شمالها [4]،وثانيها أن السطح يصبح رمليا أكثر فأكثر وذلك كلما توجهنا نحو شط ملغيغ.وهذا ما يتلاءم مع وصف هيرودوت،وثالثها أنه في شمال هذا الشط كما في غربه تكون المنطقة جبلية،فمن الجهة الغربية القريبة من حدود الشط نجد جبال الزيبان ومن ناحية الشمال نجد جبال الأوراس و النمامشة وكل هذه المناطق كانت كثيفة الأشجار وقد أكد ابن خلدون أنها كانت ظلا واحدا من طرابلس حتى طنجة[5].

---

[1] **-Strabon,Géographie universelle, II,5-33, Traduction B.Boumerque,Flammarion, Paris, 1965.**

[2] **- Hérodote,IV,op.cit.,Note du traducteur n°2,p.185.**

[3] **-J.Tixéront,Reflection sur l'implantation ancienne de l'agriculture en Tunisie,Karthgo, Revue d'Archéologie Africainne,10éme année 1959-1960,Paris,p.7.**

[4] **-A.Najah, Le Souf des Oasis,Ed. Maison du Livre, Alger, 1970,p.27.**

[5] **عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص.109.**

كما لا يجب أن لا ننسى أن المؤرخين يتفقون على سياسة الأرض المحروقة التي انتهجتها الكاهنة ظنا منها أن دافع المسلمين كان اقتصاديا محضا، فقامت بإتلاف غابات الجبال المذكورة لتبعد جيش الفتح الإسلامي.

إذن فالغطاء النباتي الذي ذكره هيرودوت ينطبق على الغابات التي غطت شمال وغرب شط ملغيغ" [1] .

ومع هذا الطرح المؤسس و الجديد،وما دام نهر تريتون هو واد اللبن بالنسبة للقائلين بأن بحيرة تريتون هي خليج قابس أو رصيف الصخيرة المنخفض،أفلا يكون وادي جدي بدوره إذن هو نهر تريتون بالنسبة للقائلين بأن شط ملغيغ هو بحيرة تريتون ؟!

ج- نتائج المناخ:

في الفترة السابقة لظهور المصادر الأدبية الأولى(القرن الخامس قبل الميلاد)،ومنذ ظهور الإنسان تغير المناخ بدون شك وكان أكثر حرارة وأكثر رطوبة أيضا مع تلك الفترة التي عرف فيها الإنسان أقدم الصناعات الحجرية.وقد كانت المنطقة أكثر ملائمة لاستقبال الرحّل عمّا هي عليه الآن وكانت أكثر غنى بنباتاتها وحيواناتها [2] بحيث شكلت مجالا خصبا للقنص والإستئناس .

وفي العصر الحجري الحديث (Néolithique)بقيت الحيوانات البرية كالزرافة والأيل و الفيل والنعام تجُوب مناطق الصحراء،قبل أن تأخذ البلاد المظهر الذي نعرفه وتختفي الحيوانات المدارية عدا بعض الفيلة التي عاشت في الصحراء والشطوط الكبرى حتى بداية عصرنا [3] .

وتجلت قمة العصر الحجري الحديث في كل ما تزخر به الصحراء من صناعات حجرية متنوعة تمثلت في رؤوس السهام والحجارة المشذبة بإتقان،يقابلها فن النحت والنقوش الصخرية وخاصة أروقة الرسوم النفيسة، لكن عالم الصحراء هذا انهار أمام هذا التصحّر فيما يمكن تسميته بالكارثة التاريخية [4] .

وإذا كانت ظاهرة التصحر قد اشتدت في العصور التاريخية خاصة في المنخفضات التي غطّتها رمال التصحر بكثبانها لتشكل ظاهرة العرق،فإن مَردّ ذلك هو القضاء على الغطاء النباتي بعد

---

(1) -A.Najah,op.cit.,p.28.

(2) عثر على هيكل لفيل الماموث بحاسي خليفة شرق الوادي سنة 1957، وهو معروض بمتحف باردو: .Ibid-

(3) - A.R. Voisin,Le Souf,Monographie,Ed. Elwalid,El-oued ,2004.p.53.

(4) -L. Balout,Algérie Préhistorique, Arts et métiers graphiques,Paris1958,p.8.

تصفية الحيوانات البرية.ولقد عمل الإنسان على إضعاف النبات بفعل الإحتطاب والرعي مع ما دمرته الحرائق على مدى الأجيال المتعاقبة. [1]

ويؤكد بعض الدارسين أن أودية الصحراء وضفافها الواضحة أحيانا نتجت عن الأمطار الغزيرة التي قابلت العصور الجليدية في أوروبا إبان عصر البلايستوسين (Plèistocéne) أي بنحو مليون سنة من عصرنا . [2]

ومما سبق يمكننا أن نستخلص أن خريطة الصحراء الحالية ليست مطابقة لخريطة العصور الحجرية. وأن صحراء ما قبل التصحر (Désertification)كانت مغايرة سواء من حيث المناخ أو الغطاء النباتي اللذين لعبا دورا كبيرا في الإنتشار البشري .

وحين ننتقل إلى الفترة التي نمتلك عنها كتابات تاريخية،أي منذ القرن الخامس قبل الميلاد فقد وصف هيرودوت الصحراء قائلا: "من هناك إلى الجنوب عند التوغل داخل ليبيا فالبلاد صحراء بلا ماء ولا حيوانات ولا مطر ولا غابة،وليس هناك أثر للرطوبة" [3] وأورد ستيفان قزال عن كوريبوس (Corippus) قائلا:"إن ريح الأفريكوس (Africus) الذي يتقيأ ألسنة اللهب يبدأ بحرق الأرض بلفحاته ويقضي على قوة الجيوش ونشاطها...والهواء الذي يمُرّ يكون حارقا فيُلهب الفم الذي يغدو مرًّا جافا من الريق ،وتكتسح الحرارة الحلق الجاف وينفذ كل العَرَقِ من الخلايا ويبتلّ الجلد ولكنه يجف ليرتفع دافئا على السطح" [4].

ويبدو أن هذا النوع من الرياح هي رياح السيروكو التي قصدها العديد من المؤرخين القدامى من أمثال هيرودوت و سترابون ووصفوها بدقة بجوار خليج السرت الكبير [5].

---

(1) - A.R.Voisin,op.cit.,p.53.

(2) طه باقر،عصورماقبل التاريخ وعلاقتها بأصول الحضارة القديمة،مقال من الموقع الالكتروني www.libsc.org،ص.5. حول العصور الجليدية في أوروبا وما يقابلها في بلاد المغرب،أنظر:محمد الصغير غانم مواقع وحضارات ص.18

(3) –Hérodote,IV,185.

(4) -S.Gsell,H. A.A.N.,T.1,op.cit.,p.84.

(5) -Ibid,p.85.

أما الأمطار فقد كانت في الشمال مثل عهدنا متذبذبة وغير منتظمة،ويتملك القلق المزارعين في انتظارها إذا تأخرت فيلجأون إلى معبوداتهم المختلفة متوسلين إليها لتمُنّ عليهم بالمطر.وقد كانت المياه نفسها محل عبادة عند الإنسان المغاربي القديم لأنها أساس الخصوبة والضامن لبقاء الإنسان ونمو الزرع و الضرع [1] .

وفي الصحراء كانت الأمطار نادرة ولكنها حين تهطل تكون على شكل وابل يكفي ليملأ الأودية الكاذبة وتفيض فتدمّر ما حولها [2].

وانعكس التساقط على المياه الجارية في أودية الشمال التي يمكن أن نطلق على بعضها صفة النهر وخاصة أودية المغرب الأقصى التي يصلح بعضها للملاحة في بعض أجزائه مثل :وادي سيبوبوس (Sebubus) [3]،ويعود ذلك لتلقيها مياه الثلوج المذابة التي تشكل موردا دائما من قمم جبال الأطلس .

كما انعكست كميات التساقط على الغطاء النباتي الذي كان أكثر كثافة بكل مكوناته المتنوعة والمعروفة حاليا من غابات وأحراش وحشائش بالإضافة إلى أن الأنواع النباتية لم تكن مختلفة كثيرا عما هي عليه الآن [4] .

ومثل الغطاء النباتي،فقد كانت الحيوانات البرية متنوعة إذ عجّت البلاد بالطرائد المختلفة وإن كانت الحيوانات قد تناقصت بفعل الإنقلاب البيئي الذي حدث في الصحراء.

وقد كانت الحيوانات المتوحشة الكبيرة مصدر خوف لأنها كانت أخطر ما يتهدد حياة السكان.أما الحيوانات الصغيرة فقد شكلت موردا للقنص حتى مع امتهان المغاربة لحرفة الرعي باعتبارها من أهم الموارد الرئيسية للغذاء [5].

وقد عرفت بلاد المغرب القديم الجراد الذي كان يشكّل،رغم خطره على المزروعات والغطاء النباتي مصدرا غذائيا مثله مثل الحلزون الذي تواصل استهلاكه لاحقا

---

[1] حول العبادات المحلية والفكر المغاربي القديم أنظر: محمد الصغير غانم،الملامح الباكرة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا ،طبع دار الهدى ،عين مليلة ،2005،ص ص.11-62.

[2] -S.Gsell,op.cit.,pp.90-92.

[3] سبوبوس هو وادي سبو ومن أهم الأودية الأخرى: أم الربيع و ملوية -Ibid,p.93.

[4] لقد اختفت غابات العفصية (Thuya) وأدخلت أنواع أخرى كالكافور(Ecalyptus) .

[5] -S.Gsell.op.cit.,p.136.

حتى أن الرومان بعد احتلالهم لبلاد المغرب صنعوا منه مأكولات و أدوية وخضع لتربيـــة حقيقية [1] .

ومن كل ما سبق نستخلص أن البيئة المغاربية كانت بفضل عناصر مناخها من حـــرارة و تساقط ومياهها الجارية وغطاءها النباتي ،قد شكلت وسطا ملائما للتواجد البشري وتطوره وهذا ما أهلها لتكون من أكبر محطات التواجد البشري منذ بدايات التاريخ في الفضاء المتوسطي.

(1) -Ibid,p.137.

ثانيا: المعطيات البشرية

1- أصل السكان: تناول هيرودوت الأقوام التي سكنت بلاد المغرب القديم في موضعين اثنين .ففي كتابه الثاني قال:" تسكنه قبائل كثيرة من الليبيين على طول امتداده عدا الجزء الواقع في أيدي الإغريق و الفينيقيين" [1]. وفي كتابه الرابع قال:" تعيش هنا أربعة أمم لا أكثر إثنتان منها أصليتان واثنتان غير أصليتين،فالليبيون(Lybiens) في الشمال والإثيوبيون(Ethiopiens) في جنوب ليبيا أصليون ، والفينيقيون (Phéniciens) والإغريق(Grecs) استقروا فيها فيما بعد [2] .

ومن المؤرخين الرومان أورد سالوست أن السكان الأوائل لإفريقيا هم الجيتول(Gétules)والليبيون[3]ثم أوردالمور(Maures)والنوميديين(Numides)نتيجة لامتزاج السكان الأوائل ببقايا جيش هرقل من ميديين(Mèdes)وفرس(Perses)[4].

ومن الروايتين السابقتيْن نستشف الوحدة العرقية لأغلب سكان البلاد الذين ينتمون إلى جنس فاتح اللون عبّرت عنه رسومات المصريين القدماء(أنظر شكل 1 ص41).وهذا ما لاحظه ملاّحوا الشرق الوافدون إلى السواحل الإفريقية حوالي نهاية الألف الثانية قبل الميلاد[5].

وقد نفى شارل أوندري جوليان رواية سالوست مؤكدا بأنْ لا نصيب لها من الصحة وفنّد رواية بروكوب (Procope) الزاعمة أن العبرانيين قد غزو ليبيا، ورَدّ ذلك إلى مصادر يهودية متأثرة باليونان قائلا " أن ليس لطرحها أية قيمة تاريخية " [6] .

أما في العصور الوسطى فقد كتب المؤرخون العرب عن البربر وأصولهم منذ القرن الثاني للهجرة حتى ظهر عبد الرحمان بن خلدون الذي ذكر كتاباتهم واستفاد منها[7].

---

(1) -Hérodote,II,32.

(2) - Hérodote,IV,197.

(3) -Salluste,XVII.

(4) -Ibid.

(5) -G.Ch. Picard Les régions de l'Afrique antique,librairie Plon,p.150.

(6) شارل أندري جوليان، المرجع السابق،ص.71.

(7) أهمهم على التوالي هشام بن السائب الكلبي،عبد الله بن قتيبة ،أبو جرير الطبري ،أبو الحسن المسعودي،أبو يوسف الوراق ،علي بن حزم،إبراهيم الرفيق القيرواني، أبو الحسن الجرجاني،أبو بكر البيهقي ،وأحمد التيفاشي القفصي.
للمزيد أنظر :عثمان الكعاك، البربر،مكتبة دار الفكر طرابلس،1965،ص ص. 42-44.

فبعد أن دحض كل النظريات القائلة بوفود السكان على بلاد المغرب من هذه الجهة أو تلك أكّد: " أن هذه الأمة المشتملة على أمم وعوامل ملأت جانب الأرض لا تكون متنقلة من جانب آخر وقطر محصور والبربر معروفون في بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام "[1] .

ومن المعاصرين، هناك من رأى إمكانية تصنيف البربر كحاميين ساميين (Kamito-sémite) وهم سكان البحر المتوسط [2]. تنوعت عنهم السلالة الصحراوية بينما تمثل السلالة الإثيوبية منهم صفات وسطية . وينتمي كل من الليبيين والمصريين إلى هذا الجنس [3].

وهناك من ربط سكان بلاد المغرب الذين ذكرهم سالوست ،من جيتول وليبيين بمعطيات أنثروبولوجية تعود، منذ ما قبل التاريخ،بأصول السكان إلى سلالتين :

- إنسان مشتى العربي في الشمال بين التل و البحر المتوسط .
- الإنسان القفصي الذي شغل الحيز القاري الداخلي الذي أصبح لاحقا لقبائل الجيتول [4].

وينسجم هذا الطرح مع الرأي القائل بأن أهم حركات السكان تكون قد تمت في العصرين الحجريين القديم والحديث.ففي العهد القفصي اكتسحت أقوام من جنس المتوسط شمال إفريقيا والتحق بهم صحراويون رُحّل وبعض الزنوج بأعداد قليلة.ومن المؤكد أن الإختلاط العرقي خلال العصر الحجري الحديث وما تلاه قد طبع سكان بلاد المغرب القديم[5].

وقد حاول بعض المؤرخين الغربيين إضافة طرح جديد يعيد تعمير بلاد المغرب إلى عملية الطرد التي نتجت عن غزوات شعوب البحر في الركن الشمالي الشرقي من البحر المتوسط،ونفَذَ هذا العنصر الآري عن طريق مضيقي صقلية وإيبيريا،مستدلين بوجود رسوم

---

(1) **عبد الرحمان بن خلدون ،المصدر السابق،ص.96 .**

(2) **دينيز بولم، الحضارات الإفريقية، ترجمة علي شاهين ، دار مكتبة الحياة، بيروت،1974،ص.17.**

(3) **-Ch.A. Julien,op.cit.,p.17.**

(4) **-G. , Camps,op.cit., p.16.**

(5) **-Kaddache,L'Algérie dans l'antiquité,3éme Ed.,E.N.A.L.,Alger,1992,p.28.**

العربات ذات العجلتين التي يجرها حصانان في كل المنطقة الصحراوية ويُعزى لهؤلاء الوافدين استعمال معدن الحديد في بلاد المغرب [1] مع أن هيرودوت قد أكد أن الليبيين هم اللذين علّموا الإغريق قرْن أربعة أحصُن مجتمعة لجرّ عرباتهم [2]. وقد اشتهر الليبيون باستعمال ما يعرف بالعربات الطائرة الممثلة في الرسوم الصخرية [3] .

إن إيحاء بعض المؤرخين الأوروبيين بالأصل الأوروبي لسكان بلاد المغرب ما هو إلا طرح يندرج ضمن التبرير لسياسة الإندماج التي مارسها الاستعمار الأوروبي الحديث[4].

وبين القائلين بالأصول السامية أو الحامية أو الآرية لليبيين،فإننا نستنتج أن تعمير بلاد المغرب يعود إلى ما قبل التاريخ،وأن لهذه البلاد سكانا أصليين عمّروها منذ القدم. وبحسب موقعها الذي يتوسط قارات العالم القديم فإنها استقبلت موجات بشرية من جهات أربع فهناك تيار شمالي و آخر بحري وثالث صحراوي و رابع آسيوي [5]لم تستطع كلها التأثير بعمق في النسيج العرقي إلا في مناطق محدودة من سواحل ليبيا والمغرب الأدنى[6] وبقي الأمر على حاله حتى بتوالي الإستعمار الثلاثي(الروماني و الوندالي والبيزنطي) حتى مجيء العرب الفاتحين بالإسلام فاندمجت البلاد بسِمَاتِهَا الأصيلة في منظومة الحضارة العربية الإسلامية وأصبح أهلها بربرا (أمازيغ عرّبهم الإسلام) [7] .

إن من أهم سِمَات المجتمع المغاربي القديم أنه لم يبق مجتمعا منغلقا وإنما تفاعل مع محيطه المتوسطي و الآفرو-عربي،وقد أدخله هذا التفاعل التاريخ ليلعب دوره الحضاري ويساهم في مجهود التطور البشري. ولعل أكبر دليل على حيويته أنه كان مجتمعا ولوُدًا يتمتع أفراده بالصحة الجيدة. " وقد كانت الأقوام البربرية كثيرة العدد بفضل معدل نمو مرتفع ومعدل عمر خارق،وكانت ولادة ا

---

(1) **-H .L'Hote,Les gravures rupestres de l'Oued Djerat(Tassili-N-Ajjer),T III ,Mémoires du Centre de Recherches Préhistoriques XXV,S.N.E.D.,Alger,p.47.**

(2) **-Hérodote,IV,189.**

(3) **للمزيد حول العربات الطائرة أنظر: -H.L'Hote,Les Chars rupestres sahariens,Edition des Héspérides,Toulouse,pp.67-76.**

(4) **محمد الهادي حارش ،المرجع السابق ص.31.**

(5) **عثمان الكعاك،موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي،تقديم ومراجعة أبو القاسم سعد الله وآخرون،ط1 ،دار الغرب الإسلامي،بيروت ،2003،ص ص.23-22.**

(6) **الإغريق في برقة والفينيقيون في قرطاج .**

(7) **محمد الصغير غانم،مقالات وآراء................ ص.13.**

لأطفال محل ترحيب في الأسر" [1]،ولا يخفى أن في ذلك دلالة أكيدة على أن المجتمع المغاربي القديم عرف الأمن الغذائي والإستقرار، وتوفر أسباب العيش لكي ينمو في صحة جيدة.ويؤكد هيرودوت هذا الطرح بتصنيفهم أوفر صحة من جيرانهم المصريين فيقول إن المصريين أصحّ الناس أجساما بعد الليبيين [2] ويضيف" في الحقيقة أن الليبيين هم الأوفر صحة من كل الأقوام الذين نعرفهم" [3].

(1) -M .Kaddache,op.cit.,p.29.
(2) -Hérodote, IV,181.
(3) -Ibid,187.

2- النشاط البشري في بلاد المغرب القديم :

إذا كان المجال المتوسطي هو موطن أهم الحضارات القديمة فإن الحضارة المصرية الفرعونية هي التي استحوذت على أهم الدراسات التاريخية من قِبل المؤرخين القدامى والمُحدثين على حد سواء،وخاصة فيما يتعلق بالمنطقة الممتدة من البحر الأحمر حتى المحيط الأطلسي،أو ما يُعرف بالمجال العربي الإفريقي [1].

لقد تم تقديم المجتمع المصري القديم كنموذج يكاد يكون فريدا للتطور الحضاري الذي عرفته المنطقة و الذي أوصلها عبر سلسلة تطورها الاقتصادي و الاجتماعي،إلى إيجاد أنظمة حكم توّجَها توحيد البلاد تحت سلطة مركزية واحدة ،وذلك بعد أن نعمت بالاستقرار والإندماج في محيطها وبيئتها التي استثمرتها من خلال ممارسة زراعة الأرض و تربية الحيوانات[2].غير أن نفس المؤرخين أهملوا النموذج المغاربي الذي عرفته الجهة الغربية من شمال إفريقيا وصحرائها كأنّ أهلها لم يتوصلوا إلى إيجاد منظومة حضارية مختلفة أو مُكمِّلة على الأقل للنموذج المصري القديم. فهل يُعقل أن تعرف جهة من شمال إفريقيا هذا التطور وهي مصر، ولا تعرفه جهة قريبة منها وهي بلاد المغرب؟!

إن أوجه الإختلاف التي يمكن أن تكون مدْعاة للتكامل بين نموذجين،يعود بدون شك إلى بعض الإختلاف في البيئة الجغرافية والمجال الحيوي والمتمثل في أهم عناصر الحياة وهو توفر الماء،خاصة وأن طبيعة مصر لم تكن تختلف عن طبيعة الصحراء لولا ذلك الشريان الحيوي المتمثل في نهر النيل الذي ارتبط وجود مصر بوجوده،مع أن موقع بلاد مصر أكثر جنوبا من بلاد المغرب أي أنها امتداد للصحراء الكبرى حتى البحر الأحمر.إذن فمنطق الجغرافيا يقول بأن منظومتها المناخية والنباتية تكون أكثر تطرفا وجفافا لولا وجود النيل[3] .

[1] **نقصد به المنطقة الممتدة بين البحر الأحمر شرقا والمحيط الأطلسي غربا . للمزيد أنظر: محمد الطاهر العدواني، الجزائر منذ نشأة الحضارة،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1982،ص.231.**

[2] **بلغ من اهتمام الدارسين للحضارة المصرية بروز تخصص فريد في التاريخ يُــعرف بعلم المصريات (Egyptologie) خاصة بعد أن فك العالم شامبوليون (Champolion 1797-1832) رموز الكتابة الهيروغليفية .**

[3] **النيل أطول أنهار العالم،بــ6700 كلم،يأخذ بداية منابعه من بحيرة فيكتوريا (Victoria) ويتجه شمالا.وبعد بحيرتي كيوغا (Kioga) و ألبير (Albert)، يأخذ اسم النيل الأبيض بعد الخروج من منخفض مستنقعات السودان.وفي الخرطوم يلتقي النيل الأزرق المتدفق من هضبة إثيوبيا، ثم يقطع بلاد النوبة ومصر ليخصبهما بفضل فيضاناتها لصيفية ليصل القاهرة أين تبدأ الدلتا حتى البحر المتوسط ..P.Larousse, Larousse illustré,Paris,1977,pp.1561-1562 -**

لقد روى نهر النيل واديه ودلتاه على مرّ العصور فأضحت تربتهما سوداء صالحة للزراعة بفضل وفاء النيل من خلال فيضانه المنتظم [1]،هذا الفيضان الذي يغمر الوادي والدلتا بعد أن يكون الفلاح المصري قد بذر البذور في التربة .وهكذا تتوفر للزرع كل عوامل الإنتاش من تربة خصبة وماء وهواء وضوء وحرارة،فيأخذ كل متطلباته في النمو منتظرا أمطار الشتاء مع اشتداد عوده ليواصل نموه وما إن يأتي ثماره حتى تبدأ رياح الخماسين في الهبوب فتلفحه ليكتمل نضوجه.ومع انتهاء فصل الربيع يحين أوان الحصاد [2] وهكذا يتوفر القوت للإنسان بعد دورة البذر و الري ثم النمو والنضوج و أخيرا الحصاد .

وبعد الجني تترك الأرض للهواء وأشعة شمس الصيف فتشقّـها متغلغلة في أعماقها،فيدخلها الهواء وتقضي الحرارة على كل ما هو ضار بالزرع ،وهكذا تستعيد التربة نشاطها لاستقبال البذور من جديد[3]، في انتظار فيضان جديد يعلن عن دورة زراعية جديدة لتكون مصر هبة النيل أو هبة من هذا النهر العظيم [4] .

وإذا كان المؤرخ أرنولد توينبي (Arnold Toemby) يرى بأن " هبة النيل لم تزد عن تزويد المواد الخام التي قلبت المستنقع إلى جنّة غرينية،أما تطوير الأرض البرية أصلا إلى أرض خصبة فقد تم إنجازه بسبب ما كان للمصريين أنفسهم من نشاط اجتماعي وجهد ومهارة وقدرة إدارية " [5] .

ومهما كانت دواعي توينبي في هذا التبرير فإنه يُمكننا أن نتساءل هل كانت هذه الحضارة العظيمة لتقوم أصلا لو لم يكن النيل أساسها؟!

---

[1] يشكل فيضان النيل صيف كل سنة فرصة لغمر الوادي و الدلتا فيخصبهما بفعل الطمي الذي يغني التربة بالمكونات الضرورية. غير أن السد العالي(سد أسوان الذي يشكل بحيرة اصطناعية كبرى والذي أقامته مصر خفف من هذه الظاهرة منذ أواخر الخمسينات.وفي بداية القرن الواحد والعشرين عملت مصر على تحويل بعض مياه النيل لاستصلاح حوالي مليون فدّان في منطقة توشكي جنوب مصر. كما حوّل المصريون بعض مياه النيل التي تنتهي إلى البحر عبر أروقة تحت قناة السويس لتصب فيما يُعرف بترعة الشيخ زايد في صحراء سيناء بهدف استصلاح نصف مليون فدان.

[2] محمد الطاهر العدواني،المرجع السابق،ص.231.

[3] نفسه.

[4] تنسب المقولة " مصر هبة النيل" ‘إلى الرحالة المؤرخ الإغريقي هيرودوت .

[5] أرنولد توينبي،تاريخ البشرية،ج1،ترجمة نيقولا زيادة، الأهلية للنشروالتوزيع ،بيروت،1981،ص ص. 79-80.

ولم تنته العملية عند الزراعة ودورتها السنوية بل كان النيل حبلا قويا شدّ وشائج مصر بوجهيها القبلي و البحري فكان الإتصال من خلاله سهلا ميسورا . ومن ناحية أخرى أملت فعاليات النهر على قدماء المصريين شكلا من التعاون الجماعي المنظم لمواجهة الآثار السلبية للفيضانات والمتمثلة في تدمير القرى المبنية بالطين على طول النهر،فتدارك السكان هذا الخطر بإقامة تلال من التراب المُكوّم بنوا عليها قـراهم فلم تعد في متـناول ميـاه الفيضان[1] .

وأمـام هـذا العطـاء المتجـدد لنهـر النيـل كـان لا بـد مـن ظهـور سـلطة تـشرف علـى الـري و الإستـصلاح وتـنظم جهـود الجماعـة وتـضامنها،وأدى كـل ذلـك إلـى قيـام مجتمـع مـستـقر ضـمن أمنـه الغذائي بفضل انسجامه في وحدة اقتصادية واجتماعية تُـوِّجت بالوحـدة السياسية.ولعـل هـذا مـا قـصده توينبي بالمهارة والقدرة الإدارية .

لقـد جسّد الفرعـون وحـدة مـصر الـسياسية بـأن أصـبح الملـك وكبيـر المـزارعين والمـشرف الأكبر على الـرّي و الـسيد المطلق،بل لقد أصـبح الإلـه بـن الإلـه حتـى غـدا كـل شـيء،من المدينـة،إلى القصر، إلى المعبد،إلى الحصن،إلى الهرم،كل شيء يجسد سلطته،معلنا أن المُلك للفرعون وحده [2] .

لقد استسلم قدماء المصريين لهذا النظـام الـذي أمـلاه تـدفّق النيـل الـدائم ورتّبـوا حيـاتهم علـى جريانه فوهبهم منظومة حضارية متميزة جسدتها سلطة مركزية وحّدت البلاد لآلاف السنين في إطار مظهـرٍ منقطــع النظيــر للتعــاون الجمــاعي[3]الــذي نتجــت عنـــه واحــدة مــن أرقـــى الحــضارات عبر العصور [4]

---

[1] لم يزل مصطلح(كوم) " لصيقا بمئات القرى و المداشر المصرية إلى يومنا هذا" . أنظر: محمد الطاهر العدواني، المرجع السابق ،ص. 232.

[2] نفسه،ص ص .232-233.

[3] أرنولد توينبي،المرجع السابق،ص. 73.

[4] لا تزال الحضارة المصرية تكشف عن أسرارها إلى أيامنا هذه بفضل البعثات الأثرية التي يؤطرها أثريون من أعرق الجامعات و المتاحف في العالم.ولا تزال الآثار الفرعونية على مدار السنة عماد سياحة ثقافية مزدهرة تجلب لمصر ملايين السياح سنويا.

وهكذا كانت جغرافية مصر التي أملت على المصريين الإستقرار وامتهان الزراعة دافعا لحركة التاريخ التي تُدين لفعاليات نهر النيل بنشاط أهله، وبنائهم لمنظومة حضارية مدهشة .

غير أن هذا النظام المركزي الفرعوني لا يخلو من بعض العيوب مثل قيام نظام دكتاتوري تسلّطي دان له المصريون حدّ التّأليه .بالإضافة إلى أن البلاد كلها تسقط في يد الأجنبي بسقوط النظام المركزي و المتمثل في الفرعون ، ناهيك عن التنافس على وراثة العرش[1] .

أما في بلاد المغرب القديم بشمالها وصحرائها فإن بيئتها تختلف عن بيئة بلاد مصر الفرعونية وخاصة فيما يتعلق بمنظومة الري فيها، فولّد هذا الإختلاف تباينًا في النمط الحضاري المغاربي الذي ساهم في تشكيله توفّر عوامل لا يزال بعضها يطبع بلاد المغرب إلى اليوم وهي:

- تباين السطح:من ساحل ضيق مليء بالمستنقعات من ورائه سلسلة جبلية تغطيها الغابات والأحراش وتعج بأنواع الطرائد [2]،إلى هضاب عُليا هي أنسب المناطق لزراعة الحبوب التي تشكل الغذاء الرئيسي للشعوب المغاربية،إلى صحراء كبرى تمتد جنوب الأطلس الصحراوي بفساحة أرجائها و سهولة اتصالاتها وقد كانت أراضٍ للصيد والقنص و التدجين والمرعى. وفوق ذلك كان مناخها أكثر ملاءمة للنشاط البشري وليس أدل على ذلك من بقايا المجاري وآثار البحيرات التي جفت[3].ولا يزال بعضها يسيل تحت الأرض ويظهر في مناطق متقطعة [4].

- إنعدام مجارٍ مائية دائمة مع عدم انتظام التساقط الذي يتميز بالتذبذب وعدم الإستقرار حتى أثناء الفصل المطير(أكتوبر- مارس)، فالمطر يمكن أن يهطل منذ بداية الخريف،ويمكن أن ينحبس إلى آجال غير معلومة.وإذا تهاطل فهو غير منتظم فقد يكون كافيا بما يضمن نمو الزرع وإدرار الضرع،وقد يفيض، بينما لا ينزل بما يكفي الحاجة في مناطق أخرى [1] .

---

[1] **يرجع تعدد الأسرات في مصر إلى حدّ كبير إلى مشكلة التنافس على وراثة العرش: للمزيد أنظر:رشيد الناظوري، جنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا، الكتاب الأول،مرحلة التكوين والتشكل الحضاري، إلى نهاية الألف الثالث ق.م، مكتبة الجامعة العربية بيروت،1968، ص ص.285-289.**

[2] **جُفّفت المستنقعات في السهول الساحلية لتشكّل أجود الأراضي التي استغلّها المعمرون ضنا أنهم امتلكوها إلى لأبد.**

[3] **محمد الطاهر العدواني، المرجع السابق ،ص. 234.**

[4] **تُعرف هذه الظاهرة بالأودية العمياء التي طمرتها الرمال.**

[1] **إن تذبذب التساقط في بلاد المغرب هو السبب في تذبذب إنتاج الحبوب عبر المواسم .**

ـ طبيعة التربة التي كانت عرضة للإجهاد سنة بعد أخرى دون أن يُترك لها مجال لتستعيد خصوبتها قبل اكتشاف تقنيات التسميد أو التبوير. ولم يكن الإنسان يعلم سببا لانخفاض مردود الأرض الذي يتناقص سنة بعد أخرى حتى ينعدم أو يكاد .ويُقال عن المراعى ما يقال عن الأراضي الزراعية التي تستنفذ خصوبتها بعد سنوات قليلة من الإستغلال .وأمام كل هذا يضطر الإنسان صاغرا إلى التنقل بحثا عن أرض عذراء قوية بمكوناتها وحولها مرعى خصيب يستقر فيه حينا ثم يتركه باحثا عن غيره في مسلسل لا متناه من الحل و الترحال اللذين فرضهما تحدي الطبيعة وهكذا كان الترحّل ضرورة زراعية رعوية في نفس الوقت [2] .وهنا تصدُق نظرية التحدي والإستجابة لأرنولد توينبي .

لقد تظافرت كل العوامل السابقة لتشكيل نمط معيشي متميز ومختلف عن النمط المصري أو ما ماثله من الحضارات القديمة التي قامت على الأنهار مثل بلاد مابين النهرين.

إن النمط المغاربي اعتمد على الحركة و التنقل الدائمين اللذيْن طبعَا حياة السكان وحدّدا صيرورة مجتمعه فكان أفراده رُعاة مربي ماشية وشكّل أكل اللحوم وشرب الألبان الغذاء السائد لديهم [3] .

ولم ينته الأمر عند الحل و الترحال كأسلوب طبع المجتمع المغاربي ولكن الأمر تعداه إلى شكل السلطة التي حكمت بلاد المغرب،فلم يكن الأمر يستدعي قيام سلطة مركزية تُتوّج المصالح المشتركة للمجتمع،بل فرضت الضرورة نشوء نظام يتماشى مع حركية القبيلة التي جعلت من القطيع حجرالزاوية في اقتصادياتها بصفته الضامن لقوت أفرادها.ومن الطبيعي أن تسود هذا النظام علاقات تحددها عدة عوامل أهمها:المرعى و الماء اللّذان يشكلان أحيانا موضوع صراع أو تصالح بين القبائل التي كانت الملكية الجماعية تؤطرها فيما يشبه نظام الشيوعية الزراعية [4] .

---

[2] **محمد الطاهر العدواني،ص.235.**

[3] **- Hérodote,IV,186.**

[4] **-M. Kaddache,op.cit.,p.30.**

وهكذا تأخر قيام نظام الدولة المركزية في بلاد المغرب القديم فيما عدا بعض الإتحادات القبلية ولعل ممالك النوميديين هي التي انتقلت بالمجتمع المغاربي إلى مستوى الدول بمفهومه الجيوسياسي مثل مملكتي الماسيل و الماسيسيل [1] حتى قبل الوحدة.

لقد ترتب على النظام القبلي الذي عرفته بلاد المغرب خصوصيات تنسجم مع حياة البساطة مثل رفض البذخ و الميل للتقشف والصبر وغيرها من الصفات النبيلة مع عدم خلوّه من بعض العيوب [2].

لقد كان من مزاياه:

- الحيلولة دون قيام نظام استبدادي كالذي عرفه المصريون تحت الفراعنة أو الفرس تحت الأكاسرة،بل شكّلت كل قرية نوعا من الجمهورية أين تناقش الأمور في مجالس القبيلة [3].

- نشوء ديمقراطيات محلية قامت على مبدأ المساواة بين أفراد القبيلة أو العشائر التي تجمعها رابطة الدم تحكمهم مجالس تتشكل من شيوخ ترشحهم قدراتهم و مكانتهم الإجتماعية ومنهم شيخ المرعى الذي يجب أن يكون عارفا بأماكن الكلإ وتسلسلها بين الجبال والنجود [4] .

- عدم خضوع المغاربة للإستعباد الجماعي،فحتى وإن خضعت بعض القبائل لجأت قبائل أخرى إلى الجبال والصحراء للتَتَحَيّن فُرص الإنقضاض على المُحتل [5] .

أما عيوب النظام القبلي فتتمثل في:

- عدم قدرة أهل البلاد على التكتّل العسكري في مواجهة الغزو ويعود ذلك إلى غياب السلطة المركزية لأن المقوم الأساسي هو القبيلة منفردة أو متحدة مع جاراتها وليست الأرض و الإنتماء المشترك إليها هو المقوم الأساسي [6].

---

(1) **تمتد مملكة الماسيل من أمساغا(الوادي الكبير) حتى الأراضي القرطاجية وتمتد مملكة الماسيسيل من أمساغا حتى ملوشا (نهر ملوية).**

(2) **للمزيد حول صفات البربر أنظر: عبد الرحمان بن خلدون،المرجع السابق،ص.103 وما تلاها.**

(3) **-M. Kaddache,op.cit.,p.56.**

(4) **محمد شفيق، المرجع السابق،ص.117.**

(5) **شارل أندري جويليان،المرجع السابق،ص.35.**

(6) **محمد شفيق،المرجع السابق،ص.118.**

- إعاقة الإنتماء القبلي الذي يشحذ الإحساس بالحرية لقيام نظام مركزي بمصادرة بعض من حرية الأفراد والإنخراط في التمدن الذي يبني إطار الدولة الواحدة [1].

- عدم السماح لأيّة قبيلة بالسيطرة من أجل الحسم في كبريات الأمور لأنه يُتَرجَمُ بالتعالي وهذا يضطر القبائل إلى تحكيم غيرهم في شؤونهم[2] حتى اضطُرّ الطامحون في السياسة منهم إلى الإدّعاء بالنسب الأجنبي [3] .

- عدم ازدهار الثقافة المغاربية(الأمازيغية) التي بقيت مناسِبة لنمط المعيشة القبلي المحلي حتى إذا اصطدمت بثقافات منافسة سلّمت لها المشعل في كل مجالات التمدّن،وأساسها الكتابة الليبية التي احتلت دائما المرتبة الثانية ولم تحض بالإهتمام اللائق ككتابة محلية يمكن أن تُستعمل في المعاملات الرسمية[4] حتى في الممالك المغاربية نفسها[5].

وخلاصة القول،إن قدماء المغاربة لم يكن لهم هامش لاختيار مسارهم الحضاري منذ فجر التاريخ.ففي حين مهّدت الجغرافيا للحضارة المصرية ،نرى أن جغرافية بلاد المغرب أعاقت ظهور منظومة حضارية مماثلة للحضارة الفرعونية،فارتكز النشاط البشري أساسا على الرّعي و الزراعة الموسمية التي لا تجعل الإنسان يرتبط بالأرض بصفة دائمة.

3- القبائل المغاربية القديمة وأنشطتها:

أ- القبائل الليبية في المصادر المصرية:

إذا كان السائد أن أول المصادر المكتوبة عن بلاد المغرب القديم هي المصادر الإغريقية،إلا أن قدماء المصريين كانوا السبّاقين لتدوين أخبار المغاربة القدماء،إذ يعود ذلك إلى أكثر من 3000 سنة قبل الميلاد [6].

---

(1) نفسه.

(2) مثل لجوء ماسينيسا إلى سيبيون كوصي حول مسألة وراثة العرش النوميدي .

(3) -S .Gsell,HAAN,T VIII,p.237.

(4) مها عيساوي،النقوش اللوبية في شمال إفريقياالليبية(دراسة تاريخية لغوية)،مذكرة ماجستير في التاريخ القديم،إشرف محمد الصغير غانم،قسم التاريخ،كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية،جامعة منتوري قسنطينة،2004،ص.120.

(5) ظلت اللغة البونية هي اللغة الرسمية عند الملوك النوميديين تاثرا بالحضارة البونية.

(6) نقصد بها وثائق ما قبل الأسرات ووثائق الدولة القديمة،والدولة الوسطى،والدولة الحديثة،بالإضافة إلى بردية هاريس الكبرى أو نقوش لوحات معبد رعمسيس الثالث بطيبة. للمزيد أنظر: مقال محمد علي عيسى، الليبيون القدماء من خلال المصادر الأثرية و التاريخية القديمة،جامعة الفاتح، طرابلس،الموقع الإلكتروني WWW.Libsc.org ،ص ص.2-5.

ورغم طرحها الأحادي في تدوين ما عَنّ للمصريين كتابته عن جيرانهم الليبيين،إلا أن مواضيع الوثائق المذكورة أكّدت التفاعل القائم بين مصر كأرض خصبة أهّلها استقرار سكانها لبناء دولة استكملت كل شروط قيامها،و بين قبائل أو اتحادات قبلية طبع حياتها الرعي أساسا،وهو النشاط الذي يعتمد على الحلّ و الترحال لتتبّع الكلإ وما ينتج عنه من نظام أساسه القبيلة وقوامه القطيع.

لقد سجّل المصريون هذه الوثائق على أساس تخليد حُكّامهم اللذين ألّهوهم،وهي تعتبر وثائق أثرية مادية أكثر منها وثائق تاريخية مكتوبة. وقد حصرت الأحداث التي ذكرتها في إطار الصدّ والرّدّ لكل وافد يُريد استيطان وادي النيل أو دلتاه وهو الأمر الذي يوحي بانغلاق المصريين على العالم الخارجي [1]،رغم أن المصريين أنفسهم وفدوا من الصحراء إلى النيل منذ وقت مبكر وكانوا صيادين رعاة فتحولوا باستقرارهم على ضفاف الوادي و الدّلتا إلى مزارعين [2] .

ومع ما يمكن أن تشمله النصوص المصرية من تحيُّز فقد قسّم المصريون الأقوام الليبية القريبة منهم دون غيرها،إلى جماعات قبلية هي:

- التّحنو: تقع بلادهم إلى الغرب من مجرى النيل والدلتا حسب مختلف النصوص وتتوغل جنوبا حتى الفيوم. كانت لهم صفات تؤكد قرابتهم للمصريين الذين أعاد بعض العلماء أصلهم إلى التّحنو وورَد ذكرهم في نصوص رعَمسيس الثالث (Ramsès) (1194-1162 ق. م) [3] .

- التمحو:سيطرواعلى التحنو واستوطنوا الواحات الغربية المصرية.تميزوا ببياض البشرة والشعر الأشقر والأعين الزرقاء و تزوج منهم المصريون كثيرا[4].وهناك من ادّعى بأصلهم الأوروبي لكن ذلك يتنافى مع المعطيات التاريخية لأن الأوروبيين لم يصلوا الصحراء في أيّة فترة

---

[1] محمد الطاهر العدواني،المرجع السابق،ص.219. لعل هذا الانغلاق يفسر الوعي بالسيادة و الناتج عن قيام الدولة باكرا عند المصريين.

[2] محمد علي عيسى،المرجع السابق،ص.6.

[3] ورث حكم والده ست- نخت هو المؤسس الحقيقي للأسرة العشرين،حارب الليبيين وشعوب البحر .
أنظر: سليمان جمعة بن السعدي،شعوب البحر وعلاقتها بمصر ،1300-1150 ق.م (دراسة تاريخية)، رسالة ماجستير، تحت إشراف محمد بيومي مهران ،كلية الآداب جامعة الإسكندرية،1992.

[4] منهم الملكة" حتب حرس الثانية" التي وُجدت بمقبرة الجيزة بثوب غير مصري وتظهر بشعر أشقر برّاق والذي أخذته عن خؤولتها.

من التاريخ القديم بينما أكّد آخرون أن أصلهم من الصحراء قبل الجفاف [1] ولكن،لِمَا لا يكون التّمحو هم أصيلو جبال الأطلس الذين لهم نفس الصفات ويكونون قد استوطنوا الصحراء وهاجروا بعد الجفاف نحو النيل [2] .

- الليبو: إتفق المؤرخون على موطنهم الممتد من برقة حتى الواحات إلى الجنوب إذْ سيطراسم الليبو على المنطقة فاختفت بقية الأسماء وثبّت الإغريق هذا الإسم على المجموعات السكانية التي تقع إلى الغرب من مصر تارة أو على كل شمال إفريقيا تارة أخرى وقد ارتبط اسمهم بشعوب البحر كحلفاء لهم في غزو مصر وهم ليسوا منهم [3] .

- المشوش: يرى الباحثون أنهم استوطنوا شمال الصحراء الليبية وامتدت مضاربهم غربا حتى المغرب الأدنى(تونس الحالية) وقد يكون ذلك دلالة على أن إسم المشوش هم الماكسيس اللذين أشار إليهم هيرودوت [4] وقد حاولوا الإستيطان في مصر ولكنهم فشلوا فأقاموا حاميات على الحدود معها وانخرطوا في جيوش المصريين كمرتزقة قـُدِّمَتْ لهم أجورهم على شكل أراض زراعية حتى استطاعوا النفوذ إلى مناصب عليا في الدولة وتوصل أحدهم(شيشنق)935-929 ق.م، إلى تأسيس الأسرة الثانية و العشرين و التي توارثت حُكم مصر حتى الأسرة الرابعة والعشرين، قرابة القرنين من الزمن [5]

وهكذا طبعت هذه القبائل الكبرى أحداث المنطقة الشرقية من بلاد المغرب القديم في السلم كما في الحرب،دافعها في ذلك البحث عن أرض توفر لهم الإستقرار و الأمن الغذائي كما وفـّرته لمن سبقوهم إليها وأغلقوا الباب في وجوه من جاؤوا بعدهم.

---

[1] إن أول اتصال أوروبي بشمال إفريقيا كان في حدود نهاية الألف الثانية قبل الميلاد من خلال شعوب البحر الذين حاولوا الاستيطان في وادي النيل ولكن محاولتهم فشلت.

[2] أنظر محمد علي عيسى،المرجع السابق،ص.7.

[3] محمد مصطفى بازما،ليبيا هذا الاسم في جذوره..........،ص.76.

[4] -Hérodote,IV,191.

[5] حكم شيشنق مصر منذ سنة 935 قبل الميلاد،وظل الحكم متوارثا في الأسر الليبية حتى 715 ق.م وكان آخر فرعون ليبي هو تافناخت .



الشكل رقم 1:زعماءُ قبائل مغاربية بريشة فنان مصري ، حوالي 1300 ق. م.
محمد شفيق، المرجع السابق،ص13.

ب- القبائل الليبية في المصادر الكلاسيكية:

إذا كانت المصادر المصرية قد تحدّثت عن القبائل الليبية الكبرى وتفاعلها مع وادي النيل ودلتاه فإن مصادر المؤرخين الكلاسيكيين [1] فصّلت أكثر إذ تحدّثت عن القبائل حسب مواقعها وأنماط معيشتها. وقد تعرّض هيرودوت إلى أغلب هذه القبائل وقسّمها إلى صنفين تفصل بينهما بحيرة تريتون ، يعيش الصنف الأول شرق البحيرة وهو عبارة عن قبائل تمتهن الرعي و الترحال غالبا،وصنف آخر يعيش غرب البحيرة وهي القبائل المستقرة التي تمارس الزراعة [2].(أنظر الخريطة 2 و3 ص 48)

وقد تحدّث هيرودوت عن القبائل الرعوية بدقة لأنه عرفها عن كثب،ولكن أخباره عن القبائل المستقرّة المزارعة كانت أخبارا منقولة عن غيره [3]

* قبائل البدو الرُّعاة:

- الأديرماشيد(Adyrmachides): أشار هيرودوت أنها الأقرب إلى مصر وقد أخذت عنها أغلب عاداتها فيما عدا اللباس [4]. ويمتد موطنهم من حدود مصر إلى مرفأ بلينوس (Plynos) [5] . كما ذكر هذه القبيلة كل من سيلاكس (Scylax) وبلين الأكبر(Pline l'ancien)،و سترابون (Strabon) [6] .

- الجيليغام (Giligames):تقع مرابعهم غرب الأديرماشيد حتى جزيرة أفروديزياس(Aphrodisias) شرقا[7]منها يبدأ موطن السيليفيوم[8]وقد أغفل ذكرها الكُتاب اللاحقون ربما لأنها كانت قبيلة صغيرة .

---

(1) نقصد بهم المؤرخين الذين ظهروا منذ إستيطان الإغريق في قورينا بإقليم برقة، حتى الفتح الاسلامي. أشهرهم الرحّالة المؤرخ الإغريقي هيرودوت (484- 424 ق.م)، والذي خصص حيزا كبيرا في مؤلفه التواريخ(Histoires) لبلاد المغرب(ليبيا)،خاصة في كتابيه الثاني و الرابع. للمزيد حول هيرودوت وغيره من الكلاسيكيين أنظر:
علي فهمي خشيم،نصوص ليبية،ط 2،دار مكتبة الفكر،طرابلس،1975.

(2) - Hérodote, IV,186,191.

(3) كانت قورينة بليبيا هي آخر محطات رحلة هيرودوت و منها عاد إلى موطنه واستقر في أثينا منذ 447 ق.م لينجز مؤلفه الشهير،لكن الحياة لم ترق له فيها فغادر أثينا إلى مدينة ثوري وعاش هناك، فيما عدا رحلة واحدة إلى أثينا، حتى وفاته سنة \424 ق.م. – للمزيد عن هيرودوت أنظر: علي فهمي خشيم،المرجع السابق.

(4) –Hérodote, IV,168.

(5) هي سيدي البرّاني في صحراء مصر الغربية. - أنظر :علي فهمي خشيم ،المرجع السابق، ص.33.

(6) محمد علي عيسى ، المرجع السابق،ص.12.

(7) جزيرة كرزة إلى الغرب من مدينة درنة الحالية،أنظر: علي فهمي خشيم المرجع السابق،ص.33.

(8) نبات طبيعي شهير استغله الليبيون والوافدون لخصائصه الكثيرة - Hérodote, IV,169.

- الأسبيت (Asbytes): توجد غرب الجيليغام وإلى الجنوب من قورينا الساحلية. إشتهر أهلها بالعربات التي تجرها أربعة جياد [1] وتأثروا بعادات القورينائيين وقد ذكرهم كل من سترابون وبطليموس (Ptolemé) [2]

- المارماريداي(Marmarides): لم يذكر هيرودوت هذه القبيلة بينما حدد سيلاكس أراضيها بين مضارب الأديرماشيد في برقة حتى تقترب من خليج السرت،وأعاد بلين ذكرها وحدّد موقعها بين باريرونيوم (paraeronium) (مرسى مطروح) والسرت الكبير كما تداول اسمها كل من بلين الأكبر و سترابون [3] ضمن شعوب ليبيا وبقي اسمها متداولا حتى قُبيل الفتح الإسلامي وبسببها قد تكون المنطقة سُمّيت فيما بعد باسم "مرماريكا"(Marmarica) [4] .

- الأوشخيز(Auschises): تقع مضاربهم بالمناطق الداخلية إلى جنوب برقة وتمتد غربا حتى البحر عند مدينة يوسبيريديس (Evespérides) وهي مدينة بنغازي حاليا. وفي منتصف أراضيهم تقطن قبيلة صغيرة هي الباكليس(Bacales) التي تصل أراضيها إلى البحر عند مدينة توخيرة(توكرة حاليا) [5]،ولم يرد إسم الأوشخيز عند أغلب الكُتاب اللاحقين ما عدا ديودور الصقلي(Diodore de Sicile) بإشارة عابرة [6].

- النازامون(Nasamones): من أكبر القبائل الليبية، تقع مرابعها غرب موطن الأوشخيز وذكرتها جل المصادر القديمة.يمارس أهلها التنقل الموسمي بحيث يتركون قطعانهم ترعى قرب البحر صيفا وينزلون إلى موقع يدعى أوجلة لجني التمور التي ينمو نخلها هناك جيدا[7] وذكرها العديد من الكتاب الكلاسيكيين وكان الرومان يحسبون لها ألف حساب لكثرة رجالها وقوّتهم [8].

---

(1) -Ibid,170.

(2) علي فهمي خشيم، المرجع السابق،ص.81.

(3) نفسه،ص.170.

(4) -M.Ernest,op.cit.,Introduction,P.XVI.

(5) -Hérodote, IV,171.

(6) علي فهمي خشيم،المرجع السابق،ص.114.

(7) الواحات المقصودة هي واحات جالو بليبيا. –Hérodote, IV,172 .

(8) محمد علي حسن، المرجع السابق،ص.19.

و"قد استولى النازمون على إقليم قبيلة البسيل(Psylles) الذين جففت الريح مياههم المخزنة وأماتت حَرثهم بمنطقة السّرت فخرجوا لمحاربة هذه الريح جنوبا فهلكوا جميعهم"[1].

- الغمفزانت(Gamphasantes): موطنهم " إلى الجنوب من النزامون في أرض الوحوش الضارية،لا يخالطون الناس ولا يملكون حتى أسلحة للدفاع عن أنفسهم [2]،ويقول بلين الأكبر أنهم يسيرون عراة ولا يشتبكون في معركة ولا يتصلون بالأجانب على الإطلاق[3] وبهذه الصفات يمكن التساؤل إذا كان هؤلاء من عِداد البشر؟.

- المكاي (Maces): تقع مضاربهم إلى الغرب من قبيلة النازمون ويجري في أراضيهم نهر كنيبس(Knyps) الذي يُعرف بوادي كعّام حاليا وينبع من تل مرتفع يدعى بـ :تلّ الحِسان تكسوه أشجار كثيفة خلافا لباقي المنطقة الجرداء وتبعد هذه المنطقة بـ 200 فرسخ على البحر [4].

- اللوطوفاج(Lotophages): تأتي بعد قبيلة الجيندان (Gindanes) في منطقة تشكل رأسا في البحر. [5] " يتغذى أهلها على ثمار اللوتوس(Lotos)،حجمها في حجم ثمرة التوت البري،ومذاقها حلو كمذاق الرّطب وهم لا يأكلونه فحسب بل يصنعون منه نبيذهم" [6].

- الماشيل(Machyls): يأتي موقعهم بعد الجيندان على امتداد الساحل، يستهلكون اللوتوس،لكن أقل من اللوطوفاج يمتد موطنهم حتى نهر تريتون الذي يصب في بحيرة تحمل نفس الإسم (تريتون)[7].

- الأوزيس(Auses):تتمركز على بحيرة تريتون إلى جانب الماشيل ويفصل بينهما نهر تريتون وهي آخر القبائل الرعوية المحاذية لساحل البحر و التي ذكرها هيرودوت[8].

---

[1] يروي هيرودوت هذه القصة عن الليبيين -Hérodote, IV,173.

[2] -Ibid,174.

[3] علي فهمي خشيم،المرجع السابق،ص.87.

[4] -Hérodote, IV,175.

[5] قد تكون شبه جزيرة جرجيس أين يمكن العبور إلى جزيرة جربة نفسها والتي كان ينمو بها اللوتوس بكثرة. -Hérodote, IV,note de traducteur n° 1,p. 185.

[6] -Ibid,177.

[7] تسميها بعض الكتابات بحيرة " تريتونيس" . -Ibid,178.

[8] -Ibid,183.

*** قبائل المزارعين المستقرّين:**

حدّد هيرودوت بداية أراضي المزارعين إلى الغرب من نهر تريتون والأصح،واستنادا إلى الخطأ الشائع في إنحناء الساحل شمالا،إذا كان نهر تريتون هو وادي اللبن الذي يصبّ في خليج قابس أو منخفض الصخيرة الرملي،فإن هذه القبائل توجد شمال نهر تريتون لتَتّبع ساحل البحر.

وبما أن هيرودوت لم يزر تلك المنطقة فإن أخبارها كانت قليلة وغير دقيقة،ذلك أن القرطاجيين كانوا يعتبرون أخبار القبائل ومواقعها من أسرار نشاطهم التجاري الذي هو أساس الإقتصاد القرطاجي لتجنب المنافسة خاصة أنهم أول من تاجر في البر وفي البحر معا [1]. فحتى الرحّالة حنون(Hanon) لم يذكر المواقع التي صادفها في رحلته سوى قبيلة لكسيت(Lixites) المُقيمة على ضفاف نهر ليكسوس(Lixus) وهو النهر الذي يجري في أرض موطنه قرطاج[2] .

وتتمثل القبائل المستقرة التي تمتهن الزراعة في:

- الماكسيس (Maxcyces): تقع إلى الغرب من نهر تريتون بعد موطن الأوزيس[3] ، " يفلحون الأرض و يقطنون البيوت.و يدّعُون أنهم أصيلو طروادة (Troie)،وبلادهم،مع كل الجزء الغربي،أكثر وحوشا و أحراشا من بلاد البدو الرعاة إذ تعج بالأفاعي الضخمة و الفيلة و الأسود والدببة [4].

- الزويس(Zauèces): "وهم الذين تقود عرباتهم النساء إلى الحرب" [5]

---

[1] فيليب حتى،تاريخ سوريا ولبنان و فلسطين،ج1 ،ترجمة جورج حداد و عبد الكريم رافق،إشراف جبرائيل جبور،ط2،دار الثقافة،بيروت،ب ت،ص ص. 107 - 109.

[2] -H.Tauxier,Etudes sur Les migrations des tribus berbères avant l'Islamisme, R.A. n°6,1862,OPU,Alger,p.449.

بدون شك،فإن هذا التفكير التجاري المحض هو الذي حرم البشرية من خلاصة تجارب القرطاجيين في التجارة الدولية من البحار التي جابوها والأصقاع التي وصلوها لمئات السنين .

[3] تجب مراعاة خطأ اتجاه الساحل والأصح هو الشمال .

[4] -Hérodote, IV,191.

[5] -Ibid,193.

ويمكن التساؤل عما إذا كانت هؤلاء النسوة هُنّ من عُرفن بالأمازونيات [1].

- الجيزانت(Gyzantes): " يلي موطنهم موطن الزويس وعندهم ينتج النحل عسلا كثيرا، كما ينتج صنّاع العسل كميات أكثر وهم يأكلون القردة التي تعج بها جبالهم .وتقابل بلادهم جزيرة تدعى كيرونيس (Kyraunis) تملأها أشجار الزيتون و الكروم ويمكن الوصول إليها سيرًا على الأقدام [2]

* القبائل الداخلية:

ومن القبائل التي تقع داخل بلاد المغرب لا بد من الإشارة إلى:

- الجرامونت (Garamantes) أو قبائل الواحات: تمتد بفرعيها الشمالي والجنوبي بين مرتفعات طرابلس و واحة جرمة بمنطقة فزّان حاليا. يملك أهلها عربات تجرها أربعة جياد. ولديهم أبقار ترعى القهقرى لضخامة وانحناء قرونها، يتغذى أهلها على التمر ويستصلحون الأرض الملحية بوضع طبقة من الرمل عليها قبل زراعتها [3]. وبالإتجاه غربا في نفس الخط الرملي يذكر هيرودوت مواقع لقبائل تبعد عن بعضها مسيرة عشرة أيام منها الأترانت (Atarantes) و الأطلنط (Atlantes) [4].

- المُور(Maures): ينتشرون بين نهر ملوشا (ملوية) شرقا والمحيط الأطلسي غربا وقد اشتُقت موريتانيا و موروسيا من إسم هذه القبيلة الواسعة الإنتشار وقد ذكرها كُتّاب كلاسيكيون من أمثال سالوست [5].

---

[1] هن نساء قوّامات على الرجال في السلم والحرب حيث يَقمن بكل الأعمال الموكلة لهم بما في ذلك الحرب.
- أنظر ديودور الصقلي ،المكتبة التاريخية،الكتاب III، الفقرة 52، ترجمة علي فهمي خشيم،المرجع السابق،ص ص.120-121.

[2] كيرونيس هي جزيرة قرقنة المقابلة لمدينة سفاقص -Hérodote, IV,193.

[3] يرجح أن يكون الطوارق من نسلهم،أنظر خشيم،المرجع السابق،ص.42. -Ibid,183.

[4] -Ibid,184

[5] -Salluste, Jugurtha,XVI.

- النوميد(Numides): تقع مرابعهم بين أراضي قرطاج شرقا و أملاك المُور غربا. أشهر قبائلهم الماسيل في الشرق والماسيسيل في الوسط و الغرب. وهم بدو رُحّل عمل ماسينيسا على استقرارهم و توطينهم بالزراعة [1] .

– الجيتول(Gétules): يقطنون الجنوب،ذكرهم سالوست مع الليبيين كمُكوِّن للنسيج البشري المغاربي،تميزوا بالثورة وشكل منهم يوغرطا [2] جيشا مع أهل الأوراس لمقاومة الرومان [3].

تلك هي القبائل المغاربية القديمة التي انخرطت في أنشطة حدّدتها بيئتها. لكن هذه الأنشطة، وإن جعلت من القبيلة والقطيع حجر الزاوية في اقتصادياتها، خاصة عند البدو الرّحّل، فإنها لم تُعق التطور الحضاري لبلاد المغرب القديم .

لقد تطورت القبائل البدوية ومارس بعضها الزراعة الموسمية، الأمر الذي أهّلها لتصبح نصف بدوية (Semi- nomades) و تؤسس القرى التي تطوّر بعضها لتصبح مُدنا بفعل الإحتكاك بالوافدين بينما قامت القرى في وادي النيل ودلتاهُ وتواصل بقاؤها في شكلها القروي ولم تتطور عبر العصور إلى مدن [4]. وهذا يؤكّد أن الجغرافيا تركت الحسم للتاريخ في بلاد المغرب فأبدعت إرادة الإنسان المغاربي.

---

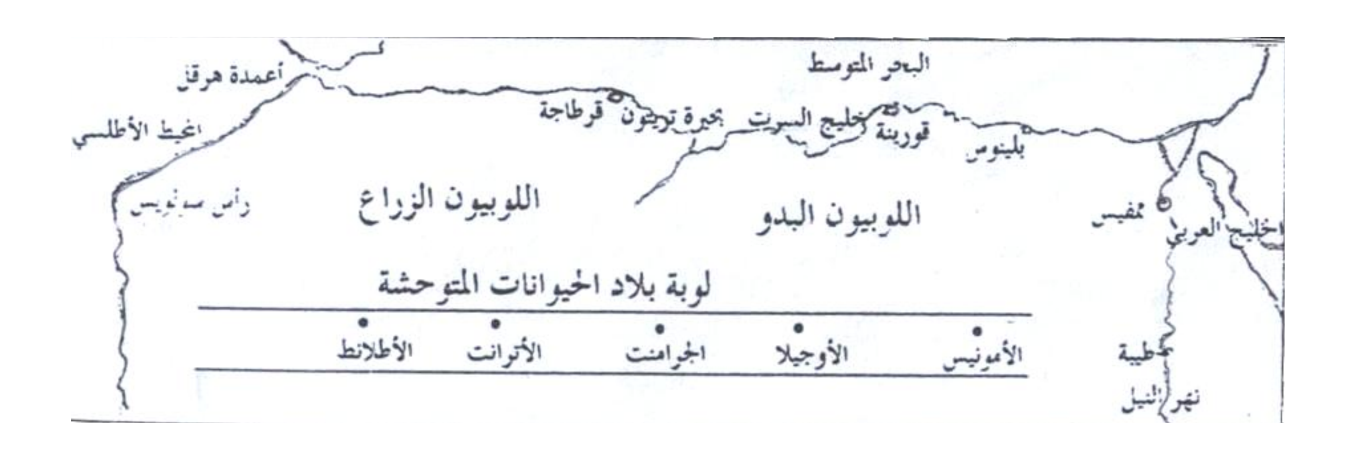
(1) **-M.Kaddache,op.cit.,pp.60-63.**

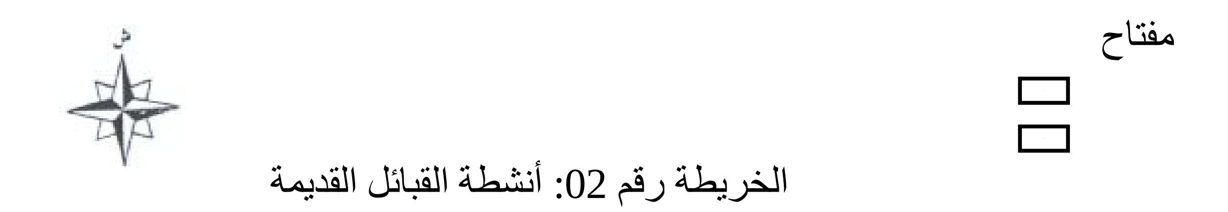
(2) **-A.Bernard,L'Algérie,Librairie Felix Aléan,Paris,1929,p.99.**

(3) **هو حفيد ماسينيسا من ابنه مستمبعل رباه عمه مسيبسا مع ابنيه أذربعل و هيمسال.استحوذ على الزعامة في نوميديا وحارب الرومان،وقع في الأسر بعد مؤامرة من الملك بوخوس وانتهى سجينا في روما سنة104 ق.م،خصص له سالوست كتابا في مؤلفه الشهير.**

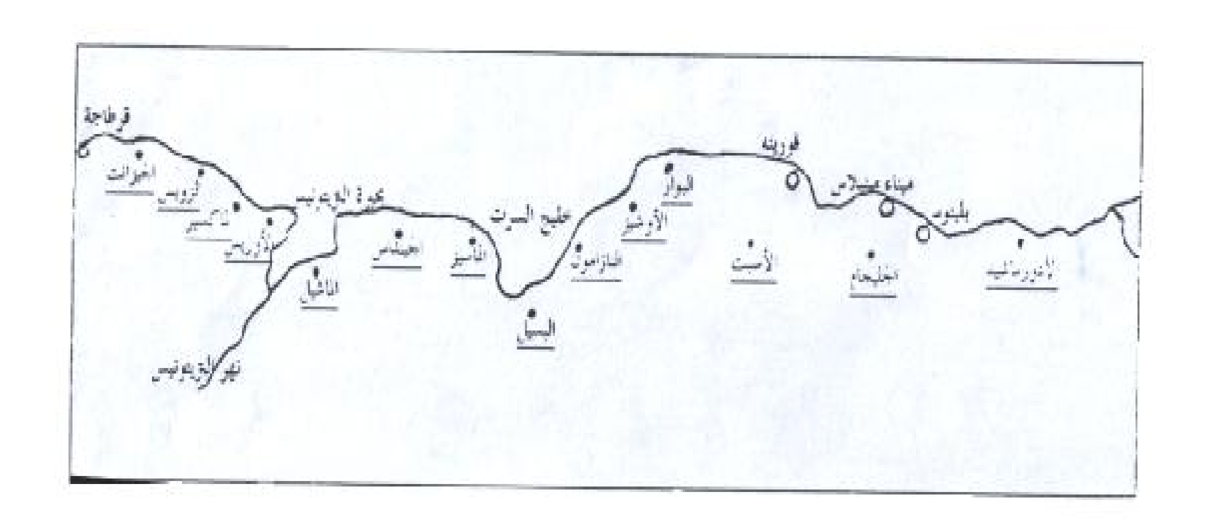
(4) **عبد الرحمان يسري الجوهري،المرجع السابق،ص.54.**

بلاد المغرب القديم(لوبا) حسب خريطة هيرودوت





الخريطة رقم 02: أنشطة القبائل القديمة



الخريطة رقم 03: توزيع القبائل الليبية

S.Gsell, Textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du nord: عن (HERODOTE),p.06.

الفصـــل الثانـي:

بدايات الزراعة في بلاد المغرب القديم

أولا- الملامح الباكرة للزراعة.

1- تحولات العصرالحجري الحديث.

2- الإستئناس و الرعي .

3- الاستقرار وإرهاصات الزراعة.

ثانيا- الإنتاج الزراعي المُبكّــر.

1- الخضر .

2- الحبوب.

3- الأشجار المُثمرة .

4- الكتّـــان .

5- النبات الطبيعي .

ثالثا- أصول الزراعة المبكرة.

1- أصول القبائل المزارعة.

2- ظروف انتقال الكنعانيين إلى بلاد المغرب.

3- أصول الزراعة في الواحات.

4- أصول منظومة الري في الواحات.

أولا:الملامح الباكرة للزراعة :

1- تحولات العصر الحجري الحديث:

بعد الفترات الجليدية الأربعة في أوروبا والتي قابلتها فترات دافئة وممطرة في الشرق وشمال إفريقيا، ودعت البشرية عصر البلستوسين (Palistocène) واستقبلت فترة الهيلوسين (Hélocène)، لتتيح لإنسان العصر الحجري الحديث (Néolithique) فرصة قيادة ثورة إنتاج الطعام[1] .

كانت الظروف الحيوية السائدة في منطقة المغرب القديم والصحراء أكثر ملاءمة بغطائها النباتي الذي كان يعُمّ حتى الهقار و الطاسيلي إلى غاية الألف الثالثة قبل الميلاد على أقل تقدير حيث بدأ فيها الجفاف يزحف على الصحراء[2] .

وتميز العصر الحجري الحديث في شمال إفريقيا بشروع الإنسان في الإنتقال من حياة الصيد والجمع والإلتقاط، والتي بدأ ممارستها منذ الفترة القفصية، إلى الإستقرار ليرتبط بالأرض شيئا فشيئا ويزاول الرعي والزراعة الموسمية[3] بتدخله في تدجين و ملاءمة الأنواع الحيوانية والنباتية ، دون أن يكون لأي نوع من النشاطين الفصل في أيهما الأسبق [4].

وإذا كان العصر الحجري الحديث يعود في بلاد الشرق إلى منتصف الألف السادسة قبل الميلاد ويستمر حتى الألف الرابعة [5]،ليليه العصر النحاسي وعصر ماقبل الأسرات في مصر، فإن العصر الحجري الحديث في بلاد المغرب يبدأ من الألف الخامسة ليستمر حتى نهاية الألف الثانية قبل الميلاد[6] أي حتى دخول الفينيقيين.

إن الأهم بالنسبة إلينا هو تتبّع الملامح الباكرة للزراعة محاولين معرفة جذورها في بلاد المغرب القديم .فإذا كان العلماء قد قسّموا العصر الحجري الحديث لاعتبارات تاريخية

---

(1) -L.Balout,Préhistoire de l'Afrique du nord,Arts et Mètiers graphiques,Paris,1955,p.81.

(2) -H.J.Hégot, Le Sahara avant le désert, Ed. Les Hespérides, Paris, p. 83.

(3) رشيد الناضوري، المغرب الكبير،ج1، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1966. ص.124.

(4) -Ch.A.Julien,Histoire de l'Afrique blanche,P.U.F.,8eme Ed.,Paris,1958.p.10.

(5) محمد الصغير غانم،مواقع وحضارات ماقبل التاريخ،........ ص.111.

(6) رشيد الناضوري،المرجع السابق،ص.154.

وجغرافية إلى ثلاثة نماذج [1] (صحراوي- سوداني،وقفصي،ومتوسطي تلي) فإننا نعتبر أن المنطقة تُشكّل وحدة حضارية بين شمالها وصحرائها ،ممتدة من المحيط الأطلسي غربا حتى البحر الأحمر شرقا ومن المتوسط شمالا إلى أعماق الصحراء الكبرى جنوبا فهي جزيرة يحيطها الماء والرمال، تفاعلت أصقاعها وتواصلت لتشكل خلفية حضارية متشابهة صقلتها إحداثيات ثلاثة هي:

- " الصحراء كخزان بشري انطلقت منه الحضارات لتعمير شمال إفريقيا خلال فترات الجفاف.

- سواحل شمال إفريقيا الممتدة من شواطئ سيناء الشمالية إلى شواطئ الأطلسي وكذلك سواحل البحر الأحمر والتي كانت نوافذ للتأثير و التأثر الحضاري مع المجال المتوسطي .

- سلسلة جبال الأطلس شمالا التي وإن كانت تبدو كحواجز ولكنها تشكل الهيكل العظمي لهذه المنطقة وتوفر مصدرا أساسيا للمياه " [2] .

إن الفترات الجليدية التي عرفتها أوروبا وقابلتها فترات مطيرة في شمال إفريقيا و الصحراء تبعتها فترة جفاف وحرارة إضطرت على إثرها أقوام للنزوح إلى أماكن توفر ظروفا أفضل حاملين معهم مورثوهم الحضاري الذي وصلوا إليه، بينما انتظم الباقون في الواحات الصغيرة عبر الصحراء ومارسوا الرعي و الزراعة. غير أن التحول من القنص والصيد إلى الرعي والزراعة يكون قد تم بسلاسة وبدون انقلاب،أو مفاجأة بل تعايشت اقتصاديات الملتقطين والمنتجين للطعام في ثراء متنوع إنعكس فيما تركه العصر الحجري الحديث من آثار عظيمة في الصحراء [3].

إن الآثار المذكورة تطرح مسألة الرسوم الصخرية و الصخور المنقوشة التي تزخر بها بلاد المغرب في نطاق جغرافي يمتد من فزان بليبيا حتى المغرب الأقصى.والسؤال المهم المتعلق بهذه الآثار هو مدى تزامنها مع العصر الحجري الحديث . وكذا المواضيع التي تضمنتها

---

(1) محمد الصغير غانم،المرجع السابق،ص ص.114-115.

(2) مصطفى أعشي،نماذج من التواصل الحضاري بين شمالي إفريقيا والصحراء الكبرى خلال عصور ما قبل التاريخ،معهد الدراسات الافريقية،جامعة محمد الخامس، الرباط. مقال على الموقع الإلكتروني ،www.tawalt.com ،ص.5 .

(3) -Ch.A.Julien,op.cit.,pp.12-13.

وعلاقتها بإنتاج الغذاء سواء عن طريق الجمع والإلتقاط والصيد والقنص ، أو عن طريق تربية الحيوانات والزراعة [1] .

أما بالنسبة إلى الرسوم الحجرية ومدى تزامنها مع العصر الحجري الحديث فإن الباحثين اختلفوا في ذلك، فذهب فلاموند(Flamand) وفوفري(Vaufrey) إلى القول بأن العمق التاريخي لهذه الرسوم لا يجب أن يتجاوز العصرالحجري الحديث وخالفهما في ذلك سولينياك (Solignac) وبروي (Breuil) اللذان أعاداها إلى العصر الحجري القديم الأعلى(Epipaliolithique) [2] .

وإذا كان قزال قد أعاد تاريخ الرسوم الصخرية إلى 3000 سنة ق.م فقط،فإن الباحثين من بعده انخرطوا في الرأي القائل بأن هذه الرسوم عاصرت النيوليتي [3]وأن أقدمها لا يزيد عمقا أكثر من النيوليتي على الأقل وأن أحدثها تزامن مع إدخال الحصان للصحراء وكذا الجمل الأليف[4].والملاحظ أن تشابه الأساليب و التقنيات و المواضيع بين إبداعات الفن الصخري الصحراوي-المغربي أو الليبي- المصري ،تؤسس بما لا يدعو مجالا للشك لوجود ثقافة فنية مشتركة لكامل إفريقيا الشمالية من البحر الأحمر حتى المحيط الأطلسي[5] وهذا ما يؤكد التفاعل الحضاري في الضفة الجنوبية للبحر المتوسط.

أما من حيث المواضيع فإن العصر النيوليتي كان غنيّا بالأدوات المتطورة من حجارة مصقولة وأسنة مشذبة كما كان غنيّا بالفن الصخري من رسومات ونقوش في غاية الأهمية الإبداعية بالإضافة إلى أهميتها الوثائقية كمصادر تاريخية حول المجتمع وحياته اليومية وكذا الحيوانات التي عاصرت الإنسان سواء تلك التي استأنسها أو المتوحشة منها[6]. (أنظر شكل 2 ص 53).

---

[1] **محمد الصغير غانم ، المرجع السابق،ص ص.149-173.**

[2] **شارل أندري جوليان، المرجع السابق ،ص.62.**

[3] **نفسه.**

[4] **عُرف الجمل في طبيعته المتوحشة منذ أقدم العصور ولكنه، أصبح بعد تدجينه من أهم حيوانات النقل والركوب ببلاد المغرب حوالي سنة 100ق.م. أنظر: -G.Arnold,op.cit.,p.18.**

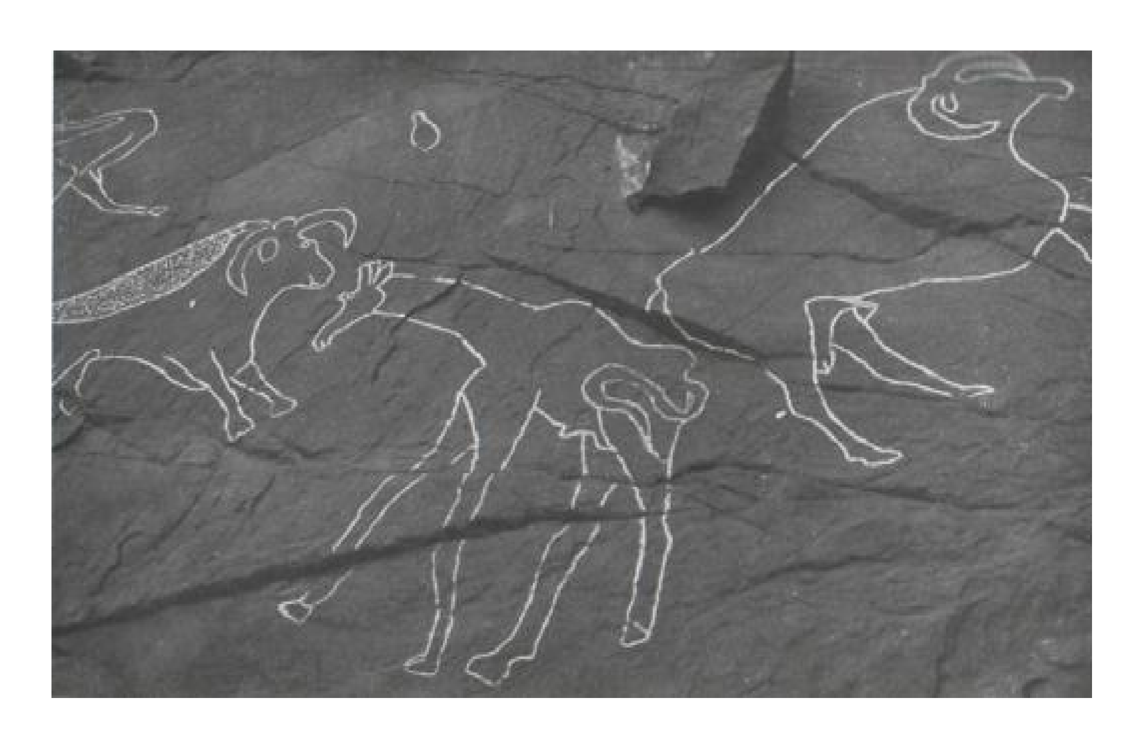
[5] **-D.Paulme,Les Civilisations africaines,6éme édition, P.U.F.,Vendome,pp.14-15.**

[6] **-M.Kaddache,op.cit.,p.20.**



الصورة أ :رسم صخري لقطيع من الجاموس بجانت.

عن: E.F.Gautier,Le Passé de L'Afrique du Nord,Payot,Paris,1952,Pl.X.



الصورة ب :رسم صخري لبقرتين تتوسطهما زرافة بوادي جارات.

عن: E.F.Gautier,Le Passé de L'Afrique du Nord,Payot,Paris,1952,Pl.III.

الشكل رقم 2: رسوم صخرية صحراوية .

وهكذا فإن التحول البيئي الخطير الذي تمثل في الإتجاه نحو الجفاف وتطرف المناخ يكون قد سبقه تحول في المنظومة الحضارية للإنسان المغاربي القديم.هذا التحول المتمثل في الإتجاه نحو استغلال إمكانيات البيئة والسيطرة عليها واستثمارها فكانت ثورة إنتاج الطعام التي أهلته إلى المضي قُدما في عتبات التقدم الحضاري .

2- الإستئناس و الرعي:

إن الإنسان المبدع في مواقع الفن الصخري ،ما كان له أن يمارس إبداعاته لو لم يتوفر له القوت الدائم الذي منحه الوقت و الأمن و أعطاه فرص التأمل و التعبير.

لقد كانت بعض الرسومات عبارة عن كتاب حقيقي للحيوانات .لقد رسم الإنسان الحيوانات المتوحشة و المستأنسة، الكبيرة منها و الصغيرة . وتظهر علامات تدجين الحيوانات في الحيوان نفسه حيث تحمل صورة البقرة أو الثور أحيانا زماما، أو صورة شخص يرعى قطيعه في اطمئنان،أو نساء يركبن ثيران وهن يمسكن بالزمام [1].

إن مشاهد الرسوم الصخرية تؤكد الدور الإقتصادي المتميز الذي لعبته الحيوانات موضوع تلك الرسوم التي أبدعها الإنسان المغاربي القديم و التي تشير إلى الإستفادة منها عن طريق القنص قبل الإستئناس و الرعي، إذ تبدو بعض المشاهد معبرة عن أعمال قنص لأناس يحملون الأقواس و العصي و يحاصرون حيوانات لاصطيادها وذلك لضمان البقاء قبل التوصل لاكتشاف الزراعة،عدا في مواقع محدودة جدا قد تعود الزراعة فيها إلى بداية الألف السابعة قبل الميلاد إذ لم يعد الجمع و الإلتقاط يكفي حاجته بعد أن بدأ الجفاف يزحف إلى المنطقة الصحراوية [2].

وإلى جانب القنص، مارس الإنسان الصيد في المسطحات المائية كالبحيرات المغلقة والأنهار.ففي واحدة من جداريات الرسوم الصخرية بالطاسيلي نجد رسوما لقوارب نفى برُوُيْ(Breuil) أصالتها المحلية قائلا بأنها مستوحاة من قوارب النيل المصرية ويخالفه الأستاذ محمد الصغيرغانم الرأي مؤكدا أصالتها بدليل أن المنطقة كانت رطبة ومياهها جارية[3].

إن وجود هذه القوارب دليل على ممارسة إنسان الطاسيلي للصيد النهري كرافد من روافد أمنه الغذائي خاصة قبل امتهان الزراعة بالإضافة إلى أن الإنسان يعبّر عن البيئة المحيطة به لأن رسم مواضيع غريبة عنها يُعتبر نوعا من التجريد الذي نشك بأن الإنسان قد توصل إليه في تلك المرحلة المبكّرة.

---

[1] ك. إبراهيمي، تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر، ترجمة م.ب الشنيتي و ر. بورويبة،ش.و.ن.ت، الجزائر،1982،ص ص.125-126.

[2] منها موقع أمكني بالهقار. أنظر محمد الصغير غانم، المرجع السابق ، ص.161.

[3] نفسه.

وقد يكون الصيد في المياه العذبة قد منح فرصة الإستقرار لأقوام على ضفاف البحيرات و المجاري المائية لامتهان الصيد المكثف كما أكدته أدواتهم كالخطاف وأنواع الصنانير والسّهام الصغيرة، وكذا البقايا الكثيرة لهياكل الأسماك [1] .

إن المهم في الرسوم الصخرية بالنسبة إلينا هو الجانب الإقتصادي المتمثل في توصل الإنسان إلى تدجين الحيوانات واستئناسها ودمجها في منظومته الإقتصادية ليظهر الرعي كنشاط بشري بديل أو مكمل للقنص الذي كان يوفر للإنسان جزءا كبيرا من غذائه مستعينا بالكلاب التي أثبتت المحطات النيوليتية رفقتها للإنسان كما تشهد عليها الرسوم الصخرية بتيوت وغيرها من المحطات [2].

من خلال الرسوم الصخرية،ومن خلال بقايا عظام الحيوانات التي عُثر عليها في المواقع الأثرية المغاربية يمكننا معرفة الحيوانات المستأنسة.

أ- الأبقار: حسب أغلب الآراء تعود الأبقار، مثلها مثل أبقار الحوض الغربي للمتوسط إلى سلالة الثور الإيبيري (Bos iberilus)،أو ثور السلالة الأصلية (Bos priginius) [3].

ومن خلال الرسوم الصخرية للثيران و الأبقار يتبيّن أنها تخلو في الغالب من السّنام التي تميّز حيوان الدرباني (Zébu) كما تتميز بأحجام واتجاهات قرونها المختلفة. ففي بعض الرسوم تظهر بقرون منحنية نحو الجبهة وأخرى بقرون مستقيمة وثالثة بقرون تتجه إلى الأمام وغيرها [4] .

---

[1] -G.Camps,Les relations du monde méditerranéen et du monde sud- saharien durant la Préhistoire et la Protohistoire,mémoire du C.R.A.P.E,Paris,1976,p.14.

[2] مثل القصر الأحمر، تازينا،قبر الرشيم بالجنوب الوهراني وخنقة الحجار قرب قالمة ووادي إيتل قرب بسكرة و قسنطينة.
أنظر: - S. Gsell,H.A.A.N.,T.1,p.217.

[3] محمد الصغير غانم، المرجع السابق،ص.179.

[4] ذكر هيرودوت أن أبقار قبيلة الجرامنت ترعى القهقرى لضخامة قرونها و ميلانها نحو الأرض.Hérodote,IV,183.-

حتى أن المرء يتساءل إن كان النقاشون الأوائل أرادوا رسم الجاموس (Buffle)[1] أو البقرة.

وكنموذج للإستئناس المبكر للبقر نُورد ثور خنقة الحجار بضواحي قالمة والذي يبدو بقرون قصيرة بينما يمسك رجل برصنه [2] ومن الأنواع المنقوشة على الصخور بكثرة نجد نوع بابيلوس أنتيكوس (Babulus antiqus) . و نظرا لضخامته لا يمكن أن يكون قد دُجّن وإنما رُوّضَ لفترات لاستخدامه في الجر. كما لا يجب أن ننسى روائع كتلة أزار (Azzer) التي تحفل بنماذج من الثور الإفريقي (Boss africanus) ويعود بعض هذه النماذج إلى ما قبل الألف الرابعة قبل الميلاد [3].(أنظر شكل: 3(أ.ب.ج،ص.59.)

وتوفر الأبقار و الثيران غذاء السكان بلحومها وألبانها كما تستغل للركوب والجرّ غير أن القبائل الرعوية شرق تريتون لا تأكل لحم البقر أسوة بالمصريين[4] كما أن الثيران استُعملت في جرّ العربات قبل الأحصنة خاصة في الصحراء الغربية [5] .

ب- <u>الضأن:</u> أهم السلالات التي تعيش في بلاد المغرب أربعة حسب قزال هي:

- السلالة العربية: بذيلها الدقيق ورأسها الأبيض أو الأسود أو البني،صوفها قصير ولحمها جيد توجد في الجزائر و المغرب ومناطق السهول.

-السلالة البربرية:تعيش في المناطق الجبلية بالجزائر،صوفها طويل وخشن ولحمها صلب.

-السلالة التي عُرفت لدى المؤرخين بالبربرين (Barbarine):توجد في الشرق القسنطيني وتونس وليبيا.لحمها رديء وصوفها وفير وخشن[6].

- السلالة السودانية في الصحراء: تتميز برأس صغيرة وقصبة أنف خشنة وذيل طويل وقوائم عالية و دقيقة ولكن جسمها يكسوه شعر كالماعز[7].

وبدون شك فإن الأصيلة من بين كل هذه السلالات هي السلالة البربرية غير أنها تطورت كلها بفعل التدجين [1] .

---

(1) نوع من كبار البقر يكون داجنا ومنه أصناف و الكلمة فارسية الأصل.
أنظر: منجد اللغة و الأعلام،المطبعة الكاثولكية،بيروت،1969،ص.101.

(2) **-S.Gsell,op.cit.,p.221.**

(3) **-G.Camps,Les origines de la domestication dans le nord de l'Afrique,(actes de colloque internationale de l'institut de recherches méditerranéennes sur l'élevage en méditerranée occidentale,Senanque,mai,1976),Paris,1977,p.52.**

(4) **–Hérodote,IV,186.**

(5) **- H.L'Hote,Les chars rupestres……..p.86.**

(6) تتميز بذيل سمين هو شبيه بالألية يصل وزنه 5 كلغ .

(7) هو ما يعرف بالدمّال ويعيش في الصحراء.

وفي جدران القصر الأحمر يوجد رسم لكباش يتبع أحدها رجلا وتبدو هيئته من السلالة السودانية تماما مثل كباش بوعلام وممر زناقة والريشة وعلى رؤوسها قرص أو دائرة وتحمل عدة قلائد في رقابها[2]وتشير الدائرة إلى رمز عقائدي يتمثل في عبادة الإله آمون[3]. (أنظر الشكل :3 ،د. ص.59.)

ج- الماعز: يتميز الماعز أصيل إفريقيا بقصر القامة والشعر الأسود الطويل والقرون المتجهة إلى الخلف. ويعطي القليل من الحليب، ينتشر بين شمال شرق إفريقيا والأطلنطي غربا وقد عُثر على بعض الرسوم الصخرية التي تمثل الماعز مثل موقع الريشة حيث يوجد به رسم لـ " تيس " (قد يكون كبشا) تطوق عنقه قلادة [4] (أنظر الشكل:3،هـ،ص.59.).

وقد أطلق بومال (Pomel) تسمية كابرا بروما زا(Capra promaza) على النوع الذي وُجدت عظامه في موقع الصخر الكبير في الجزائر العاصمة [5] .

ونمت ثروة الضأن و الماعز لأنها سهلة التربية وتتحمّل تقلبات الطقس وقد رعاها الليبيون لأنها تشكل أساس القطيع [6].

وإذا كان قزال قد نفى أن يكون الليبيون هم من علّم الإغريق تربية الماعز كما أورد العالم الألماني موفرز (Movers)،إلا أن المصادر تؤكد سبق الليبيين في هذا المجال ونَقْل الإغريق عنهم وذلك في مصدرين على الأقل ،فأولهما هيرودوت الذي ذكر" أن الأزياء الغريبة التي تلبسها نساء بلادنا في "بلاديا"(Palladia) للاحتفاء بالإلهة أثينا،جاءتهن من ليبيا فالليبيات يضعن فوق ملابسهن قطعا منزوعة الشعر ومزينة من جلد الماعز تسمى بالإيجيات (Egées)

---

[1] **أهم السلالات وأشهرها على الإطلاق سلالة الميرونوس (Mérinos) التي يعاد أصلها إلى إسبانيا ولكن المغاربة يعيدونها لقبائل بني مرين بالمغرب الأقصى .**

[2] **-S.Gsell,op.cit.,pp. 226-227.**

[3] **محمد الصغير غانم، المرجع السابق،ص. 154.**

[4] **-S.Gsell,op.cit,pp.226-227.**

[5] **محمد الصغير غانم، المرجع السابق،ص. 179.**

[6] **يسمى سوق المواشي في عدة مناطق من الجزائر: سوق المال ،وفي هذا دلالة على مكانة الرعي في اقتصاديات البلاد.**

ومن هذه التسمية اشتق الإغريق إسم إيجيد (Egides)"[1] وثانيها ما جاء في كتاب فارون (Varron) من أنّ هرقل لم يأخذ من حدائق يوسبيرودوس تفاحا من الذهب بل أخذ ماعزا و أروية (Mouflons) [2] .

كما أشاد الشاعر الروماني مارسيال (Martial: 40 -104 م) بشعر الماعز الليبي الطويل الذي تصنع منه ثياب تدعى سيليكوم (Cilicum) [3] .

د- الحمير: عُثر في بعض مواقع العصر الحجري الحديث على عظام حمير من الصعب الجزم بأنها مستأنسة كما أن الرسوم الصخرية لا تمنح إشارات أكيدة في هذا الموضوع [4] .

إن أصل الحمار المستأنس هو حمار متوحش لا يزال موجودا في شمال شرقي القارة[5].وقد عرفته مصر منذ الألف الرابعة قبل الميلاد. وعرفه الليبيون الشرقيون منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وأخذ عنهم بقية الليبيين في الغرب فوائد الأعباء الكبيرة التي يستطيع هذا الحيوان القيام بها في النقل و الركوب . وتنتمي الأحمرة الحالية في الغالب إلى السلالة الإفريقية المتميزة بلونها الرمادي وتعمر طويلا ناهيك عن مزاياها في الطاعة و التحمل و الخفة [6].

هـ- الحصان: توجد في بلاد المغرب سلالتان من الأحصنة :الحصان البربري والحصان العربي.وإذا كان الثاني قد دخل مع الفاتحين المسلمين منذ القرن السابع للميلاد و دُجّن منه الحصان الإنجليزي الشهير فإن الأول أصيل شمال شرق إفريقيا وهي سلالة دنقولا_ (Dongola)[7].(أنظر الشكل:3،و،ص.59.)

غير أن الحصان كما يبدو قد تأخر دخوله أو استئناسه ،ذلك أن ما وُجد ،في محطات العصر الحجري القديم من عظام خيليات (Equidés) هي لحُـمُر الوحـــش وليست للحصان، كما غابت بقاياه عن محطات العصر الحجري الحديث الأكثر قِدما فيما عدا الطبقات العليا

---

(1) -Hérodote, IV,189.

(2) -Varron, De l'agriculture,II,1,6.

(3) علي فهمي خشيم ، المرجع السابق، ص.51.

(4) -S.Gsell,op.cit.,p.228.

(5) لا تزال بعض الأحمرة البرية تعيش إلى يومنا هذا في ولاية إليزي بجنوب شرقي الجزائر -Ibid,p.229.

(6) - Ibid.

(7) - Ibid,p.230.



عن:م.ص.غانم،مواقع وحضارات...........
المرجع السابق،ص.164.

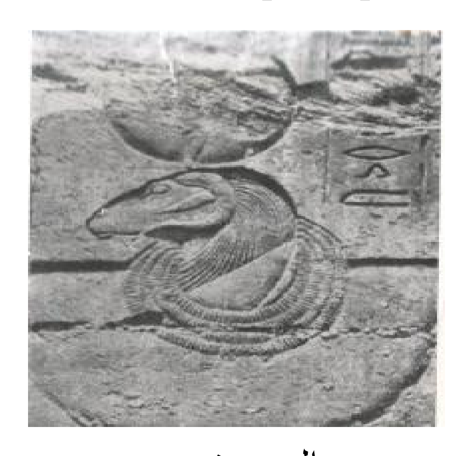


الصورة: ب
عن: J.Hureau,op.cit.,p.105.



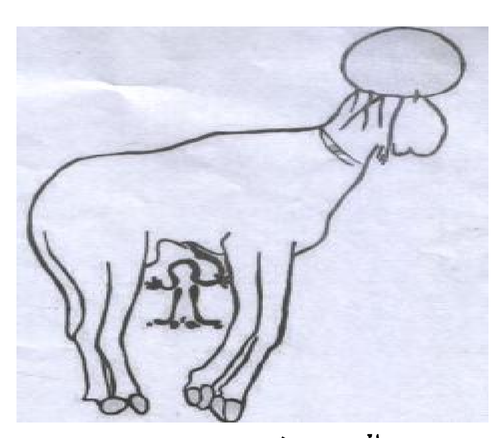
الصورة: ج

عن: E.F.Gautier,op.cit,Pl. II.

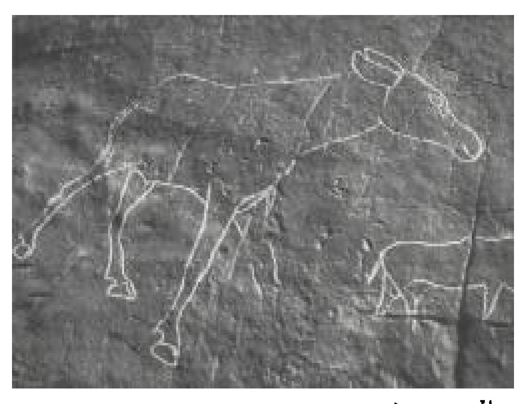


الصورة :د

عن: E.F.Gautier,op.cit,Pl.LX.



الصورة :هـ
عن: محمد الصغير غانم، المرجع السابق،ص.154.



الصورة: و
عن: E.F.Gautier,op.cit,Pl.VIII.

الشكل 3: رسومٌ صخرية لحيوانات مستأنسة.

للمغارات والرسوم الصخرية المعاصرة للصناعة النيوليتية في الجنوب الوهراني [1].

أما عن أصل الحصان المستأنس فقد يكون أدخِل من قارة آسيا عبر مصر وبلاد النوبة وهناك تولّدت سلالة أخرى دُجّنت بحمار الوحش وانتشرت في الشمال الغربي في منتصف الألفية الثانية(1500 ق.م) وقد يكون ذلك من خلال القبائل الليبية التي سكنت شرق ليبيا[2].

إستخدم الليبيون الجياد للجرّ وقرنوها بعربات خفيفة قد يجرها زوج أو زوجان في الغالب ،وذكر هيرودوت قائلا: أن الإغريق تعلموا عنهم قرن أربعة أحصُنٍ[3] كما ذكر القبائل التي تستعمل الجياد لجر العربات[4]التي تعدّد استعمالها بين النزهة و السفر و الحرب وكانت مثل هذه العربات تجرها الثيران قبل استخدام الحصان[5].

وهكذا،فقد طبع الحصان حياة الإنسان المغاربي حتى غدا رمزا من رموز بلاده لاحقا.

و-الجمل:ظل الحصان أهم الحيوانات التي احتاجها الإنسان في بلاد المغرب القديم، و بظهور الجمل بدأت أهميته تتضاءل نظرا لقدرة الجمل على تحمّل العطش و السير في المناطق الرملية في خط مستقيم،إذ يَحُول خفّه دون غوص قوائمه في الرمل عكس الحصان[6].

ورغم أن قزال يقول أن الجمل لا يعود ظهوره لأقدم من القرن الثالث أو الرابع الميلادي [7]،إلا أن المؤكد أنه ظهر لأول مرّة في عهد سيتي الأول بمصر(1328-1298 ق.م) ثم عُرف في مَرْمَريكا(شرق ليبيا)في القرن الرابع ق.م وعمّ استخدامه في العهد الروماني[8].

ز- إستغلال عسل النحل: تعدّى طموح الإنسان المغاربي الضروريات ،فاتّجه إلى البحث عن مواد تبدو كمالية في العصر القديم.وإذا كان الملح متوفرا بأشكاله المتعددة،إلا أن السكر لم يكن قد عُرف بعد،فاستعمل الإنسان العسل للتحلية إذ كان النحل يعيش بكثرة في بلاد المغرب ،ولكن ليس

---

[1] -Ibid,p.231.

[2] -D.Paulme,op.cit.,p.14.

[3] -Hérodote, IV,189.

[4] مثل قبائل الأسبيت والغرامونت . -Ibid,170,183

[5] - H.L'Hote,op.cit.,pp.78-89.

[6] عبد اللطيف محمود البرغوثي، التاريخ الليبي القديم،من أقدم العصور حتى الفتح الاسلامي(ج1)،منشورات الجامعة الليبية،دار صادر،بيروت،1971، ص.92.

[7] -S.Gsell,op.cit.,T1,p.30.

[8] عاش الجمل في شمال إفريقيا كحيوان متوحش في عصر ما قبل التاريخ ثم انقرض خلال العصر الحديث أو تراجع إلى أعماق الصحراء،ثم أدخل مع الغزو الفارسي لمصر سنة 523 ق.م،ليبدأ انتشاره تدريجيا إلى الغرب. وبعد معركة تبوسوس سنة 26 ق.م غنم يوليوس قيصر أسلابا كثيرة كان من بينها 22 جملا فقط.
أنظر: عبد اللطيف محمود البرغوثي،المرجع السابق.

هناك دليل على أن المغاربة أخضعوه لتربية منظمة رغم أنهم كانوا يستغلونه استغلالا مكثفا لولعهم به [1].

وقد أورد هيرودوت أن قبيلة الجيزانت لم تعرف إنتاج العسل فقط بل عرفت صناعته كذلك إذ يقول :" عندهم يلد النحل عسلا كثيرا، ولكن على ما يُقال أن لديهم رجالا مختصين يصنعون عسلا أكثر" [2] .

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام: ما هي المادة الأولية التي يمكن أن يكون هؤلاء قد صنعوا منها عسلهم هذا ؟.

إن الإجابة تكمن في مواصلة قراءة نص هيرودوت نفسه إذ يضيف عن قبيلة الجيزانت: " .. ومُقابل بلادهم،كما يقول القرطاجيون توجد جزيرة تدعى كيرونيس (قرقنة)، طولها مائتي فرسخ لكنها قليلة العرض ونستطيع الإجتياز إليها من البحر سيرًاعلى الأقدام وهي تعج بالزياتين و الأعناب [3].

من الواضح إذن أن الأعناب الكثيرة هي التي تكون قد وفرت لمحضري العسل الصناعي مادة أولية وذلك إما بعصرها بعد نضجها وحمايتها من التخمّر، أو تركها لتجف بعد النضج وبعد تحويلها إلى زبيب، تستخلص منها مادة كالعسل ولو كانت بنكهة مغايرة لأن العسل كان المُحَلّي الوحيد الذي عرفه المغاربة ،إذْ لم يكونوا قد عرفوا السكر بعد [4].

ولا يمكن القول بأن هذا العسل الصناعي قد يكون مستخلصا من التمور،لأن موطن قبيلة الجيزانت لا تنمو فيه نخيل يمكن أن تعطي تمرا وذلك للظروف المناخية الرطبة التي لا تلائم غراسة نخيل التمر.[5].

---

(1) -S.Gsell,H.A.A.N.,T.VI,p.9.

(2) -Hérodote,IV,194.

(3) -Ibid.

(4) -S.Gsell,op.cit.,p.9.

(5) تُصنع من التمور أنواع مختلفة من العسل تُعرف في العراق بالدبس وتُعرف في واحات بلاد المغرب بالرُّب.
- تنمو أنواع من النخيل في كامل مناطق البحر المتوسط الساحلية ولكنها تُعطي تمرا رديئا لا يمكن استهلاكه.

3 -الاستقرار و إرهاصات الزراعة:

من المؤكد أن ما انتاب المنطقة ،من تذبذب مناخ وعدم انتظام في التساقط ، جعلت المغاربة يتشبّثون بالرعي فلم يتخلّوا عنه إطلاقا حتى مع امتهانهم للقنص في التل والسهوب، ولم تزل ممارسة القنص تراثا متوارثا إلى اليوم [1] .

هل يفسَّر هذا الأمر باستسهال عملية الرّعي التي هي بطبعها أسهل من العمل الزراعي من خلال خدمة الأرض التي تتطلب دوام العمل والحركة من حرث وبذرو تلقيم وسقي وجني وغيرها من الأعمال المضنية؟. أمْ أن في الأمر بُعدا أمنيا خاصة في منطقة تتهددها الصِّدامات بحثا عن الماء و الكلإ، أم أنّ أرض إفريقيا تصلحُ للرعي دون غيره؟ كما إدّعى سالوست[2].

إن الزراعة تتطلب أمنا يمتد على مدى شهور عديدة بين عمليتي البذر والحصاد،وأحيانا لعدة سنوات بين غراسة الأشجار و تلقيمها حتى جني ثمارها،لذلك فإذا كان أغلب الليبيين قد حصروا نشاطهم في الرعي،رغم ما يمكن أن توفره ظروف المناخ والأرض من نمط معيشي أفضل،فإن ذلك كان خشية أن تذهب مجهوداتهم سُدى في ظل الظروف الأمنية السائدة،ولم يكن ذلك بدافع الكسل والتقاعس كما يقول قزال [3].

ولعل أحد أهم أسباب الإستقرار الذي نتجت عنه ممارسة الزراعة خاصة في منطقة التل هو أن الرّعاة لم يكن عليهم التنقل بقطعانهم إذا ما توفر لهم الأمن أي إذا لم تكن منطقتهم محل أطماع من قبائل أخرى،أو إذا لم يكونوا هم أنفسهم يطمعون في الإستيلاء على أرض غيرهم، فلم يكن عليهم التنقل لأن بيئتهم الصغيرة تضمن لهم المرعى الضروري الآمن لقطعانهم ولم يكن لهم إذن أي داعٍ للتنقل.

والخلاصة أن هذا الوضع المُريح والمُلائم أهّلهم،مع استقرارهم كي يصبحوا شيئا فشيئا مزارعين طالما توفر المناخ الملائم والتربة الخصبة وظروف الأمن الهادئة.

فكان التوجه للزراعة نتيجة من نتائج الإستقرار وليس سببا له [4].

ومن قراءة كل ذلك، يمكن القول دون مبالغة، أن هذا الإستقرار الرّعوي مكّن المغاربة من زرع أو تدجين بعض المحاصيل محليا مثل: الحبوب والبقول الجافة كالفول، كما عرفوا بعض

---

[1] كان القنص ضروريا لحماية المغاربة أنفسهم وقطعانهم من الحيوانات الضارية. وقد سمحت لهم صحّتهم الجيدة أن يمارسوه بمتعة كبيرة،كما أنّه يسمح بتلبية حاجة السوق الخارجية من حيوانات كالأسود والنمور والفيلة والقردة، ومواد كالعاج وجلود السباع وبيض النعام وريشه، ناهيك عن كون القنص موردا غذائيا هاما.

للمزيد أنظر: **- S.Gsell,op.cit.,T.V,pp.170-173.**

[2] **- Salluste,op.cit.,XVII.**

[3] **- S.Gsell,op.cit.,T.I,p.235.**

[4] **- Ibid.**

الأشجار المثمرة كالزيتون والنخيل،وهذا دليل على أنهم لم ينتظروا حلول الفينيقيين كي يمتهنوا الرعي والزراعة لكن ما حققوه كان نتيجة مبادراتهم الذكية [1].

إنّ الرسوم الصخرية على امتدادها في الزمان و المكان،قد أطلعتنا على مشاهد فريدة للقنص والإستئناس والرعي والصيد خاصة تلك التي أدخل فيها الرسامون التمثيل البشري للتعبير عن العصر الحجري الحديث[2] والتي تختلف عن الرسوم العائدة إلى العصر الحجري القديم الأعلى و الذي تنعدم فيه الرسوم البشرية تقريبا.

غير أن الرسوم الصخرية وإن ساعدتنا على استكشاف الصيد والإستئناس و الرعي، إلا أنها بالكاد تمنحنا مشاهد لخدمة الأرض وفلاحتها أي،إنتاج الغذاء النباتي من النشاط الزراعي. لهذا وجب تتبع الشواهد المادية المألوفة للتدليل عن بدايات الزراعة في بلاد المغرب القديم:

أ- الآلات الزراعية: يتمثل النشاط الزراعي في استكشاف الدورة الزراعية التي تضمن استغلال الأرض بكيفية تُمكّن كل سنة من جني نفس المحاصيل في نفس الأماكن. وقد بدأ الإنسان قبل الزراعة جَانٍ للحبوب البرية ثم جاءته فكرة تخزين بعض هذه الحبوب لبذرها سنة بعد أخرى. وما طبع المرحلة التالية هو تصميم آلات متخصصة مثل المناجل البدائية من الصوّان (Silex) للحصاد،وصناعة آلة الرّحى لفصل الحبوب عن قشورها وصناعة بعض العصي لنبش الأرض كمطارق الحفر لإعدادها للبذر.وقد استغرق هذا التطور آلاف السنين[3] و أهم هذه الآلات:

* الكُويرات الحجرية المثقوبة: (Boules de pierre perforées) وهي أول ما يُلفت انتباهنا في هذا المجال خلال فجر التاريخ ومن الممكن أنها استعملت لسحق الحبوب. وأهميتها تكمن في اكتشافها في عدة مواقع إذ عُثر على نماذج منها في الجزائر تعود إلى الفترة

[1] -Ibid,p.239.

[2] تُشكل هذه الرسوم مرحلة الرعاة أو ما يُعرف بذوي الرؤوس المستديرة: للمزيد أنظر:محمد الصغير غانم،المرجع السابق،ص.171.

[3] - G.Arnold,op.cit.,p.13.

القفصية و النيوليتية [1] ويقول كامبس أن هذه الآلة جد معروفة بإفريقيا وخصوصا عند شعبي البوشمن وإثيوبيا وتستعمل لتهيئة الأرض و تنعيمُ تربتها عند الذين يزاولون زراعة فقيرة[2]

* مطارق الحفر (Marteaux à fuir) : هذه الآلة عبارة عن معول بدائي سمّاه الأثريون،ينتهي الجزء العلوي منه بكُويرة حجرية تساعد على الغوص في الأرض ولا تزال بعض قبائل أدغال إفريقيا تستعملها إلى اليوم مثل "الهوتنتوت "(Hotentute) شمال نهر أورونج بجنوب غربي إفريقيا و"البوشمن" (Boshimans) في صحراء كلهاري ،وهي قبائل لا تزال تعيش بدائية حضارية وتستخدم هذا النوع من الآلات للحفر عن جذور النباتات وأنواع من الديدان تدخل في غذاء السكان [3] غير أن بعض الباحثين لا يؤيدون استعمال هذه الآلة في الزراعة ويرون بأنها كانت آلة لتقليم وصناعة خرز القلائد [4] .

* المناجل البدائية(Faucilles): أولها ما وُجد في مغارة البوليغون (Polygone) بوهران وهي عبارة عن عظام لضلوع حيوانات كبيرة محفورة في الوسط رُثّبت فيها قطع من الصّوان استُعملت كأسنان منجل لحصد السنابل.وتعتبر هذه الآلة العائدة إلى النيوليتي أكثر حداثة من سابقتيها،وفي ذلك دليل على ممارسة الزراعة في فترة قد تعود إلى الحضارة القفصية. وقد وصفها العالم دومرج (Doumergue) سنة 1927م، بأنها تتكون من ذراع عظمي وأسنة من حجارة السيليكس تُثبّت في ثُقبٍ من هذا العظم [5] .

أما ثانيها فهي تلك التي عثر عليها الباحث الأثري الفرنسي ديبروج (Debruge)

---

[1] عُثر عليها في أمكني بالهقار و رأس سيقلي قرب مدينة بجاية،وفي كهف الأروية في قسنطينة وموقع بوزباوين بالقرب من مدينة عين مليلة وعين الكرمة بالقرب من تبسة ومواقع القليعة بالصحراء.
- للمزيد أنظر: محمد الصغير غانم ،الملامح الباكرة لنشأة الزراعة في بلاد المغرب القديم،مجلة العلوم الإنسانية لجامعة قسنطينة،عدد 17،جوان 2002،ص. 166.

[2] - G.Camps,Mssinissa…….p.61.

[3] يعتبر الهوتنتوت والبوشمن من أقدم الشعوب البدائية في إفريقيا ولا تزال تعيش بدائيتها.D.Paulme,op.cit.,p.59-

[4] محمد الصغير غانم ،المرجع السابق،ص.166.

[5] -F.Doumergue,La Grotte de Polygone,Bulletin de La Société de géographie et d'archéologie d'Oran,T.XLVII,1927,pp.205-254.

في موقع مشتى العربي[1]الشهير وذلك سنة 1931 غير أنه لم ينتبه إلى اكتشافه إلاّ عندما نشر مواطنه ب.كادنا(P.Cadenat)،نتائج حفرياته التي قام بها في موقع كوليمناطة (Columnata) قرب مدينة تيارت حيث عثر،هو أيضا، على عدة آلات مشابهة لتلك التي وُجدت بمشتى العربي وأدّى ذلك إلى اعتقاد الباحثين الأثريين أن الآلة السابقة لا يُستبعد استعمالها لحصد السنابل [2]. ويمكن تعزيز هذا القول بأن كِلا المنطقتين،مشتى العربي و كولمناطة توجدان ضمن حيز المناطق المعروفة بزراعة الحبوب على مرّ العصور حتى اليوم. ومما يزيد في مصداقية طرح استعمال هذه المناجل كأدوات زراعية هو أن مواصفاتها كانت معروفة ومحدّدة في مواقع الشرق القديم وأوروبا مثل : مناجم النيوليتي في مواقع قرى الفيوم بمصر و النطوفيين بفلسطين ويُرجّح أن تعود إلى العصر النيوليتي بالمنطقة [3] .

* آلة الحصاد(Lustre de moisson): إعترف كامبس بإمكانية ارتباطها بالزراعة وهي عبارة عن شفرة (Lame) عُرفت بأداة الحصاد،أستُخرجت من بعض الطبقات الأثرية القفصية،ومع ذلك ينفي كامبس أن تكون استعملت في الزراعة مؤكدا أنها قد تكون استعملت لقطع سيقان النباتات غير الصالحة للأكل،ولكن لها منافع كالقصب لصناعة الأفْخاخ [4] .

* المعاول (Pics): عُثر على نماذج منها جنوب قسنطينة وهي معاول صوّانية منحوتة وغير مصقولة [5]. ويفترض الباحث ريغاس (Reygasse) أن هذه المعاول إفريقية وصل تأثيرها إلى أوروبا بطرق يجهلها [6].وقد وُجدت هذه الأدوات في منطقة حوز مرّاكش مما جعل الباحث رودريغ

---

(1) يوجد بالقرب من مدينة شلغوم العيد جنوب غرب قسنطينة.– أنظر محمد الصغير غانم،المرجع السابق ،ص.166.

(2) -P.Cadenat,Préhistoire de Columnate,Bulletin de La Société de géographie et d'archéo- logie d'Oran,T.LXX,1948,pp.4-65.

(3) محمد الصغير غانم ، المرجع السابق، ص.166.

(4) -G.Camps,Les Civilisations préhistoriques de L'Afrique du nord, ,édition Douin,Pari,1966, p.170.

(5) مصطفى أعشي، المرجع السابق،ص.12.

(6) -Reygasse, Decouverte d'une technique campinienne dans le Paléolithique inferieur de sud constantinois, extrait de Congrès préhistorique de France, X[éme] session,1953,p.3.

(Rodrigue) يُـــــرجّح أن هـــــذه الأداة أســـــتُعملت للحـــــرث ممـــــا يعنـــــي أن الزراعة ظهرت في بلاد المغرب قبل ظهور المحراث [1] .

ب- المساحات الزراعية و المدافن: وتتمثل في:

* المواقع التي صورها المهندسون الفرنسيون عن طريق التصوير الجوي سنة 1946 وهي العملية التي سمحت برسم خرائط للمنطقة الممتدة بين جبل مسعد جنوب مدينة الجلفة بالجزائر غربا حتى تونس شرقا[2]واستخلص هؤلاء المهندسون من خلال الصور الجوية أن منطقة تازبانت غرب تبسة كانت مجزأة إلى أشكال هندسية مستطيلة تقسّمها أكوام من التربة أو الحجارة يبلغ ارتفاعها حوالي نصف متر تمتد ما بين جبل بوزيان ومرتفع الشريعة وتأخذ أحيانا شكل مدرجات في المنحدرات [3].

وممّا يُعزز فكرة تخصيص هذه المساحات للزراعة وجود مقابر دفن بجبل المستيري المحاذي للمنطقة المذكورة مع وجود مقابر من نوع الدولمن (Dolmen) والبازيناس (Basinas) في منطقتي تروبيا و تافرنت المذكورتين في الأطلس الأثري للجزائر[4] ومن خلال هذه المواقع والمدافن نلاحظ أن مجالها الجغرافي يتوزع في الغالب على مناطق التهاطل الكافي لإمكانية القيام بزراعة القمح دون حاجة إلى السقي و مع ما يوجد في هذه المواقع من أوان شبيهة بالأواني الحالية، يمكن الجزم بأن يكون سكانها من الزرّاع المستقرّين[5]،ولكن هذا لا ينفي أنهم واصلوا ممارسة الرعي و تربية الحيوانات.

*مقابر فجر التاريخ التي أحصاها كامبس: وعددها ستون مقبرة تحتوي فخاريات تعود إلى فجر التاريخ في منطقة تمتد من المغرب الأقصى حتى تونس وشبهها هذا العالم بمجموعات النجوم على الخريطة (أنظر الخريطة رقم 4 ص67) و أولى هذه المجموعات مثلث يمتد بين خليج الحمامات فـــــي تـــــونس وجنـــــوب جبـــــال النمامـــــشة علـــــى الحـــــدود

---

(1) -A.Rodrigue,Un Néolithique agricole dans Le Haouz,B.A.M. ,T.XV,1985,pp.88-98.

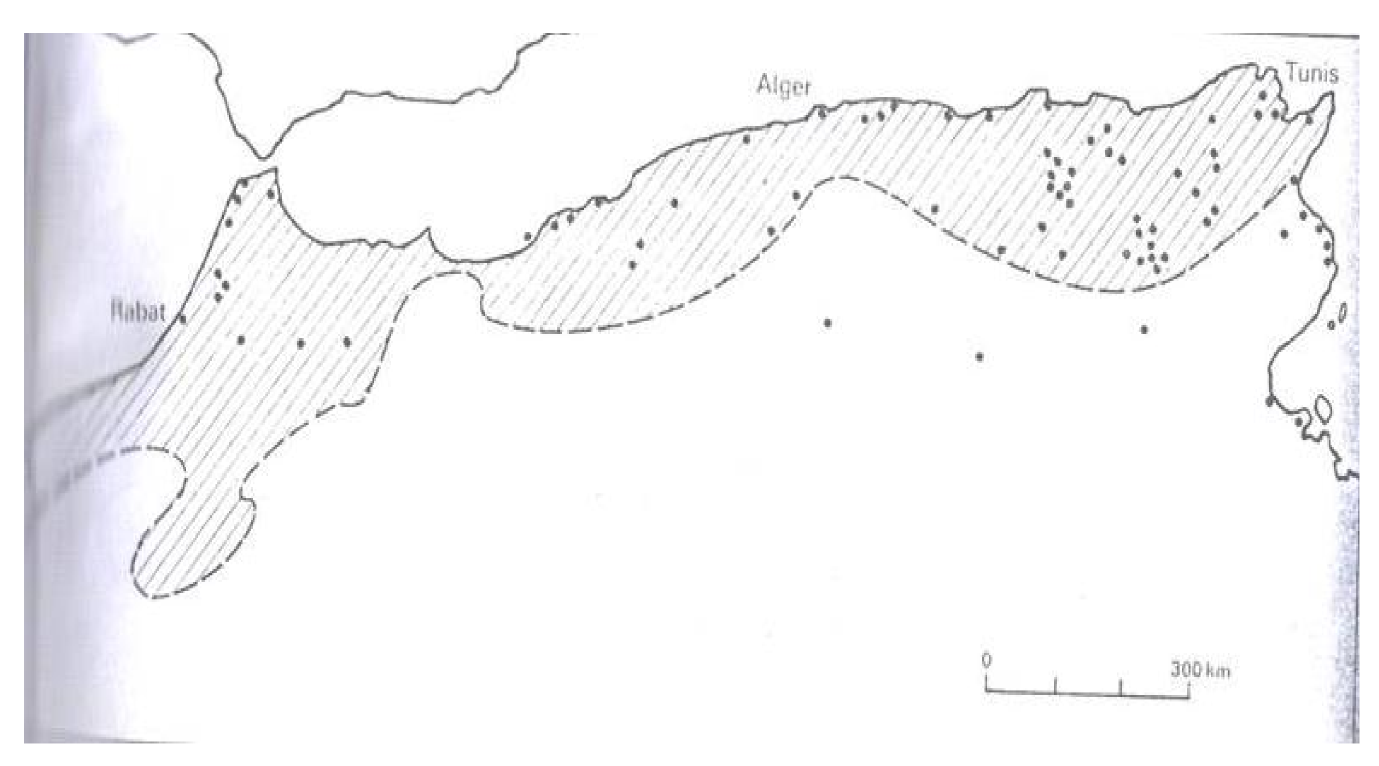
(2) محمد الصغير غانم،المرجع السابق،ص.167.

(3) نفسه.

(4) -S.Gsell,Atlas archéologique d'Algérie,2éme ed,feuille 28,N°269,Alger,1997.

- حول المدافن الحجرية في الجزائر أنظر: عبد المالك سلاطنية،المدافن الحجرية في الشرق الجزائري،رسالة ماجيستير في تاريخ وآثار المغرب القديم،تحت إشراف محمد الصغير غانم،قسم التاريخ معهد العلوم الاجتماعية ،جامعةمنتوري قسنطينة،1999.1998 ،ص.76.

(5) -S.Gsell,H.A.AN.,T.1……p. 235.



الخريطة رقم 4:مقابر فجر التاريخ في بلاد المغرب

G.Camps,Berbères aux marges de l'histoire,Ed,Les Hespérides,Paris,1980,p.76.

الجزائرية ومدينة الجزائر.وفي الجهة الغربية تظهر جهة أقل نسبيا تمتد من الشلف الأعلى حتى منطقة وهران .وبعد فراغ يتطابق مع المغرب الشرقي نجد المواقع المحددة بمدينتي تازة و طنجة ومصب نهر سِبو. وكل هذه المواقع تقع في منطقة يعرفها الجغرافيون وعلماء الزراعة: هي مواقع زراعة الحبوب الجافة.

إن التطابق كبير لِيَكُون محض صدفة فالنتيجة التي تفرض نفسها بدون أدنى شك إذن هي: أن الأواني التي وُجدت في مدافن فجر التاريخ لها نفس خصائص الأواني المنزلية التي تستخدمها الشعوب المقيمة حاليا في هذه المناطق، وأن القبور التي تضم هذه الأواني توجد في منطقة الزراعة الجافة للحبوب والسكان الذين صنعوا هذه الأواني و وضعوها في القبور كانوا إذا مستقرين من آكلي القمح كما ذكر هيكاتي دي ميلي (Hécaté de Milet) "[1].

ومن البديهي أن المجتمع الذي تفرّغ لصناعة الفخار لا بد أن يكون قد شهد استقرارا كبيرا ضمن به الأمن الغذائي والطمأنينة ليمارس هذه الصناعة التي تتطلب الوقت والجهد والعناية الفائقة.

* أما الإستغلال في الصحراء،فإنه يعود إلى أزمنة سحيقة وإن كان ذلك في مواقع محدودة جدا. ونجد في الرسوم الصخرية مرة أخرى ما يدلل عن هذا الطرح.فمن ضمن هذه الرسوم نقوش خاصة بعملية الحرث أشهرها "نقش غريب إيكيس " الذي درسه مالهوم (Malhomme) ونشره في مجلة ليبيكا سنة 1953 [2] .

ومن التأكيدات التي تشهد بقِدَمِ الزراعة في الصحراء الكبرى العثور على غبار الطلع في موقعين اثنين في الصحراء الجزائرية هما مِينيَاتْ و أمِكْنِي.

لقد أمكن تحديد موقع مينيات بـ 3450 سنة ق.م من خلال دراسة غبار الطلع لبعض المزروعات.أما موقع أمكني. فقد تم العثور فيه على الفخّار وشِقِيْ رحى وعشر مدقّات بجانب غبار الطلع، وهذا ما جعل كامبس يعترف بإمكانية ممارسة الزراعة في أمكني منذ الألف الثامنة قبل الميلاد [3] .

---

(1) - G.Camps,Berbères aux marges de L'Histoire,ed Les Héspérides,Paris, 1980,pp.76-77.

(2) مصطفى أعشي،المرجع السابق،ص13. عن: - Malhomme,Les représentations anthropomorphes du Grand Atlas(Maroc),Libyca, 1953,pp.373-385.

(3) -G.Camps,Les civilisations préhistoriques ……. P.236.

وهكذا وإن كانت الظروف البيئية التي اتجهت نحو الجفاف و التصحر قد قطعت السبل بهذه المنجزات الحضارية العظيمة، بحيث أنها لم تتواصل مثل مواقع النيل وبلاد الرافدين، إلا أنها تؤكد بما لا يدع مجالا للشك، أن قدم ظهور الزراعة في الصحراء هو سبقٌ للإنسان المغاربي سيفتح آفاقًا جديدة تؤكد التواصل القائم عبر الزمن بين الصحراء و شمال إفريقيا .

ثانيا: الإنتاج الزراعي المبكّر:

1- الخضر: ليس من الجسارة كما يقول قزال،الضَّن أن بعض الخضر كانت تزرع في إفريقيا الشمالية في أزمنة موغلة في القدم ومن بينها الفول البري.ولكنه مع ذلك لا يوافق احتمالات المؤرخ الألماني موفرز(Movers) الذي يعيد زراعة بعض الخضر إلى أصول إفريقية بعيدة[1]. والرأي الغالب أن المغاربة اكتشفوا الخضر في شكلها البري واستغلوها تمهيدا لتدجينها بعد اكتشاف الدورة الزراعية التي نتجت عن الإستقرار.

2- الحبوب: مع أن بعض المؤرخين يؤكدون أن المغاربة عرفوا زراعة الحبوب منذ زمن مبكر،على الأقل قبل السيطرة القرطاجية وحتى قبل الإستيطان الفينيقي ، إلا أن قزال يقول أن آلات الرحى (المستعملة لفصل قشور الحبوب وطحنها)، والتي وُجدت في محطات النيوليتية في الصحراء لا تعود لأكثر من بضعة قرون قبل الميلاد [2].

لكن قزال توفي قبل الإكتشافات الحديثة التي قادها بعض الباحثين الأوروبيين وعلى رأسهم كامبس الذي درس بعمق مواقع بالهقار و أدرار [3]،وأهمها موقع أمِكْنِي الشهير الذي عُثر فيه عن غبار الطلع كما أسلفنا. وقد أورد رالف لينتون (R.Linton) في شجرة الحضارة أن شمال إفريقيا هو ثاني محطة لتدجين أصناف متعددة من القمح الذكر(الصلب)[4] .

وتبدو الذرة البيضاء (Sorgho) أصيلة في المنطقة ولكن لا يُعرف أين بدأت زراعة القمح و الشعير في شمال إفريقيا وقد أورد بونبينيوس ميلا(Pomponius Milla)،أن بعض الحبوب تنمو طبيعيا على ساحل المغرب[5].

أما المغاربة الشرقيون أو الليبيون،فإن أرضهم عرفت إنتاج الحبوب بكميات وفيرة. إذ قال هيرودوت واصفا خصوبة أرض ليبيا:" في رأيي لم تكن ليبيا من الخصوبة حيث تُمْكِنُ مقارنتها بآسيا

---

(1) -S.Gsell,op.cit.,p.263.

(2) -Ibid.

(3) محمد الصغير غانم،مواقع وحضارات ماقبل التاريخ .... ص.115.

(4) رالف لينتون، المرجع السابق،ص.188.

(5) -S.Gsell,op.cit.,p.237.

أو أوروبا فيما عدا المنطقة التي تدعى كنيبس (وادي كعّام) التي يضاهي إنتاجها للحبوب أجود المناطق. وخلافا لأرض ليبيا فأرضها سوداء جيدة السقي من خلال الينابيع، ولا تخشى الجفاف،كما لا تخشى التشبع بالأمطار.... كما أن محصولها من القمح هو بنفس معدل محصول بابل،كما أن الأرض التي يسكنها اليوسبيريداي (Evesperides) خصبة كذلك فعندما يكون المحصول جيدا تغل مائة ضعف لكن كنيبس تغل ثلاثمائة ضعف" [1].

بهذا الوصف برهن هيرودوت أنه خبير بأرض ليبيا وما تنبته من مزروعات بمقارنتها بأراض آسيوية و أوروبية عرفها من قبل. إذ يُشيد بخصوبة منطقتين تنتجان القمح وخاصة منطقة كنيبس(وادي كعّام)[2] والتي وصف تربتها السوداء الغنية بالطمي الذي يرسّبه فيضان الوادي على ضفّتيه ،إضافة إلى أن تربة المنطقة تعرف توازنا باعتبارها تربة مروية جيدة الصرف مع احتفاظها بالماء الضروري لنمو الزرع،كما قارن هيرودوت مردود هذه الأراضي بمردود بابل التي تعتبر نموذج الرّقي في الإنتاج الزراعي.

ويواصل هيرودوت ، بعد هذا العرض ، الحديث عن منطقة قورينة التي يتواتر الإنتاج في أرضها نظرا لمستويات الزراعة فيها بحيث تعيش ثلاثة مواسم للحصاد فيقول:" ويتمتع إقليم قورينة،وهو الجزء الأعلى من ليبيا التي يسكنها البدو الرعاة بنعمة رائعة وهي أن له ثلاثة مواسم للحصاد والقطاف،فأولاً تكون ثمار الأرض على ساحل البحر قد نضجت للحصاد والقطاف وعندما يُجمع محصولها تكون محاصيل المنطقة الوسطى،أعلى من الساحل،تلك التي يدعونها، التلال ناضجة للجمع . وما إن يُجمع منتوج البلاد الوسطى حتى تكون محاصيل المنطقة العليا ناضجة. ولذلك فإن آخر ثمار الأرض تُؤتي أكلها حين تكون أولاها قد استُنفذت في الطعام والشراب. وهكذا فإن موسم الجني عند القورينيين يدوم ثمانية شهور. وحسّبنا هذا عن هذه الأمور"[3].

بوصف هذه الجنة الأرضية يختتم هيرودوت حديثه عن المواقع والقبائل الليبية، و الحقيقة أنّ خصوبة الأماكن التي أشار إليها ،قد ضربت الآفاق قديما، ونلمس ذلك من خلال بعض المصادر. فهذا الشاعر الروماني مارسيال يقول في قصيدة له :" خُذ ثلاث حفنات من مزرعة ليبية

---

[1] **-Hérodote, IV,198.**

[2] **احتلها داريوس (Darius) بعد أن تجاهله الإسبرطيون في اتخاذه ملكا لهم ولكن تحالف القرطاجيين والليبيين ضده جعله يفرّ إلى جزيرة بولبونيز. – انظر: علي فهمي خشيم،المرجع السابق،ص.51.**

[3] **-Hérodote,IV,199.**

فتزدهر بها أرضك القاحلة "[1]. وفي ذلك إشارة إلى خصوبة أرض ليبيا ووفرة محاصيلها.

وبالعودة إلى ما قاله هيرودوت عن أرض قورينة،نجد أن تقدم المنطقة في البحر وارتفاعها وتعرضها للأمطار وأشعة الشمس،تجعل منها منطقة مفضلة لما يُعرف بزراعة المدرجات. وهذا دليل على تمرّس أهل المنطقة في زراعات ناجحة مارسوها لأجيال عديدة لتوفر لهم طعاما دائما حققوا به أمنهم الغذائي.وقد بقيت المنطقة محتفظة بهذا المستوى من الإنتاج إذْ أكّد المؤرخ الإغريقي المُرَوْمَنْ "ديودور الصقلي" (Diodore de Sicile) على خصوبة تربة قورينة وتنوع محاصيلها بالإضافة إلى الحنطة [2] .

3- الأشجار المثمرة: تتطلب زراعة الأشجار المثمرة ممارسة عدة أنشطة متتالية ولسنوات عديدة مثل الزبر و التأبير و التقليم والسقي أحيانا، وهذه العناية الفائقة تستلزم الإستقرار و الإقامة الدائمة .

وإذا كانت كل من الكروم والزيتون و التين و اللوز هي أنواع أصيلة ،فإن قزال يقول بأنه لا دليل على وجود أنواع مزروعة منها قبل دخول الفينيقيين وأن السكان المحليين عرفوا الخمر و الزيت في ما قبل التاريخ رغم أن التسمية المحلية " أزمُّورْ " مؤشر لزراعة محلية قديمة جدا للزيتون[3].ولكن في الجهة الشرقية من بلاد المغرب،عرف الليبيون أنواعا من الأشجار المثمرة وأهمها الزيتون و الكروم في كل من قورينة وجزيرة كيرونيس [4].

كما أشاد ديودور الصقلي بمزارع الكروم الواسعة وشساعة بساتين الزيتون في قورينة[5].

---

(1) علي فهمي خشيم، المرجع السابق، ص.51.

(2) نفسه ،ص.116.

(3) -S.Gsell,op.cit.,p.238.

(4) -Hérodote, IV,195.

(5) علي فهمي خشيم، المرجع السابق،ص.115.



الشكل رقم4: جني التمور في الرسوم الصخرية
H.L'Hote, Les Chars rupestres sahariens,des Syrtes au Niger par le Pays des Garamantes et des Atlantes,Ed.,Les Hespérides,Paris,1982,p.63.

أما بلين الأكبر فيؤكد أن قورينة وعلى عرض 15 ميلا من الساحل صالحة لنمو الأشجار ولكن بعد ذلك لا ينمو في الداخل سوى الحبوب [1] .

أما النخيل فقد عرفه الليبيون من سكان الواحات واعتمدوا على تموره كغذاء أساسي وخاصة قبائل النزامون الذين كانوا يتركون قطعانهم ترعى على الساحل ويتجهون جنوبا إلى أوجلة ،لجني التمور الوفيرة ،حيث يُثمر النخيل جميعه [2].

ويذكر بلين أن نخيل الصحراء حتى موطن قبائل الجرامنت ، مشهور وتمره مفرط الحلاوة وأشهره ما كان مجاورا لمعبد أمون[3].

وتتأكد أهمية التمور في الصحراء فيما رسمه فنّانو الرسوم الصخرية في مواطن عربات الركض الطائر (Chars de galop volant) التي توجد بوادي جارات بالطاسيلي إذْ تقدّم مشاهد ورسوم لجني التمور في المنطقة (أنظر الشكل 4 ص72).ويُعلق عليها هنري لوت قائلا :" إن تلك الواحات الصغيرة كانت تقيم نشاطا تجاريا عُرف في القديم ولا يزال إلى اليوم متمثلا في تصدير التمور والتين المجفف و القمح وبعض الذرة البيضاء" [4].

4- الكتّان: زُرع الكتّان بمصر منذ أزمنة موغلة في القدم كما زُرع في أوروبا الوسطى [5] ويذكر قزال مشكّكا في قدمها في نفس الوقت، العثور على أُسُسٍ لأواني فخارية في كهف الدببة بقسنطينة،عليها آثار لنسيج خشن يكون قد وضعت عليه هذه الأواني للتجفيف مستبعدا انتمائها للصناعة النيوليتية [6].

وإذا كان قزال قد شكك في قدم وجود الكتان في بلاد المغرب القديم فلا يعني ذلك أن المغاربة لم يستغلوه في حالته البرية قبل زراعته، تماما كما استثمروا نباتات أخرى حتى اكتشفوا دوراتها الزراعية التي أدخلتهم إلى عالم الزراعة. وبذلك استطاعوا الإندماج في بيئتهم واستغلوا محيطهم قبل وفود الفينيقيين.

5 - استغلال النبات الطبيعي: إلى جانب جني محاصيل الفواكه التي أجادت زراعتها خبرة الليبيين،فقد استغل هؤلاء بعض من ثمار النبات الطبيعي الذي ضربت شهرته الآفاق:

---

[1] نفسه،ص.81.
[2] أوجلة هي نواة واحة جالو بليبيا،المرجع نفسه ص.35.
[3] نفسه،ص.92.
[4] -H.L'Hote,p.62.
[5] أصله من جنوب غرب آسيا وهو نوعان أحدهما يُزرع من أجل أليافه والآخر لبذوره التي يُنتج منها زيت شكّل جزءا من الطعام في القديم قبل أن يُستعمل في الصناعة(Huile de lin) .
[6] -Gsell,op.cit.,p.238.

أ- اللوتوس(Lotos): يجب التفريق بينه وبين نبات اللوتيس (Lotus) والذي وصفه بلين الأكبر قائلا:" إن إسم النباتين واحد مع الفارق الكبير بينهما،فاللوتس المصري (Lotus) هو عشب ينمو في أحراش الدلتا و مستنقعاتها ويكتمل نموه عند انحسار فيضان مياه النيل،ويشبه نبات الفول في ساقه وأوراقه، وتنمو ثمرته على رأس النبات وهي تشبه ثمرة الخشخاش تماما وتحتوي على حبوب دقيقة مثل حبات الذرة الرفيعة وقد كانت زهرة اللوتس المصرية شائعة جدا في رسوم المصريين القدماء وزخارفهم وفنونهم المختلفة " [1].

أما اللوتوس فإن أمره اختلط على المؤرخين فبعضهم قال أنه فصيلة من النبق[2]وقال آخرون أنه ضرب من نبات الخشخاش[3]، يُعرف اليوم باللّوتس المصري[4].

أما هيرودت فقد نسب قبيلة كبرى إلى هذه الفاكهة وسماها باللوطوفاج أو آكلي اللوتوس ومضاربهم بين شبه جزيرة جرجيس و جزيرة جربة بتونس ويضيف هيرودوت " أنهم يأكلونه ويجعلون منه نبيذهم" [5].

ويشرح لوقران (Le Grand) مترجِم هيرودوت أن اللوتوس هو العُنّاب(Jujibier) وثمرته جوجوبا [6] وقد عرفته بعض شعوب أمريكا مثل الأزتك(Aztèques) والأنكا (Incas)والباباقوس (Papagos)،فقدّسوه وجعلوا منه دواءًا للجراح وأمراض النفاس[7].

---

(1) علي فهمي خشيم، المرجع السابق، ص.89.

(2) هو ثمار شجر السدر - أنظر: منجد اللغة والأعلام، المرجع السابق،ص.786.

(3) نبات منوّم ومخدِّر،وهناك الخشخاش الذي يشبه البطيخ ،تؤكل ثماره مطبوخة ويزرع في مصر.
أنظر المرجع السابق ،ص.179.

(4) علي فهمي خشيم، المرجع السابق،ص.90.

(5) -Hérodote, IV,177.

(6) الواحدة عُنابة يشبه حبّه الزيتون أجوده الأحمر الحلو.-أنظر: منجد اللغة والأعلام، المرجع السابق ،ص.532.
- يُرجَّح أن تكون مدينة عنابة قد سُمّيت بهذا الاسم لوجود نبات العنّاب حولها .

(7)بالإضافة إلى استعمالاتها الطبية في القديم، أثبتت الدراسات العلمية أن ثمار العناب يمكن أن تكون موردا لصناعة زيت تبريد محركات الطائرات و الصواريخ لمقاومة لزوجته للتآكل. وكانت هذه المحركات ولا تزال إلى اليوم تبرد بزيت يُستخلص أساسه من غدد الحيوانات المنوية للحيتان الضخمة.لذلك أعدّت بعض مراكز البحث الزراعي برنامج لتشجيع هذه الثروة في المناطق الجافة وشبه الجافة لإيقاف التصحر وحماية الحيتان الضخمة من الانقراض.
- للمزيد أنظر: - دراسة: -Mercier Fréres,Rapport sur la jojoba,le pétrole vert pour demain, La Chaignée,France,2000,pp.1-17.

وقد أسْهب الشعراء وكُتّاب الأساطير في الحديث عن اللوتوس فذكره هوميروس في إلياذته و ذكر كيف كان من يأكله يُصاب بسُلوان كلّ شيء إلاّ طلب المزيد من هذه الفاكهة ذات الطعم العسلي [1].

ويروي بلين أن هذه الفاكهة أدخلت إلى إيطاليا ولكن طعمها فسد بتغير التربة،ويضيف أن أجود اللوتوس هو ذلك الموجود حول خليج السّرت. وهو عدّة أنواع والتي نقصدها في حجم الفول وفي لون الزعفران لكن لونها يتغير عدة مرات قبل النضج.وهي تنمو في عناقيد كثيفة وليست كالكرز في إيطاليا. وهي لذيذة في موطنها وأعطت إسمها لجنس من الناس في بلاد مضيافة للغرباء تجعلهم يَسْلون بلدهم الأصلي إذا زاروها ويُعصر من الثمار خمر لذيذ ولكنه لا يصلح لأكثر من عشرة أيام [2] .

والجدير بالذكر أن أهم ما يصنع من اللوتوس دقيقٌ يتغذّى عليه آكلوه بعد طحنه مع الحنطة، وقد تغذّت عليه جيوش كانت تجوب إفريقيا جيئة وذهابا كما يُصنع من قصبه الأسود آلات الناي الطربية،وتُتّخذُ من جُذوعه مقابض للمُدَى والخناجر وأدوات قصيرة أخرى[3].

ب- السيلفيوم (Silphium): من الشائع أن الإغريق قد اكتشفوه بعد أن نبت على إثر أمطار غزيرة تهاطلت على قورينة بعد تأسيسها سنة 631ق.م،ولكن المكتشفات الأثرية في جزيرة ثيرا اليونانية تعيد الصلات بين المينوسيين(نسبة إلى الملك الأسطوري مينوس)، والليبيين إلى ما قبل الألف الثالثة قبل الميلاد. وقد يكون المينوسيون قد أسّسوا مستعمرات على الساحل الليبي كوسطاء في التجارة الدولية خاصة لتصدير الثروات الزراعية والحيوانية التي اشتهرت بها ليبيا وفي مقدمتها نبات السيلفيوم[4].

---

[1] **علي فهمي خشيم عن هوميروس،المرجع السابق،ص.88.**

[2] **علي فهمي خشبم، عن هيرودوت،ص.92.**

- لا يزال أهل الواحات في بلاد المغرب يُــقطّرون من جذوع النخيل الآئلة إلى الفناء مشروبا لذيذا يسمونه " اللاقمي"،يُشرب لِــحينه،وبعد سُويعات يصبح نبيذا ويتحول إلى خل بعد عدّة أيام. أفلا يكون اللوتوس طفرة من أنواع النخيل ؟

[3] **نفسه .**

[4] **هشام الصفدي،المرجع السابق،ص.106.**

لقد ضربت شهرة نبات السلفيوم الآفاق وظل يُلهم الكتاب و الشعراء حتى بعد انقراضه وكُتبت فيه المقالات الكثيرة للإشادة به و بفوائده [1] .

وقد وصفه الأقدمون بأنه نبات ذو جذور غليظة له أوراق كأوراق الكرفس أو الكزبرة ويبدو أن نباتا يُماثله ينمو بإحدى الحدائق الملكية ببريطانيا(أنظر الشكل رقم 5 ص77) وقد بلغ من شهرته أن اتُّخذ رمزا لقورينة فنُقش على نقودها لعدّة عهود ولا عجب في ذلك إذ كانت الدولة تحتكره وتصدّره متّخذة منه ذهبا أخضر اختصت في تجارته الدولية في مختلف بلدان العالم القديم[2]كما نُقش نبات السليفيوم على نقود فضية تعود إلى حكم بطليموس الثالث (Ptolémé III: 246 -224 ق.م) [3] ولسنا ندري إذا كان نقشه على نقود البطالمة في مصر أتى في سياق شهرته العالمية، أم أن مصر كانت تنتج شيئا منه خاصة أن منطقة قورية ليست ببعيدة عن أرضها [4] .

أما عن استعمالات هذا النبات وثماره،فلا يمكننا تحديدها في هذا المجال لأن الأطباء اكتشفوا فوائده في أمراض لا تكاد تحصى،كأمراض العيون،و الأمراض الصدرية وأمراض الفم والحنجرة، والأمراض الباطنية ،والصرع وغيرها،بدءا من الطبيب اليوناني الشهير جالينوس مرورا بالأطباء السريانيين والأقباط،إلى الأطباء العرب مثل أبي بكر الرازي والرئيس أبي علي بن سينا. وقد أورد ابن البيطار إمام النباتيين وعلماء الأعشاب إستطبابات كل هؤلاء من السليفيوم (أنظر: الملحق رقم 1) في مؤلفه الشهير[5] .

غير أن بلين الأكبر فصّل أكثر في هذا النبات فذكر فوائد واستطبابات أوراقه وبراعمه وجذوره وساقه وكيفية استخلاص العصير من جذوره[6]كما تحدث عن ظهوره وانقراضه

---

[1] يُطلق على السيلفيوم اسم فرولا تانجيتانا(Ferula Tingitana) وفرولا مارماريكا (Ferula Marmarika).وقد اشتهر عند الإغريق باسم السيلفيوم (Silphium) كما أطلق عليه العرب اسم الحلتيت أوالسرخس الذي لا يزال يُستعمل في الشام،بعد انقراض السيلفيوم الأصيل.

- من الكُتاب و الشعراء الذين أشادوا بالسليفيوم الشاعر الروماني كاتلوس والشاعر اليوناني أرسطوفان والشاعر الهزلي ،والمسرحي الروماني بلاوتوس . -علي فهمي خشيم ،المرجع السابق،ص ص.98-102.

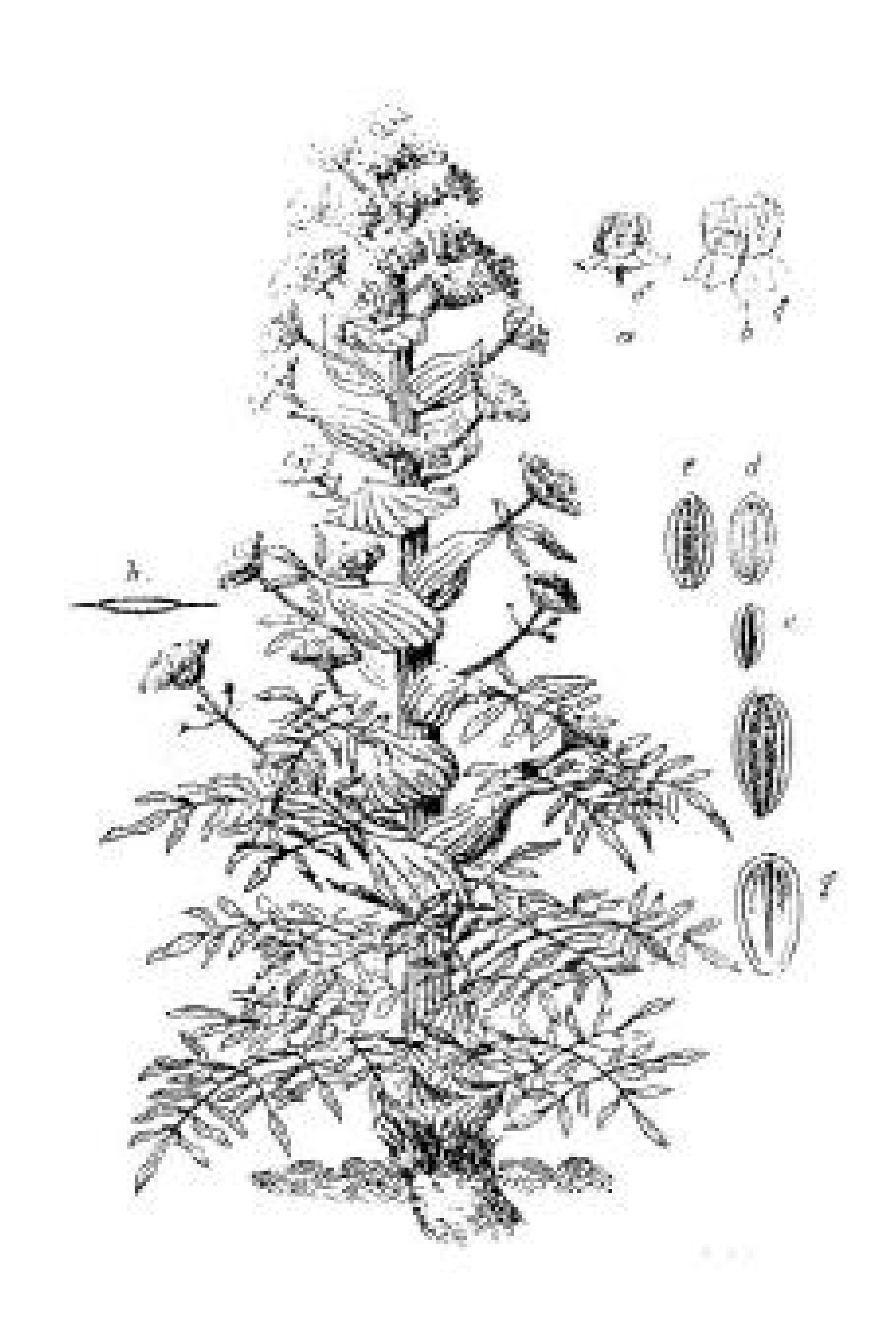
[2] نفسه،ص. 95.

[3] فرج محمود الراشدي،دور نبات السليفيوم في ثراء المدن القورينائية، مجلة البحوث التاريخية،السنة12، العدد2،طرابلس،يوليو 1990،ص.5 .

[4] ينتسب البطالمة إلى بطليموس(Ptolémé)، أحد جنرالات الاسكندر الأكبر، أسس حكم أسرته بمصر بعد وفاة الاسكندر المقدوني منذ 323 ق.م - G.Arnold, op.cit.,p.20.

[5] كتاب الجامع في مفردات الأدوية والأغذية (في مجلدين) ألّفه ضياء الدين أبي محمد ابن البيطار الأندلسي،توفي في دمشق 1248هـ/ 1830م.

[6] علي فهمي خشيم،عن بلين، الطبيعيات،الكتاب XXII الفقرة 49،48،ص ص .103-106.



الشكل رقم 5:رسم مُـــتخيّـل لنبات السلفيوم الذي كان ينمو قديما في قورينا بإقليم برقة
عن:علي فهمي خشيم ،نصوص ليبية، ص. 102 .

الذي عزاه إلى أن ملتزمي الضرائب الرومان الذين يستأجرون المراعي،جرّدوها منه تماما برعي الغنم عليه مُدْركين أنهم سيستفيدون أكثر بتلك الطريقة [1] .

غير أن سترابون يُخالفه الرأي بالقول:" أنه أوشك على الإنقراض حين أغار البرابرة على البلاد بسبب بعض الإحَنْ وقضوا على جذور النبات" [2] .

لكن الإعتقاد الراجح أن يكون السليفيوم قد شهد ما شهده نبات الزعفران الذي كان ينتج في جبل غريان،و بلغ إنتاجه حمولة15 بغلا سنويا وكان أفضل ما يُنتج في العالم حتى القرن السادس عشر للميلاد [3]. ولكن إنتاجه تناقص، مع أنّه أصبح زراعة تمارس إلى اليوم بليبيا.

إن مسألة اختفاء بعض النباتات يعود في أغلب الأحيان إلى عامل الجفاف بعد فترة من الرطوبة. وأبلغ مثل على ذلك ما تجود به أرض الصحراء من نباتات و درنيات مثل الترفاس[4] .

---

[1] نفسه،بلين، الطبيعيات،الكتاب XIX ،فقرة 15،ص. 98.

[2] نفسه،عن سترابون،الجغرافيا،الكتاب III ،فقرة 22 ،ص. 65.

[3] لا تزال زراعة الزعفران بجبل غريان جنوب طرابلس مشهورة رغم تناقصها. - نفسه،ص.157.

[4] الترفاس درن من فصيلة الترفاسية (Terfeziaceae)، وهو الاسم الذي يعرف به في بلاد المغرب أما في الجزيرة العربية و الخليج وبلاد الشام فيعرف بالكمأة. وصفه تيوفراست بأنه" ظاهرة طبيعية شديدة التعقيد وواحد من أغرب النباتات، فهو بلا جذور ولا ساق ولا ألياف ولا أغصان ولا براعم ولا أوراق و لا أزهار" . والترفاس لذيذ الطعم يُستعمل في طهي مأكولات شعبية شهية متنوعة. هو غني بالأملاح المعدنية وفيتامين "ب" و به نسبة من البروتسن. يظهر الترفاس بعد موسم الأمطار بالصحراء مع أواخر الشتاء وبداية الربيع.

للمزيد أنظر المواقع الالكترونية: -www.mekshat.com /www.athagafy.com.

-www.al -jazirah.com.sa/magazine 181.1.203.

ثالثا: الأصول المبكرة للزراعة

أكّدنا فيما سبق أن الزراعة في بلاد المغرب القديم لم تنتظر وفود الفينيقيين الذين أسسوا قرطاج ،حتى تظهر وتزدهر،وأكّدنا مسألة التطور الداخلي لبلاد المغرب إذ انتقل الإنسان،مع التغيرات البيئية شيئا فشيئا،بعد الجمع والإلتقاط والقنص والصيد إلى الإستئناس و الرعي فالإستقرار الذي سمح باكتشاف الدورات الزراعية .

وإذا كان هذا التأكيد يعني أن أصول الزراعة في بلاد المغرب هي أصول محلية، فلا يعني ذلك البتة الجزم بأنْ ليس للزراعة أصول خارجية،حتى وإن كانت في مواقع محدودة من البلاد.فلم تكن المنطقة بمعزل عن مواقع الحضارات التي ازدهرت فيها الزراعة وخاصة أرض كنعان ومصر كموطنين لظهور الزراعة الباكرة في بلاد الشرق القديم وهما الأكثر قربا من بلاد المغرب[1] .فهل يمكن أن تكون للزراعة أصول وافدة قبل مساهمة الفينيقيين؟.

1 - أصول القبائل المزارعة : إن أول ما يدعونا لهذا التساؤل ما أورده هيرودوت عن قبائل الليبيين المزارعين بدّء من غرب تريتون وهي الماكسيس و الزويس و الجيزانت. ومع أنه لم يزر مواقع هذه القبائل إلا أن أخباره عنها تتطابق مع معطيات "هيكاتي دي ميلي" المعاصر له والذي ذكر الزويس والماكسيس إنطلاقا من مدينة ميغازا (Mégaza) [2] .

أين وُجدَت هذه القبائل المزارعة؟ ومن هم أهلها؟

لقد عاشت في المنطقة المعروفة بالساحل [3].التي تسمح بالزراعة الجافة المعتمدة على الأمطار.وقد عُرفت قديما بـ البيزاسيوم (Byzacium) وقد عرفت ظروفا تاريخية مخالفة لقبائل البدو ومخالفة للفنيقيين. وبعد الإحتلال الروماني اندمجت مع الفينيقيين ليحمل أهلها إسم

---

[1] أرض كنعان هي الأرض الواقعة غرب نهر الأردن وهي أرض فلسطين. والفلسطينيون هم أول من سكنها. اعتبرها اليهود أرضهم المقدسة الموعودة(إرتس).أي الأرض التي قطع الإله على نفسه عهدا لإبراهيم عليه السلام بأن تكون للشعب المنحدر من صلبه. وذلك نظرا لأنها كانت مزدهرة زراعيا.إذ جاء في سفر التكوين 8/17 من العهد القديم : "وأعطي لك ولنسلك في أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا، وأكون إلهكم " .

- للمزيد انظر: عبد الوهاب المسيري،موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية،المجلد الخامس،ص ص.69-139.

الموقع الإلكتروني: . www.al-mostafa.com-

[2] تقع إلى الغرب من بحيرة تريتون. -Hérodote,op.cit.,notice du traducteur,p.142.

[3] هي المنطقة الممتدة بين مدينتي محرس جنوب صفاقس حتى هرقلة شمال سوسة .

" الليبيو- فينيقيين" (Liby-phéniciens) إنهم الأجداد الأوائل للإفري وأجداد السواحلية (Sahéliens) حاليا[1] .

ويأتي السؤال الأهم ،ما هي أصول هذه القبائل المزارعة؟.

نعود إلى نصوص هيرودوت لنقرأ " إلى الغرب من بحيرة تريتون لم يعد الليبيون رحّلا وليست لهم نفس العادات" [2] وفي فقرة أخرى يضيف عن قبائل الماكسيس " إنهم يدّعون أن أسلافهم الطرواديون "[3].

إن اختلاف نمط المعيشة المغاربي،بين قبائل مادون النهر وما بعد النهر،يدعو إلى التساؤل عمّا إذا كانت أصولها مختلفة باختلاف نمط معيشتها.

أما الإدّعاء بالأصول الطروادية فنحن نعلم أن بلاد الإغريق،ومع أنها كانت منطقة طرد سكاني،لقلّة سهولها وصعوبة تضاريسها وهجرة بعض أهلها نحو جزر المتوسط، إلا أن وصول بعض أهلها للساحل الليبي لا يتعدّى القرن السابع قبل الميلاد. [4]

لذلك يجب البحث عن أقوام كانت بلادهم موطنا لزراعات استفاد منها كل من وصل إليها من الشعوب، ونقصد بهؤلاء أهل كنعان الذين كانت زراعتهم مزدهرة.حيث كانت أريحا التي دخلها العبرانييون من أوائل مواطن ظهور الزراعة وازدهارها في الشرق القديم[5].

إن المنظومة الزراعية التي كانت سائدة عند قبائل الماكسيس والزويس والجيزانت قد امتدت غربا إلى السهول العليا حتى بلاد النوميد وذلك قبل زمن طويل من مجيء ماسينيسا[6]. ولم تكن مدن السهول المرتفعة التي طالب بها كأرض آبائه وأجداده مدنا قرطاجية الأصول

---

(1) -J.Tixéront,op.cit.,p.12.

(2) -Hérodote,IV,187.

(3) -Ibid,19.

-هم سكان طروادة الواردة في إلياذة هوميروس عُرفت باسمIlionتوجد في أقصى شمال غرب آسيا الصغرى بتركيا حاليا.

(4) يعود تأسيس أول مستوطنة إغريقية بليبيا إلى سنة 631 ق.م علي يد باتوس الأول.

أنظر محمد الطاهر الجراري،الغاية من تأسيس قورينة،مجلة البحوث الليبية،السنة الثامنة، العدد1، طرابلس،جانفي1986، ص ص .1-17.

(5) أرنولد توينبي،المرجع السابق،ص.56.

- يُقسّم تاريخ اليهودية إلى ثلاثة مراحل،أوّلها فترة الأباء من إبراهيم حتى يوسف عليهما السلام(2100-1250ق.م). وقبل وفود العبرانيين إليهاكانت أرض كنعان قد قطعت شوطا كبيرا في الازدهار الزراعي.

أنظر عبد االوهاب المسيري ،المرجع السابق،ص.69.

(6) -J.Tixérent,op.cit.,p.32.

وإنما نشأت من أصول ليبي-فينيقية ذات خلفية كنعانية [1].ويُعزّز هذا الطرح الزراعة الجافة بدءًا من الساحل نحو الداخل تماما مثلما غُرست في أرض كنعان ومنها زراعة الأشجار التي تخزن أوراقها الماء في الفصل المطير لتحتفظ به للفصل الجاف،وتتميز بعمق جذورها مثل الزيتون.وفي ذلك دليل على الأصل الكنعاني للزراعة عند القبائل المستقرة.إن البيزاسيوم موطن هذه القبائل هو المنطقة المفضلة للزراعة الجافة المتوسطية و التي شهدنا تطورها في الشرق [2] .

وقد ذكر ابن العوام الإشبيلي [3]في كتاب " الفلاحة " الذي أخذ بعض مصادره عن كتاب شرقي شهير هو كتاب "الفلاحة النبطية "[4] ،ما زخرت به بلدان المتوسط الغربي من كروم وزياتين غُرست بتقنيات مشابهة لتقنيات بلاد كنعان ومن هذه التقنيات التي لا تزال مستعملة،غراسة الأشجار في أماكن التّلعة(Talweg) وذلك بتجميع الماء في خنادق تسمح باستعمال الماء وحماية التربة،ومنها محاربة الجفاف بمباعدة أشجار الزيتون حيث أن المطر الذي يسقط على 400 م^2 يُسَخّرُ لشجرة واحدة لا يتعدى امتداد أغصانها 50 م^2 وذلك في الأماكن الأكثر جفافا [5].

وقد ورثت منطقة القبائل المزارعة إلى يومنا هذا تلك الجنان التي أبدعتها جهود الأسلاف، جيلا بعد جيل حيث يصادف المرء" بين الدروب المنعرجة،بساتين غُرست بعناية تملأها الأشجار وخاصة الزياتين التي تضلل أشجارها المئوية وربما الألفية حقول الشعير و الفول[6].

إن من جعل منطقة البزاسيوم واحدة من أغنى مناطق شمال إفريقيا رغم أنها من أكثرها

---

(1) -G.Ch.Picard,Civitas Mactarita, Karthago Revue d'archéologie africaine,T.VIII,Paris, 1957,p.67.

(2) -J.Tixéront,op.cit.,p.35.

(3) أبو زكريا يحيا بن محمد بن أحمد بن هبيرة الشهير بن عوام الاشبيلي(توفي سنة 1185 م)،عالم أندلسي اشتهر بكتابه "الفلاحة الأندلسية". طُبع قسم منه وتُرجم إلى الاسبانية والفرنسية.له كذلك "عيون الحقائق وإيضاح الطرائق"،ورسالة في تربية الكرم. أنظر: خير الدين الزركلي،الأعلام،المجلد الثامن،الطبعة الخامسة،بيروت،1980،ص.240.

(4) مؤلفه أحمد بن علي بن قيس بن المختار بن عبد الكريم بن حرِثياَ أبو بكر المعروف بابن وحشية نقل كتاب " الفلاحة النبطية" عن الكلدانية سنة 904 م . أنظر: نفس المصدر، المجلد الأول،ص.244.

(5) -J.Tixéront,op.cit.,pp.34-35.

(6) - G.Ch.Picard,Les Civilisations de L'Afrique romaine,Etudes augustiniennes,2éme éd, Paris,1959,p.52.

جفافا،هم أقوام أتوا بخبرات تنطبق على بيئة شبه جافة،هي أرض كنعان،منذ بداية الألف الثانية[1].

2- ظروف انتقال الكنعانيين إلى بلاد المغرب: أكد بن خلدون الأصل الكنعاني للبربر كما أسلفنا. ولعل البحث في ظروف انتقال الكنعانيين يتلاءم مع تأكيد بن خلدون ويدعم طرحنا بالأصول الكنعانية للزراعة الجافة. ويمكن إيجاز هذه الظروف في.

أ- أن بلاد كنعان عاشت اضطرابات وحروبا خلال الألف الثانية قبل الميلاد مثل غزوات الحثيين و الآخيين والهكسوس و العبرانين وغيرها حتى غزوات شعوب البحر[2].

ب- إن هذه الظروف جعلت موجات من سكان المنطقة مثل الكنعانيين[3] يهاجرون نحو آفاق أرحب وأكثر أمنا وأقل اكتظاظا بعد أن عجّت بلادهم بالغزاة و الوافدين (أنظر الخريطة رقم 5ص83). غير أن الطرق البرية،سواء الساحلية منها أو الصحراوية تراجعت نظرا للتدهور البيئي وحلول الجفاف ،مع تقدم النقل البحري في أعماق البحار .

ج- إن تطور النقل البحري عند شعوب الحوض الشرقي أدّى بديهيا إلى بروز علاقات بين الشعوب البحرية ساهمت في نقل التجارب و الخبرات .

د- أن الزراعة كانت متطورة عند الكنعانيين حتى قبل الألف الثانية قبل الميلاد لأن بلادهم كانت من أوائل مراكز الإستقرار وظهور الزراعة في العالم [4] .

من الواضح أن هذه الظروف تشكل دليلا قويا على انتقال مهاجرين كنعانيين إلى منطقة البيزاسيوم التي قطنتها قبائل االماكسيس والزويس والجيزانت وذلك عن طريق البحر سواء بمراكب فردية أومن خلال أساطيل كاملة كتلك التي وردت في رحلة حنون[5]

---

(1) - **J.Tixéront,op.cit.,p.38.**

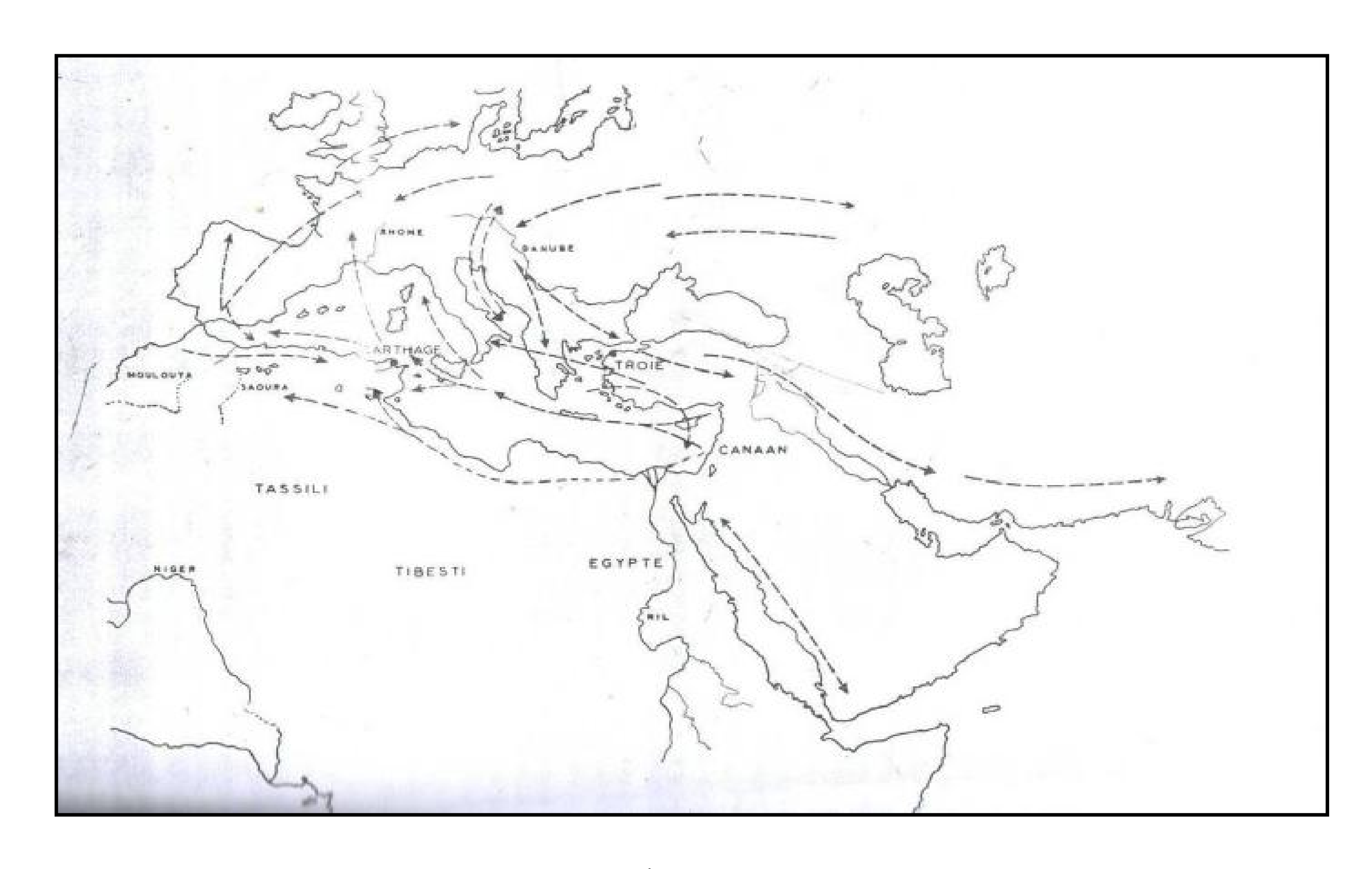
(2) - **G.Arnold,op.cit.,p.14.**

- يوكّد أرنولد توينبي أن حركات شعوب البحر لم تكن غزوات ولا حملات حربية لكنها محاولة للهجرة لأن القادمين حملوا معهم أهلهم وأنعامهم وأموالهم المنقولة من أجل الاستيطان. أنظر: توينبي،المرجع السابق،ص.113.

(3) **جغرافيا يجب التفريق بين الكنعانيين الذين تنحصر أرضهم بين نهر الأردن شرقا و البحر المتوسط غربا،وبين فينيقيا التي تتمثل في ساحل كل من سوريا ولبنان.وتاريخيا يمكن التمييز بين الفترة الكنعانية التي سبقت القرن XII ق.م،والفترة الفينيقية ما بعدها والكنعانيون أقوام سبعة منهم" الحيثيين و العموريين و الأموريين والكنعانيين واليبوسيين والحويين . أنظر: عبد الوهاب المسيري، المرجع السابق،المجلد الرابع، ص.163.**

(4) **-G.Arnold,op.cit.,p.13.**

(5) **-J.Tixéront,op.cit.,p.32**



الخريطة رقم 5: تيارات الهجرة في الألف الثانية ق.م

عن:.J.Tixeront,op.cit.,p.20.-

دون أن يسجلها التاريخ .

أخيرا لا بد من ذكر ما أورده كامبس عن موفِرس ،أنه يوافق من ذهبوا إلى القول بأن قومًا كنعانيين كانوا قد عبروا إلى إفريقيا واختلطوا بالليبيين البدائيين وعلّموهم الفلاحة وأصبحوا ليبي-فينيقيين. كما أورد عن المؤرخ ديفيطّا(A.DiVitta) تأكيده أن الذاكرة الكنعانية لا تزال تحتفظ عند بعض المؤرخين بذكرى حملة كنعانية سابقة لتأسيس قرطاج [1].

ختاما يمكننا القول أن جهود الليبي-فينيقيين،أسلاف سكان الساحل،والتي امتدت إلى داخل البلاد شيئا فشيئا هي التي أهدت القرطاجيين ومن بعدهم الرومان ،زراعة وجدوها قائمة فزادوا في تطويرها فازدهرت بفعل ما أدخلوه عليها من تقنيات ونُظم [2].

3- أصول زراعة الواحات:

لقد فصّل هيرودوت في تتبع مواقع القبائل الداخلية التي تتجمع في الواحات حول الينابيع مُشكّلة مسارا يمتد من الشرق إلى الغرب" ففي المقام الأول بعد طيبة (Thèbes) على بعد مسيرة عشرة أيام يوجد الآمونيون" (Ammoniens) [3] وتليها أول واحات ليبيا على خط الكثبان الرملية." فبَعد الأمونيين بمسيرة عشرة أيام أخرى يعيش أناس حول تلّة إسمها " أوجلا" وهو المكان الذي يقصده النزامون لجَني التمور " [4] .

ويواصل هيرودوت استعراض الواحات المتشابهة بالإتجاه غربا فيذكر الجرامنت (Garamantes) والأطرانت (Atrantes) والأطلانط (Atlantes) .

- أما الجرامنت فهم أهل فزان الأقدمون[5] ومنهم " تبدأ أقصر طريق إلى موطن (اللوطوفاج) على بُعد مسيرة 30 يوما، حيث توجد الأبقار التي ترعى القهقرى ويُطارد الجرامنت سكان الكهوف الإثيوبيين على عربات تجرها أربعة جياد"[6].

- وإذا انطلقنا من أوجلا وعلى بُعد 600 كلم غربا تظهر فعلا أوائل واحات فزان باتجاه سبْها والتي تمتد على طول 200 كلم،ومن هناك يمكن الوصول إلى غدامس[1]على بُعد 500كلم تقريبا عبر

---

(1) -G.Camps,Islam société et communauté,Anthropologie du Maghreb, les cahiers du C.R.E.S.M,Ed.CNRS,Paris,1981,p.04.

(2) -J.Tixéront,op.cit.,p41.

(3) هي واحة سيوة بمصر حيث معبد آمون الذي زاره الاسكندر سنة332 ق.م. -Hérodote, IV,181.

(4) تبعد أوجلا 400 كلم غرب واحة سيوة . -Ibid,p.182.

(5) علي فهمي خشيم ، المرجع السابق،ص.42.

(6) - Hérodote,IV,183.

الحمادة الحمراء،وبعدها تأتي واحات نفزاوة والجريد بتونس [2] فواحات وادي سوف ووادي ريغ ثم الزيبان بالجزائر [3] وهذا يتطابق مع ترتيب مواقع هيرودوت أي بُعدها عن بعضها مسيرة عشرة أيام.خاصة إذا أخذنا واحات فزّان جميعها كمنطقة وليس كواحة معزولة،وبحساب المسافات من أطراف هذه المناطق. يمكن إذا مطابقة واحات الأطرانت مع مجموعة واحات دِرْج إلى غدامس ،كما يمكن تلمُّس واحات الأطلنط في مجموعة واحات نفزاوة والجريد،و وادي سوف و وادي ريغ، ثم الزيبان [4] .

لقد كتب هيرودوت أنه استطاع أن يعدّد " أسماء الأقوام الذين يقطنون الشريط الرملي حتى موطن الأطلنط،لكن ليس بعد ذلك ،وإنما الذي أعرفه أن الشريط الرملي يصل إلى أعمدة هرقل وما بعدها،ويوجد على الشريط منجم ملح كل مسيرة عشرة أيام وأُناس يعيشون هناك" [5]

لقد تحدّث هيرودوت عن شريط الواحات من وراء حدود ليبيا الشرقية حتى جبل الأطلس الذي نسب إليه قبيلة الأطلنط،ليؤكد بعد ذلك وجود واحات أخرى تمتد غربا غير أن مواصفات الجبل المذكور توحي بأنه جبل بركاني " فهو دقيق ودائري من كل الجهات وهو من العُلُوّ،كما يُقال،بحيث تستحيل رؤية قمّته" [6].

---

[1] سماها الرومان سيداموس (Cydamus)،تحيطها واحة ترويها مياه الينابيع.
للمزيد أنظر: إسماعيل العربي،المرجع السابق،ص.135 .

[2] واحات نفزاوة مركزها مدينة قبلّي جنوبي شرق شط الجريد ،وواحات الجريد مركزها مدينة توزر.
أنظر المرجع نفسه،ص.136.

[3] واحات وادي سوف مركزها مدينة الوادي شمال العرق الشرقي، و واحات وادي ريغ مركزها مدينة تقرت جنوبي شط ملغيغ،و واحات الزيبان مركزها مدينة بسكرة تقع بين الأوراس شمالا وشط ملغيغ جنوبا .
نفسه،ص ص. 139-149.

[4] - J.Tixéront,op.cit.,p.10.

[5] - Hérodote, IV,185.

[6] -Ibid,IV.184.

نلاحظ هنا أنّ مَنْ أخبر هيرودوت بهذا الجبل لم يكُن دقيقا فقط،بل كان مُبالغا أيضا إلا إذا كانت المنطقة المقصودة هي جبال القنطرة المتفرّعة عن الأوراس أو جبال الأوراس نفسها والتي تنتهي في سفوحها الجنوبية بواحات النخيل[1] .

ختاما نستنتج أن الواحات التي عرّفها هيرودوت هي نفسها الموجودة في مواضعها الحالية تقريبا، وأن العلاقات التي طبعت واحة أوجلا وقبيلة النزامون هي نفس العلاقات التي لا تزال تربط قبائل الرّحل بمناطق الواحات على أيامنا هذه. وأن هذه الواحات كانت موجودة بدون شك قبل عصر هيرودوت بعدّة قرون ويجب البحث عن أصولها وتتبُّعها من حوض وادي النيل بالإتجاه غربا قبل الألف الثانية قبل الميلاد [2] .

4- منظومة الرّي في الواحات: شكّلت المياه العذبة أهم الأسُس التي قامت عليها المدنيات، بل وعُرفت حضارات عظيمة وبلدان، بالأنهار التي عاشت عليها مثل بلاد النيل(مصر)وبلاد الرافدين أو بلاد مابين النهرين(العراق).وهناك نشأت أولى أساليب الرّي بالنسبة للزراعات السقوية.وفي بلاد المغرب ونظرا لشُحّ الأمطار خاصة في الصحراء وحتى في الشمال،إنتقل الإنسان إلى استغلال المياه الجوفية بإتباع تقنيات تسمح له بالإستغلال الأمثل
لهذه المياه الشحيحة[3].وهذه التقنيات لا تختلف عن تلك المتبعة في بلاد المشرق القديم:

أ- الرّي بمياه الآبار و الينابيع: عُرفت هذه التقنية في كل من مصر وبلاد المغرب حيث يُستخرج الماء من أعماق مختلفة بواسطة آلات إبتدعها الإنسان منها : الشادوف عند المصريين و الخُطّارة عند المغاربة مُستعملين جهد الإنسان أو الحيوان وقد توارث أهالي الواحات منذ القدم تقنيات حفر الآبار الإرتوازية جيلا عن جيل.وأساس الإنجاز أن تُبنى استحكامات من الجبس والحجارة وجذوع النخل كُلّما تعمق الحفارون حتى يصلوا إلى الماء لتخضع الآبار بعد ذلك إلى الصيانة وخاصة إزالة الرمال التي تُراكمها الرياح [4] .

ونظرا لقرب الطبقة الفرياتية من سطح الأرض سعى أهل واحات سوف بالجزائر و نفزاوة بتونس إلى غراسة النخيل عند هذه الطبقة وذلك بعد أن يكونوا قد أزاحوا الرمال

---

(1) -J.Hureau,op.cit.,p.72.

(2) -J.Tixéront,op.cit.,p.10.

(3) -A.Mahjoubi et H.Slim,La maîtrise de l'eau à l'époque antique,Al-Madar,revue de la Cité des Sciences,n° spécial,Tunis,1992,p.33.

(4) وضّفت إدارة الاحتلال الفرنسي في وادي ريغ بالجزائر حفارين مختصين: -J.Tixéront,op.cit.,p.27.

ليحفروا فوّهات في التربة البِكر،تغرس عندها الفسائل لتأخذ مبتغاها من الماء [1]وتُستخرج مياه الآبار لريّ الفلاحة السقوية كالخضر والبرسيم.

أما في واحات تاغيت وبني عباس شمال العرق الغربي بالجزائر فإنها تُروى بمياه جارية تتدفق من الينابيع [2] مثلها مثل واحات الجريد التونسي و غدامس بليبيا.

وفي واحات الزاب تتنوع منظومة الري من مياه آبار و وديان في كل من الزاب الشمالي أو التخوم الأوراسية و الزاب الشرقي والغربي حول مركزه بسكرة وهي فيسيرا(Vicera)على العهد الروماني،حيث أجود أنواع التمور كمّا ونوعا [3].

أمّا في أغلب واحات ليبيا فتُستغلّ الآبارعن طريق الخُطّارة [4]في الري كما تُستغل مياه الأمطار بإقامة خزّانات لها تحت الأرض.ولا يزال الليبيون يستعملون هذه التقنية بإقامة خزانات تحت بيوتهم يُجمّعون فيها مياه الفصل المطير المتساقطة على السطح لاستغلالها في الفصل الجاف [5] .

ب-الرّي بمياه الفقارات: من تقنيات الري القديمة التي عرفها المغاربة نظام "الفـُقـّارات" أو أرْوقة المياه الجوفية لاستدرار المياه الباطنية على شكل قنوات تحت الأرض. وهي تبدو تقنية حديثة المنشأ إلا أنها تعود إلى ما قبل الإحتلال الروماني والإستيطان الفينيقي. و الفـُقـّارة (Fouggara) هي عبارة عن قنوات عريضة تسمح للرجل القصير بالمشي و التجول فيها بسهولة،ويصل عمقها إلى 60 أو 70 مترا .وتبدوا الآبار على سطح الأرض كفُوّهَاتٍ للتّهْوئة وتساعد على دفع الماء فتبدو كنهر باطني[6].

---

[1] وفرت هذه التقنية الوقت للفلاح لينصرف إلى أشغال أخرى،ولكن مع تطور العمران وما صحبه من زيادة في استهلاك الماء جعل المياه المستعملة تصعد في الغيطان وتتلف النخيل وبالتالي لم تصمد هذه التقنية مع مرور الزمن.

[2] إسماعيل العربي،المرجع السابق،ص.139.

[3] - J.Hureau,op.cit.,p.82.

[4] - J.Tixéront,op.cit.,p.27.

[5] لا تزال هذه التقنية متواجدة في البيوت وفي الصحراء نفسها وهي التي ساعدت المجاهدين الليبيين في مقاومة الاحتلال الإيطالي وقد جدّدها الليبيون وعمّموها على حواف الطّرق الصحراوية ليستغلّها المسافرون وتشرب منها الطيور والطرائد في الصحراء . وقد استلهم الليبيون هذه التقنية لإقامة أكبر مشروع لنقل المياه الجوفية في العالم و هو النهر الصناعي " العظيم " . للمزيد أنظر: موضوع النهر الصناعي العظيم .الموقع الإلكتروني:.**www.alelam.net/dir/water.htm**-

[6] إسماعيل العربي،المرجع السابق،ص.141.

وقد قُدّر طول أروقة الفُـقّارات بمنطقة تواتْ وحدها،قبل الحرب العالمية الثانية، بثلاثة آلاف كلم[1].

إذا كانت مسألة قِدَم هذه التقنية غير محدّدة بدقة تاريخيا، إلا أنها جغرافيا تمتدّ من أفغانستان شرقا حتى بلاد المغرب غربًا(أنظر الخريطة رقم6 ص89) وهي تتواجد على طول خط حضارات الألف الثالثة قبل الميلاد [2] وهذا ما يُعزّز انتشار هذه التقنية لتصل بلاد المغرب قبل عدّة قرون من توافد الفينيقيين.

من ذلك يُمكن أن نستنتج أن الزراعة التي تحدّث عنها هيرودوت في الواحات، قد نشأت في الشرق منذ أقدم العصور.وما دامت المواصلات مفتوحة على وادي النيل سواء عن الطريق الساحلي أو الصحراوي في الألف الثالثة قبل الميلاد ولكنها انقطعت بسبب الجفاف بين الألف الثالثة وعصر هيرودوت، فإن الزراعة في الواحات تكون أقدم الزراعات التي نشأت في بلاد المغرب[3]أي أنها تمتد إلى فترة ما قبل التاريخ [4] " التي انتشرت،بما كان عندها من نباتات وحيوانات مُدجّنة في العالم القديم من جنوب غرب آسيا شرقا عبر الشواطئ القارية و الجُزرية في حوض البحر المتوسط ، إلى المناطق الإفريقية و الأوروبية الواقعة خلف البحر المتوسط وقد كانت طريقة الحياة هذه قد عمّت سنة 2500 ق.م غربا حتى الشواطئ الشرقية لشمال المحيط الأطلسي "[5].

ومن خلال كل ما سبق يمكننا القول بأن الزراعة في بلاد المغرب لم تكن ،كفعل حضاري،بمعزل عن غيرها من المؤثرات التي طبعت حوض البحر المتوسط والصحراء الكبرى،في مختلف المجالات. وكان نتيجة ذلك أن دخلت بلاد المغرب العصور التاريخية بما حققته مبادرات أبنائها ،مع ما استقبلته من إسهامات الوافدين.

---

(1) أهم واحات منطقة توات، بشار وتيميمون وأدرار . - J.Hureau,op.cit.,p.54 .

- بنى الليبيون منذ 1984م مشروعا ضخما للري أطلق عليه اسم النهر الصناعي العظيم وقد استُلهمت فكرته من التراث الليبي إذ تمّ حفر 1300 بئر عميقة تضُخُ أكثر من ستة ملايين متر مكعب من المياه يوميا. ويبلغ طول منظومة نقل الأنابيب 3500 كلم بقطر أربعة أمتار وهي تنقل المياه الجوفية الوفيرة من مناطق الصحراء في الجنوب إلى مدن الشمال وأريافه.

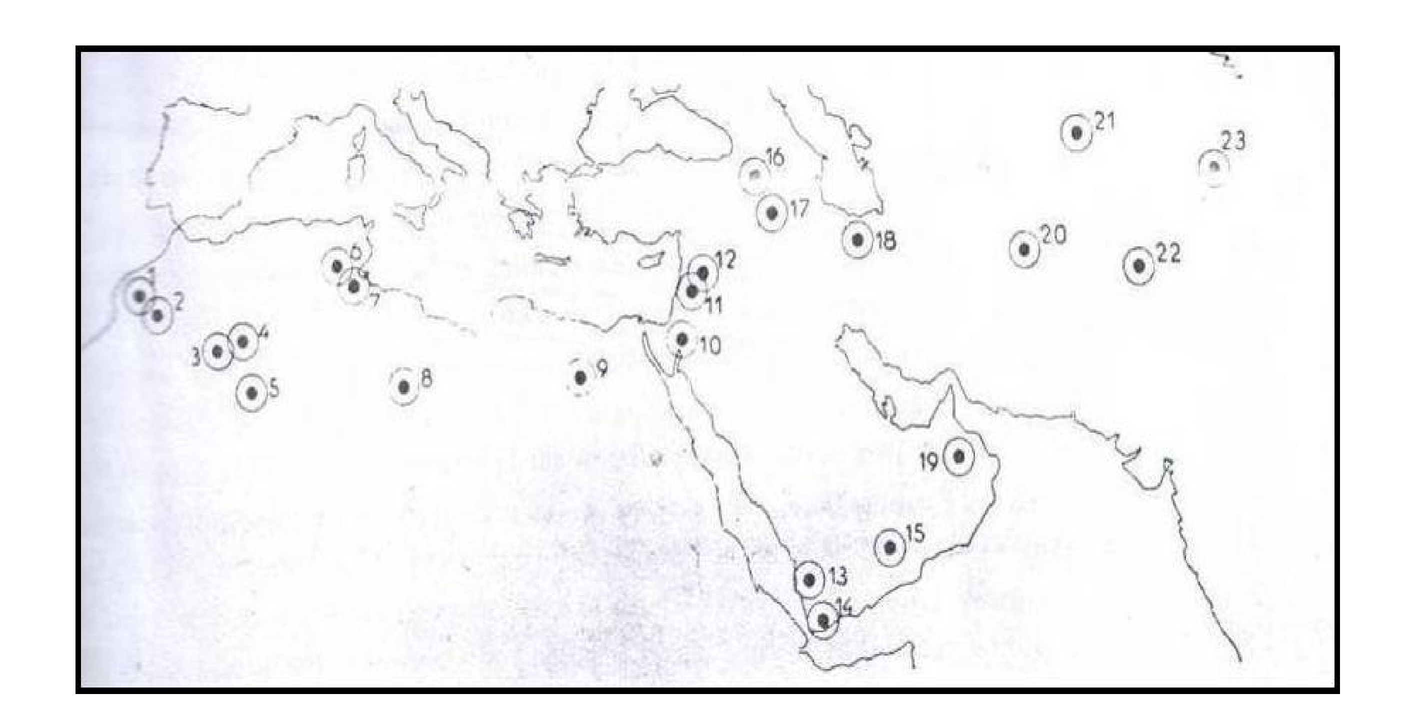
- للمزيد حول النهر الصناعي العظيم أنظر: المرجع الإلكتروني السابق .

(2) عرف الفُرس نظام الفقّارة تحت اسم "قناة" (Kanat) - J.Tixéront,op.cit.,p.26.

(3) - Ibid,p.28.

(4) محمد الصغير غانم،مقالات حول منطقة بسكرة والتخوم الأوراسية،الآثار،الزراعة،و التاريخ،مطبعة قرفي،باتنة،ب، ت،ص.48.

(5) أرنولد توينبي،المرجع السابق،ص.89.



*مواقع الفقارات :

1- مـــراكش،2- تافيلالـــت،3- تـــوات،4- قـــورارة،5- تيـــديكالت،6- القطّـــار،7- فطناســـة، 8- وادي العجال،9- واحة الصحراء الليبية،10- جنوب فلسطين،11-دمشق وتدمر 12- حلـب وحمـص،13- الـيمن،14- عـدن،15-حـضرموت،16- بحيـرة فـان ومنـابع دجلـة 17- أذربيجـان وكردسـتان،18- إيـران،19- عمـان،20- أفغانـستان،21-تركـستان وسـينكيانغ 22- باكستان الشرقية،23- الصين الغربية.

الخريطة رقم6: الفـقـارات في العالم القديم.

عن:.J.Tixéront,op.cit.,p.26-

الفصــــل الثالث:

الــزراعة عند البونـيـين

أولا- قـــرطـــاجة وريثـــــــة صور.

1- علاقة قرطاجة بالوطن الأم .

2- توسع القرطاجيين داخل بلاد المغرب القديم .

ثانيا- مــاغون القرطاجي وعصره و كــتــابـــه.

1- شخصية ماغون وعصره.

2- مؤلف ماغون وتأثيره.

ثالثا - الملكية الزراعية واليد العاملة .

1- ملكية الأرض و السكن الريفي.

2- اليد العاملة الزراعية .

رابعا- الإنـــــــتـــــاج الـــزراعـــي .

1-الإنـــتـــاج النباتي .

2- الإنتاج الحيواني .

أولاً: قــرطاجة وريثة صور

1- علاقة قرطاجة بالوطن الأم:

إعتاد المؤرخون وخاصة القدامى منهم، على اعتبار قرطاجة قوة بحرية صرفة لأن أهلها كانوا ورثة لأسلافهم الفينيقيين إذ قاموا برحلات بحرية للإستكشاف والتجارة إنطلاقا مــن قــادش (Cadès) نحو سواحل أوروبا بحثا عن القصدير والرصاص، وانطلاقا من ليكــسوس(Lixus)[1] للوصول إلى سواحل غرب إفريقيا الإستوائية لاستجلاب تبر الذهب والعاج وغيرها فيما عُــرف برحلة حنون (Hanon) [2].

ومن الثابت تاريخيا أن التواجد الفينيقي في سواحل بلاد المغرب كان على شكل محطـــات وافق قدماء المغاربة على إقامتها مقابل ريع سنوي،وبدأت كمحطات للتزود بالمـــاء العــذب ثــم تطورت إلى مراكز تجارية ، ثم استوطنها الفينيقيون وسكنوها مع أســرهم كمــستوطنات بــاكرة أهمها:ليكسوس على ساحل المحيط الأطلسي و أوتيكا على ساحل البحر الأبيض المتوسط[3].وهكذا بدَا أن الفينيقيين فضلوا السيطرة سلميا على البحار عوضا عن الصراع الذي لا ينتهي من جــراء الإستيلاء على الأرض.كما فضلوا الإستثمار الخفي على الإستعمار المُعلن[4] ثــم تطــورت هــذه المحطات ليغدو بعضها مدنا بعد أن اجتمعت فيها عدة عوامل كالأمن،والحماية الطبيعية،والثروات القريبة،و تواجد الأهالي الذين ستتم معهم المبادلات.غير أن اختيار المواقع يوحي بــأن العلاقــة بداخل البلاد كانت محدودة قدر الإمكان،فكانت المُدن الفنيقية إما على جزيرة كرشقون،أوعلى شبه جزيرة كقرطاج،أو على مصب وادٍ أين أقيمت المدينةعلى تلة محمية بــسهل يغمــره المــستنقع كليكسوس وأوتيكا،أو سبخة كسيدي الهاني بالنــسبة إلـــى حــضرموت(Hadrumète)أوســبخة العصافير بوهران[5].

ومن المعطيات السابقة يتضح أن نشاط القرطاجيين أحفاد الفينيقيين في بلاد المغرب إتجــه في معظمه إلى النشاط التجاري البحري أساسا، قد استطاعت قرطاجة، بفضل ريادتها في التجارة

---

(1) تؤكّد المصادر أن الفنيقيين أسّسوا منذ حوالي 1100 ق.م محطات متعددة متناثرة على البحر المتوسط منها قادش بجنوب شبه جزيرة إيبيريا وليكسوس على الساحل الأطلسي لشمال المغرب الأقصى و أوتيكا على الساحل المتوسطي شمال تونس. وقد سمحت لهم هذه المحطات بعد المُسَاحلة في الانطلاق إلى مختلف مناطق البحر المتوسط والبحار المجاورة.

أنظر: مادة Encyclopédie Encarta 2005, Explorations Phéniciennes -

(2) للمزيد حول رحلة حنون، أنظر: محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية، ص.26.

(3) - M.Kaddache,op.cit. ,p.44.

(4) - J.Carcopino,Le Maroc antique,Ed.,Gallimard,Paris,1943,p.26.

(5) -M.Ghaki,Recherches sur Les rapports entre Les Phéniciens –Puniques et Les Lybico-Numides(V^eme et I ^er siècle A.J.C), Paris 1979,pp.69-95.

الدولية،أن تلعب دور الوسيط بين شعوب المتوسط وأن تتفوق على كل المدن بما فيها تلك التي تأسست قبلها بقرون.

لقد استمرت المدينة الجديدة (قرطاجة)تحت سلطة الوطن الأم صور[1]، في دفع هدايا سنوية وأموال لمعبد ملقارت قدّرها بعض المؤرخين بعُشر مداخيلها. وبقيت قرطاجة وفية لهذا العهد ضامنة الولاء للوطن الأم . هذا الوطن الذي وجد في قرطاجة، نظرا لموقعها المتميز بين الحوضين الشرقي و الغربي للبحر المتوسط الذي وجدت فيه ملاذا آمنـًا لتجارتها التي يتهّددها الخطر الأشوري المهيمن في المشرق[2]،كما وجد الوطن الأم في قرطاجة موقعا متقدما للنشاط التجاري في الحوض الغربي لهذا البحر، وراصدا لتنامي التوسع الإغريقي في المنطقة . وهكذا تحولت قرطاجة من مستوطنة ناشئة إلى مدينة بديلة ورثت تراث صور عن جدارة و استحقاق،وخاصة تراثها الإقتصادي المتمثل بالخصوص في ريادة التجارة البحرية الدولية، مع بقائها وفية للوطن الأم .

غير أن اهتمام البونيين بالتجارة و التركيزعليها في اقتصادياتهم لا يعني أنهم وأسلافهم الفينيقيين أهملوا أهم أركان الإقتصاد في العصر القديم وهو الزراعة،لقد كان الفينيقيون مزارعين مهرة في الشريط الذي سكنوه بين البحر الأبيض المتوسط وجبال لبنان،فخلف مدن الساحل،صيدا وجبيل وصور وغيرها تمتد الأراضي الزراعية التي خصّبها جهد الرجال الفينيقيين وزرعوا بها الحبوب والكروم والزياتين وأشجار أخرى مثمرة.وخلافا لما أورده شيشرون من أن القرطاجيين قد أهملوا الفلاحة.فإن ذلك غير صحيح لأن التجارة البحرية يتهددها عاملان خطيران هما:الحروب و العواصف[3].

نظرا لطبيعة نشاطهم التجاري،فقد سادت علاقة المصالح المتبادلة في كنف السلم منذ بداية التواجد الفينيقي، بين الوافدين الفينيقيين والمحليين من أبناء بلاد المغرب.وقد بدأت العلاقة بمحطات تجارية تمت فيها المساومة الخرساء و انتهت إلى بناء محطات دائمة تحوّلت إلى

---

(1) كانت صور أكبر مدن فينيقيا، وقد استطاعت أن تتزعّمها لما بلغته من قوة اقتصادية و عسكرية، لكن الصراع داخل القصرالملكي جعل الملكة عليسة ديدون تفر مع أتباعها محملة بثروة خالها وزوجها عاشرباص الذي اغتاله أخوها باغماليون،وقد استطاعت الوصول إلى جزيرة قبرص أين زوّجت من معها من الشباب ببنات من هناك ليتشكّل المجتمع الجديد الذي أسّس قرطاج على مقربة من مصبّ نهر مجردة وحين أراد الملك اللّيبي يرباص الذي اكترى لها موقع المدينة، الزواج منها، تظاهرت بالقبول ولكنها أعدّت نارا و أحرقت نفسها فيها لتكرّس عادة تقديم القرابين البشرية عند الفنيقيين ومن بعدهم البونيين لأنهم يرون فيها تضحية من أجل المدينة وإخصاب الأرض ومنع الخطر.

(2) هيمن الآشوريون على الشرق الأدنى على مدى ستة قرون انطلاقا من موطنهم الأصلي شمال بلاد الرافدين بين نينوى وآشور. أشهر ملوكهم سرجون(721-705 ق.م) و آشور بانبيال (669-627). احتلوا الجزء الأكبر من سوريا وفلسطين وفينيقيا وقبرص وشمال مصر وبابل. أنظر: -G.Arnold,op.cit .,p.17.

(3) محمد فنطر، المرجع السابق،ص.30.

مستوطنات مقابل ريع مالي سنوي[1] وقد كان لقرطاج من الأسباب ما جعلها تفرض نفسها كقـوة أساسية للتواجد البونـي، وعلى رأسها تلك الثروات التي جلبتها الأميرة علّيسة معها إبّان فرارها من صور، وكذلك بفضل الموقع الذي اختارته لبناء المدينة والميناء التجاري والحربي والـذي سمح بمراقبة حركة الملاحة البحرية بين الحوضين الشرقي والغربي للمتوسط.وسمح هذا الموقـع الإستراتيجي لمدينة قرطاجة بالتوسع والتفوق على كل المحطات الفينيقية الأخرى، رغم قِدم أغلبها بالنسبة إلى المدينة الحديثة [2].

ورغم أن المصادر الكتابية لم تحدد ملامح قرطاجة خلال القرون الثلاثة الموالية لتأسيسها إلا أنه،ومن خلال ما وصلت إليه، نستطيع تخمين ما قامت به.

لقد سعت قرطاجة لإبعاد صور عن الحوض الغربي للبحر للمتوسط ومع ذلك ساد إحترام المدينة الحديثة للمدينة الأم، بل والتزمت دوما بإرسال الأموال و الهدايا لمعابدها سنويا. لكن هـذا الواجب الذي أملاه الدين، و الإعتراف بالجميل لا ينفي بأنه، وبعد عـدة أجيال،سـلبت قرطاجـة المدينة الأم سلطتها على كل المحطات الفينيقية دون استثناء حتى تلك الأقدم منها مثل: أوتيكا.ولعل استثمار قرطاجة لموقعها الإستراتيجي وكذا انتساب من أسّسوها إلى الأسرة المالكة في صور هما العاملان اللذان أهّلاها لذلك الدور الجديد،فأصبحت تراقب بل تقود حركة التنقل بين حوضي البحر المتوسط[3].

لكن السؤال الذي يطرح نفسه ، هل كان من مصلحة قرطاجة أن تُـبعد صـور و تفتكّ منها سلطتها على مستوطناتها؟!.

إن الظروف الدولية في تلك الفترة هي التي ساهمت في تحجيم دور صور، فلقد تعرضـت للغزو الآشوري في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد وما تلاه، وهذا ما جعلها غيـر قـادرة علـى مواجهة التحديات.فلم تعد المدينة العريقة قادرة على التوسع الإستيطاني بعد ذلك،خاصة مع تنامي الإستيطان الإغريقي الذي أملاه فائض السكان في وطن قليـل المـساحة الزراعيـة، فاتجهـت

---

(1) محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص.133.

(2) رغم تسميتها بالمدينة الحديثة(قرط حدشت) إلا أن الفنيقيين أقاموا قرطاج على مكان كانوا يعرفونه سابقا. غير أن المصادر تكاد تكون على أن تاريخ تأسيسها هو 814 ق.م إذ يضع تيميوس(Timé) تاريخ تأسيس قرطاج بثمانية وثلاثين سنة قبل الأولمبياد الأول أي(776+38=814 ق.م). للمزيد حول تأسيس قرطاج أنظر:

- S.Gsell,op.cit.,T.IV,pp.397-401.

(3) -E.Albertini et autres,op.cit.,p .38.

أنظار أهله إلى جزر الحوض الغربي للمتوسط وخاصة صقلية[1]،بالإضافةإلى جنوب شبه جزيرة إيطاليا،ناهيك عن توسعهم في البحر التيراني،والساحل الجنوبي الشرقي لبلاد المغرب.

وفي غياب مدينة صور البعيدة والمغلوبة عن أمرها لم يقم إتحاد بين الفينيقيين والبونيين للوقوف في وجه التوسع الإغريقي،في مواقع كانت أقرب وأنسب إليهم،فتقبلت المستوطنات البونية وصاية قرطاجة وأصبحت خاضعة لسلطتها الفعلية فيما بعد.وهكذا وبين سنتي 814 و 500 ق.م تشكّلت إمبراطورية قرطاج أو الإمبراطورية البونية[2].

لقد استطاعت الإمبراطورية الفتية أن تبني محطات استيطانية جديدة،بل واستطاعت فتح المحطات الفينيقية القديمة،ليس على الساحل الإفريقي فقط بل حتى في غرب جزيرة صقلية،وجنوب وغرب جزيرة سردينيا، وجزر البليار. وكل هذه المواقع تُمثّل الطريق التجاري الأهم في اقتصاد البونيين نحو جنوب شبه جزيرة إيبيريا بين المريا و قرطاجنّه كما ضمت قرطاجة جزر مالطا ،و قوزّو و بنتللاريا شرقي تونس[3] .

وبهذه المواقع من مستوطنات و محطات ساحلية أصبح القرطاجيون (البونيون) وجها لوجه مع الإغريق الذين كان يحكمهم طغاة لن يترددوا في دحر سلطة قرطاجة على المدن التي في حوزتها بصقلية، والتي تعتبر النقطة الحساسة في كيانها المتفرق [4].

إن التوسع في سواحل الحوض الغربي للمتوسط،بالإضافة إلى إرثهم الفينيقي أملى على البونيين تحديد خيارهم الإقتصادي فارتبطت حياتهم بالتجارة البحرية و أصبح النقل البحري يربط بين المدن البونية من خليج السرت حتى أقصى جنوب بلاد المغرب وكان لكل من هذه المدن البحرية ضاحية ضيقة جعلتها تعتمد في تموينها الغذائي من المنتوجات الزراعية،على القبائل المجاورة التي تقوم بدور الوسيط بينها وبين داخل البلاد[5].

---

(1) هي أكبر جزر إيطاليا مساحة(حوالي 26 ألف كلم^2) استوطنها الفينيقيون ثم الاغريق،وأسّسوا بها مستوطنات مزدهرة. مثل سركوزا التي أصبحت من أهم أملاك إمبراطورية قرطاج. أنظر: -Larousse illustré,p.1700.

(2) -E.Albertini et autres,op.cit.,p.39.

(3) تعتبر جزيرتا مالطة و قزو أهم هذه الجزر وهما تشكلان جمهورية مالطا المستقلة عن التاج البريطاني سنة1975 أنظر:
- E.Albertini et autres,op.cit.,p.39.

(4) -G.Ch.et C.Picard,La vie quotidienne à Carthage au temps d' Hannibal(III^éme Siècle A.J.C),Hachette,Paris,1985,p.15.

(5) -M.Kaddache,op.cit.,p.45.

2- توسع قرطاج داخل بلاد المغرب:

مع تزايد السكان جراء الإستيطان في قرطاجة وغيرها من المدن البونية ،برزت الضرورة لتأمين غذاء السكان في هذه المُدن التي كانت تعتمد أساسا على القبائل الليبية المجـاورة لتتـزود بالمواد الغذائية الزراعية .

ومع تحول قرطاجة إلى وريثة لمجد صور، واصلت دفع الريع السنوي الذي بقي في ذمتها تجاه الليبيين.ولكن ألم يتحول هذا الإلتزام إلى إلزام مُهين، بالإضافة إلى كونه عبئا ثقيلا أمام أهالٍ أدخلتهم قرطاج عصر الحضارة !؟.

كان على قرطاجة أن تنتظر صدمة كبيرة لتتخلص من التزاماتهـا تجـاه الليبيين،صـدمة تجعلها تؤمن وإلى الأبد بأن الإقتصاد البحري مهما عظم فإنه مهدد بهزائم الحروب كما هو مهدد بالعواصف البحرية،وبأن الأمن الغذائي المتمثل في الزراعة،أي الإرتباط بالأرض هو الملاذ الآمن لضمان توفير الغذاء الضروري لسكانها.

إن صقلية هي النقطة الأكثر حساسية في الجوار القرطاجي الإغريقي لذا تحالفت قرطـاج مع الأتروسكيين[1] للوقوف سويا في وجه الخطر الإغريقي[2].

وبينما كان الفرس يُحَضّرُون حملتهم على بلاد الإغريق كان القرطاجيون يهيئون حملـتهم ضد إغريق صقلية.

غير أن ضخامة الجيش القرطاجي المُشكّـل أساسا من مرتزقة جُنّدوا من مختلف أصـقاع الحوض الغربي للمتوسط ،جعلته ينهزم هزيمة نكراء أمام هيميـرا(Himéra)[3]سـنة 480ق.م وكانت هذه الهزيمة من أهم الأحداث في تاريخ قرطاج[4]. ومن المؤكد أن هذه الأهمية تكمن فـي النتائج والآثار التي خلفتها هذه الهزيمة التي قلبت ميزان القوى بين القرطاجيين و الإغريـق فـي الحوض الغربي للمتوسط.

---

[1] جماعات من توسكانيا بإيطاليا الوسطى، أسّسوا مدنا عامرة وقوية وانتظموا في اتحادات. حكمهم ملوك وأوليغارشيون وأصبحوا سادة روما منذ القرن السابع قبل الميلاد ومدوا نفوذهم حتى سهل البو شمال إيطاليا. أخضعتهم روما نهائيا في القرن الثالث ق.م. أنظر: **- Larousse Illustré,op.cit. ,pp.1324-1325.**

[2] **- E.Albertini,op.cit. ,p.40.**

[3] من أكثر المدن الاغريقية في صقلية الغربية قربا من ممتلكات قرطاج، وقعت عندها المعركة التي حملت اسمها بين جيشٍ تحالف فيه جيلون طاغية سراكوزا و ثيرون طاغية أقريجنتي،ضد الجيش القرطاجي الذي كان يقوده هميلكار سنة 480 ق.م وتزامن ذلك مع هزيمة الفرس ضد الاغريق في موقعة سلامين جنوب اليونان.

للمزيد أنظر: **-G.Walter, La Destruction de Carthage,Ed.Albin Michel,Paris,1947,pp.42-44.**

[4] **-G.Ch.et C.Picard,op.cit.,p.18.**

ومن البديهي أن ينهار التحالف القرطاجي-الأتروسكي ،ولكن الإنهيار الأكبر يكمن في اهتزار الإقتصاد القرطاجي الذي يعتمد على التجارة الدولية البحرية،إنْ في الحوض الغربي الذي انتصر فيه الإغريق أو في الحوض الشرقي الذي يسيطرون عليه من ذي قبل.

لقد فقدت قرطاج أهمّ مواردها الاقتصادية،وكان عليها إيجاد حلول لإنقاذ إقتصادها المتدهور. ولم يكن من خيار أمامها سوى الإتجاه إلى البر أي الأرض وما تنتجه لضمان أمنها الغذائي.ولكن ألم تكن تلك الأرض التي وضعتها قرطاجة نصب عينيها هي ملك لؤلائك الليبيين اللذين استقبلوا أهلها وأحسنوا وفادتهم، بل وتنازلوا لهم عن مواقع استراتيجية مقابل ريع سنوي دفعته المدينة الحديثة باستمرار وطواعية منذ تأسيسها سنة 814 ق.م ؟![1].

هكذا إذن،وبعد هزيمة نكراء،وضمن سياسة ناكرة،تخلّص القرطاجيون من دفع الريع التاريخي الذي التزم به أسلافهم تجاه الليبيين،بل وافتكوا مساحات شاسعة من أراضيهم الزراعية،والأدهى من ذلك أخضعوهم لضرائب يدفعونها من منتوجهم الزراعي أي من قوتهم اليومي. ولكن هل سينسى أهل البلاد الأصليين هذا اللؤم القرطاجي؟!.

لقد بدأ القرطاجيون في تطبيق هذا الخيار،كعمل مُنَظّمْ من سنة 480إلى450 ق.م وبإصرار من أسرة الماغونيين[2] الذين استطاعوا إخضاع جزء من تونس الحالية بينما مثّل خط منكسر يربط بين تبسة و قفصة و سفاقص الحدود الجنوبية لهذا التوسع[3]وهكذا تكون قرطاجة قد بسطت سيطرتها على أجود أراضي الشمال الشرقي و التي تبلغ مساحتها حسب المعطيات المذكورة حوالي 30ألف كلم^2 [4] .

وقد وجدت قرطاجة في الفضاء الذي ضمّته فائدة أخرى تمثلت في الرجال الذين كانت دوما تعاني لاستجلابهم كمرتزقة أو حتى كعمّال مختصين،فضمنت موردا بشريا ضروريا.إذْ،ومن بين قدماء المغاربة اللذين أصبحوا رعاياهم،استطاع القرطاجيون

---

[1] لقد استمرت قرطاجة في دفع هذا الريع طوال عهدتها كقوة بحريةعظمى ومن المفارقات أنها تملصت من هذا الإلتزام بعد أن تحطم عنفوانها. أنظر: **-H.Basset,Les Influences Puniques chez Les Berbères,R.A.,n° 62,1921,O.P.U.,Alger,p.342.**

[2] إحدى أكبر أسرتين تنازعتا الحكم في قرطاج إلى جانب البرصيين، أنجبت رجال دولة وجنرالات قادوا قرطاج في أشهر حروبها.أنظر: **- S.Gsell,op.cit.,T.III,pp.1-5.**

[3] **-E.Albertini,op.cit.,p.42.**

[4] وهو ما يعادل نصف أراضي تونس الحالية . أنظر: **-H.Basset,op.cit,p.342.**

أن يجندوا منهم بسهولة أكثر مما كان الأمر يتعلق باتفاق مع القبائل المستقلة،جنودا في جيوشهم، و جذافين لأساطيلهم وعُمّالا لورشات أسلحتهم وحمّالين في أرصفة موانئهم [1].

وبالإضافة إلى أراضي الشمال الشرقي،ضمت سلطة قرطاج المستوطنات الساحلية في كل من الشمال الأوسط والغربي وكذلك الشريط الساحلي للسّرت الكبير والصغير.

لقد أخضعت قرطاجة أراضي الليبيين بالقوة العسكرية من خلال حملات مُنظّمة ولّدت ردّة فعل عند هؤلاء على شكل انتفاضات أشهرها خمسة تمردات ما بين 396 و241 ق.م [2].

وإذا كانت قرطاج قد أجبرتها ظروف هزيمتها ونتائجها بعد موقعة هميرا،أن تعرف وتقدر قيمة البـــر أي الأرض وما تنتجه من غذاء وما توفره من أمن، فهل كان لها، وهي القوة البحرية المهزومة،أن تأخذ من السكان المحليين أراضيهم بغير القوة أي عن طريق السلم، تماما كما فعـــل أسلافهم عند تأسيس قرطاجة ؟.

ألم يستقبل أجداد الليبيين مؤسسي قرطاجة وريثة صور، فأمّنوهم ووفروا لهم الأرض التي بنوا عليها مدينتهم الحديثة ؟ ألم يكن ما يهدد قرطاجة ذاتها يهدد الليبيين أنفـــسهم ؟ ألـــم ينـــصهر الإستيطان الفينيقي في بلاد المغرب بعد مئات السنين في مواطنة تـــُمْليها المصلحة المشتركة بينهم كوافدين وبين الليبيين كمحليين ؟!.

من المؤكد أنه لا قوة قرطاج ولا غطرسة قادتها،ولا الوقت كان يسمح بطرح مثـــل هـــذه الأسئلة.إن الخيار الدموي كان لقرطاج ضرورة أملتها ظروف جيوسياســـية،ولكنها كانـــت خطـــأ استراتيجيا سيُصيب قرطاج في مقتل ولو بعد عشرات السنين[3].

لقد انتفض الليبيون وورّثوا غضبهم للأجيال المتلاحقة.فلا عجب أن يتحالف ساستهم مـــع الرومان إنتقاما لرعيتهم التي ذاقت الأمرّين من القرطاجيين .

وهكذا،ومع أواخر القرن الثالث وبداية القرن الثاني قبل الميلاد،وبعد هزيمة زاما العسكرية سنة 201 ق.م،كانت الهزيمـــة الـــسياسية لقرطـــاج فـــي معاهـــدة مـــع رومـــا منعتهـــا مـــن

---

(1) -E.Albertini,op.cit.,p.42.

(2) للمزيد حول تمردات الليبيين: أنظر محمد الصغير غانم، المرجع السابق،ص ص.46-47.

(3) رغم أن قرطاج قد حكمت على نفسها بالمتاعب إلا أن ضمها لأراضي الليبيين جعل منهم مواطنين فتحت لهم أبوابها على مصرعيها. أنظر: -H.Basset,op.cit.,p.343.

خوض أي عمل عسكري خارج حدودها،ضد أصدقاء الشعب الروماني[1]،أو ستدخل في حرب ضدها والمقصود بأصدقاء الشعب الروماني هم المغاربة أو الليبيون تحت ماسينيسا[2].

وهكذا وبعد استعداء الجميع، وقفت قرطاج وحيدة ، تكبلها الهزائم والمعاهدات المخزية. ومن البديهي أن تبدأ الأراضي التي استولت عليها في الإنكماش و التآكل وهي لا تستطيع أن تحرك ساكنا. و الأدهى من كل ذلك أنْ بدأ العدّ التنازلي لمسار تاريخي كان يُمكن أن يكون أفضل و يجنّب بلاد المغرب القديم مآسٍ ستستمر لقرون عديدة بعد أن طال الدمار حضارتها الزاهرة .

هل كان للساسة الليبيين وعلى رأسهم ماسينيسا أن يستشعروا وعيهم الوطني لو لم يلمسوا غطرسة قرطاج وتعاليها؟.لذلك لم يفوّت ماسينيسا أيّة فرصة للإنقضاض على ما أخذته من أرض أجداده،مُهادنا الرومان عملا بالحكمة القائلة " عدو العدو صديق ". وبالفعل فقد ضم هذا الأخير جزءا كبيرا من المقاطعات التي تديرها قرطاجة.

ولم تكن قرطاجة ،عشية تدميرها سنة 146 ق.م، تملك أكثر من المنطقة التي احتلها الرومان آنذاك،ولكن ماسينيسا مات سنة 148 ق.م. دون أن يرى حلمه يتحقق بل الأصح أنه مات دون أن يتجرّع مرارة نهاية حُلمه[3].

من المؤكد أن الأراضي التي ضمّتها قرطاجة كانت تضمن لها الإكتفاء الذاتي من الغذاء بعد أن اقتنعت أن تجارتها البحرية الدولية يتهددها دمار الحرب .

غير أن السؤال الأهم الذي يفرض نفسه هو:هل استطاعت الزراعة عند البونيين أن تكون في نفس ازدهار ِالنواحي الأخرى للحضارة البونية ؟! هذا ما تتأتّى معرفته بدون شك من خلال تسليط الضوء على ما وصَلنا من تراث بوني شاءت مصلحة الرومان وحدها أن تجنّبه مصير دمار قرطاجة وهو مُؤلَّف ماغون في الزراعة .

ثانيا: ماغون القرطاجي،عصره وكتابه

---

(1) -S.Gsell,op.cit.,T.III,p.314.

(2) أعظم ملوك نوميديا التي وحّدها بعد تحالفه مع الرومان ضد الملك سيفاكس الذي تحالف مع قرطاج. وإذا كان بعض المؤرخين يردّ سبب الخلاف بين الملكين النوميديين إلى غيرة مسينيسا من سيفاكس الذي تزوج بسوفونسبة القرطاجية التي كان يحبها، لكن الحقيقة أن جوهر الخلاف يعود إلى رؤية كل من الرجلين وطموحه السياسي.
للمزيد حول أصول مسينيسا وشخصيته وسياسته أنظر: -Polybe,Histoire,XXXVI,16.traduction D.Roussel ,Gallimard.Paris,1970.

(3) قرر مجلس الشيوخ الروماني إحتلال قرطاج ثم تدميرها تدميرا كاملا وفي ذلك حكم بالإعدام على المشروع الوحدوي لمسينيسا لأن روما ما كانت تسعى لتدمير قرطاج لتسمح ببروز قوة بديلة لها تنافسها في تحقيق مخططها لبسط نفوذها على حوض البحر المتوسط ومنه بلاد المغرب لتضمن القوت لأبنائها لقرون عديدة.
أنظر: -M .Gaid,Les Bérbers dans L'Histoire,TI,Ed .,Mimouni,Alger,1990,p.101 .

إذا كانت المصادر التاريخية قد أوردت أدقّ التفاصيل عن تدمير قرطاجة فإنهـا أهملـت حضارتها الزاهرة،حتى أن أحد المؤرخين اعترف" بأننا نعرف جيّدا كيف انتهت قرطاجة،ولكننا لا نعرف كيف عاشت"[1]ذلك أنّ مُدمّريها أحرقوا كل الشواهد التي زخرت بها مكتباتها، ما عدا مـا شاءت مصلحتهم وحدها أن تجنّبه مصير المحرقة.وقد تمثل ذلك في كتاب ماغون الـذي ضـمن لحضارة قرطاج إنصافا تاريخيا إعترف به القدماء وأكّده المحدثون إذ مثّل بالنـسبة إلـيهم "أروع وأذكى الغنائم"[2]التي سلبوها من قرطاجة قبل أن يجعلوها أثرا بعد عين.فمن هو ماغون؟ ومـاهو مؤلّفُه؟ وماهي محتوياته؟ وما هي قيمتها في مجال التخصص؟ وما أثر هذا المُؤلّف في إثراء عالم الزراعة في عصره وما تلاه من عصور؟

1- شخصية ماغون وعصره :

إن مسألة التحقيق في شخـصية مـاغون[3] تبـدو صـعبة نظـرا ً لتطـابق الأسـماء أو تشابهها على الأقل،فخلال القرون: الخامس والرابع والثالث قبل الميلاد،حفل التاريخ القرطاجي برجال دولة وجنرالات بهذا الإسم[4]، أشهرهم شقيق حنبعـل الـذي قـضى فـي البحـر سـنة 203ق.م،ومن هذا المنطلق قد يكون بلين الكبير على حق حين وصفه بالجنرال الميـداني، كمـا يمكن أن يكون جنرالاً متقاعدا[5]غير أنه من المستبعد أن يكون كذلك نظرا لأن أغلب قادة الجيش القرطاجي قد قضوا إمّا في ساحات القتال أو أعدموا لهزيمة أو تقصير في واجبهم،وتبقى مـسألة انتمـاء مـاغون لـسلك العـسكرية أساسـا يـدعو إلـى القـول أن الـصفة الأكاديمية والعلمية لماغون،مع إتقانه اللغة الإغريقية[6]،تنفي عنه الصفة العسكرية،بل وتؤكد أنـه عالم يمتلك تجربة عميقة في المجال الريفي البوني،تجربة لا تتأتـّى إلا بطول مِراسٍ وتفرغ تام ودراسـة ميدانيـة متأنيـة ومعاشـرة دائمـة لعـالم الريـف،إذ أن

العمل الفلاحي كان محل شغف عند القرطاجيين،كما كانت المنتوجات الزراعية تشكّل مبدأ الثروة

---

(1) -E.F.Gautier,op.cit.,p.41.

(2) -J.Heurgon,l'Agronome Magon et ses Traducteurs grecs et latins,C.R.A.I.,3éme trimestre,1976,p.445.

(3) ورد تعريفه في القاموس اللاتيني بأنه " قرطاجي ألّف 28 كتابا في الزراعة " وذلك دون ذكره كمصدر لكتابات العلماء اللاتين والإغريق الذين اقتبسوا منه جُلّ تعاليمه في تأريخهم للزراعة من أمثال فارون،كوليمال،بالديوس وبلين الكبير وغيرهم.

أنظر: -F.Gaffiot,Dictionnaire Latin-Français,Hachette,Paris,2001,p.442.

(4) -G.Ch.et C.Picard,op.cit.,p.88.

(5) -Ibid.

(6) -J.Heurgon,op.cit.,p.422.

الخاصة للكثيرين منهم [1] خاصة بعد الانقلاب الاقتصادي الذي أحدثته هزيمة هيميـــرا فأصـــبح الإقتصاد الفلاحي من زرع وضرع، يُمثّل واحدة من أنبل المهن عندهم[2].

وفي القرون الوسطى أشار " إبن العوام "[3]الإشبيلي في مؤلفه "كتاب الفلاحة (Libro de Agricultura) إلى إسم " أنـــّـون" وهو إسم ذو نبرة بونية مقاربة لإسم (حانون) ولكـــن هـــذا الإسم " أنّـــون " لم يرد في أي من المصادر القديمة لذلك يستحيل اعتماد أصـــله البـــوني .ففـــي المصادر الكتابية وإلى جانب ماغون لم يرد أي إسم آخر لكُتّابٍ عن الزراعة باللغة البونية ماعـــدا إسم همِلكار حسب ما أورده كوليمال [4].

أما ستيفان قزال فقد ذكر جنرالين اثنين في صقلية بنفس الإسم (ماغون)،أحدهما في بداية القرن الخامس قبل الميلاد و الثاني في منتصفه بالإضافة إلى أميرال عاش بين (219-278 ق.م) وهو ملازم في الجيش و أخ لِـــ:حنبعل وماغون [5].

و لا يمكننا أن نفهم ماغون ومُؤلَّفه دون أن نحاول إلقاء نظرة ولو تقريبية عن العصر الذي عاش فيه .فإذا كان هذا الأخير يبدو جامعا يعود له الفضل في تحصيل معارف متفرقـــة حـــسب مارآه فارون (Varron)[6]،فهل يكون قد عاش في فترة الحروب البونية نظرا لتعرّضه لأعمـــال الاختصاصين الإغريق وفي ذلك ما يشير إلى حقبة التأثير الهلـــّـيني في الفضاء القرطاجي؟[7].

---

(1) - Polybe,op.cit.,I,29.

(2) -F.Lacroix,Afrique ancienne,Procédés agricoles,R.A.,N°14,1970,p.13.

(3) هو أبو زكريا يحيى بن العوام الاشبيلي(1145-1175م) ألف كتاب الفلاحة الذي الذي يعتبر أهم كتاب عربي في التخصّص. جاء فيه 34 فصلا قدّمت وصفا دقيقا لـــ 585 نوعا من النبات منها 55 من الأشجار المثمرة. ولا تزال معاهد الفلاحة الفرنسية تبدأ برامجها بدراسة كتاب الفلاحة لابن العوام.
للمزيد أنظر: محمد الأمين بالغيث، الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين،أطروحة لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ الاسلامي، إشراف عبد الحميد حاجيات، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية،جامعة الجزائر،2001-2002،ص ص. 546-547.

(4) –Columelle,XII,4,2,dans M.Nisard,Les Agronomes Latins:Caton,Varron,Columelle et Palladius,Ed,. Firmin-Didot,Paris,1887.

(5) -S.Gsell,op.cit.,T.III,p.314.

(6) -R.Martin,Recherches sur Les Agronomes latins et leurs conceptions économiques et sociales,Ed.Les Belles lettres,Paris,1971,p.144.

(7) -G.Ch.et C.Picard,op.cit.,p.88.

لكن ومع أن ماغون كان يُتقن اليونانية التي كانت منتشرة في قرطاجة،ومع احتمال أنه إستعمل مؤلفات إغريقية إلا أن تعاليمه تنطبق على إفريقيا،ولكنه مع ذلك لم يُهمل الزراعات الأجنبية عن بلاده[1].

من الطبيعي أنه،ومنذ الإتجاه القرطاجي للزراعة بدءًا من القرن الخامس قبل الميلاد يمكن القول أن التجربة تراكمت عند البونيين مع توفر كل العوامل المساعدة: خصوبة التربة وتوفر المياه،واليد العاملة و الإستقرار،وإن نغّصته بعض التمردات والحروب لفترات متقطعة. بهذا يكون ماغون قد كتب مؤلفه استنادا إلى هذه التجربة الواسعة ويكون القرن الثالث والذي صادف بداية الحروب الرومانية- القرطاجية، هي الفترة التي نضجت فيها تجارب البونيين في كل ما يتعلق بالزراعة وعالم الريف .

ورغم أن كاتون الأكبر[2]قد كتب مؤلفه في الزراعة والذي صادف تأليفه القرن الثالث قبل الميلاد والذي كتبه باللّغة اللاتينية طبعا،إلا أن مجلس الشيوخ وقبل تدمير قرطاج كان له الموقف المعروف والذي أورده بلين الكبير تجاه مؤلف ماغون المكتوب باللغة البونية،ومفاده أن مجلس الشيوخ وبعد أن أهدى مكتبات قرطاجة للأمراء الأفارقة قرّر بصفة استثنائية الإحتفاظ بمؤلف ماغون الذي كتبه في28 مجلدا ، ليُترجَم إلى اللاتينية[3].

إن أهم ما في هذه الشهادة هو الإقرار بأن كتاب ماغون أختير عن وعي وقصد دون غيره ليُترجَم إلى اللغة اللاتينية ،غير أن مسألة إهداء بقية الكتب إلى الأمراء الأفارقة تدعو إلى التساؤل عن مصير هذه الكتب التي لم يصلنا منها شيء يُطلعنا على مظاهرالفكر البوني.

ألم تلقى الكتب الأخرى نفس المصير التعيس الذي لقيته حاضرة البونيين الزاهرة من تدمير وحرق وإبادة ؟ ألا يدعو ذلك إلى التساؤل عن إمكانية تَستّر بلين الكبير عن همجية مدمري قرطاجة ومحاولة تبييض وجه روما ومجلس شيوخها الآمر بتدميرها، بل محوها من البسيطة[1] ؟! .

---

(1) -S.Gsell,op.cit.,TIV,p.8.

(2) هو Marcus Porcuis Cato(234-149 ق.م) وُلد بتسكيلوم (Tesculum) وهي مدينة فرسكاتي حاليا، قرب روما،عاش متقشّفا واهتم بالزراعة. كان عدوّا للثقافة اليونانية. تدرّج في المسؤوليات من مراقب مالي، إلى قاضٍ، إلى حاكم شرعي، إلى قنصل، إلا جابٍ، أرسلته روما كحكم بين النوميد والقرطاجيين سنة 157 ق.م وهناك بهرته أرياف قرطاج واقتنع بأن ازدهارها يشكل أكبر خطر على الرومان فأصبح ينهي كل خطبه بمقولته الشهيرة " فالتُدمّر قرطاج" وأسهم بذلك في إشعال الحرب الرومانية القرطاجية الثالثة التي اندلعت سنة وفاته. ألّف كتابا في الزراعة وآخر في تاريخ روما . أنظر:
- Encyclopédie Encarta ,2005.

(3) -Pline l'ancien,Histoire Naturelle,XXIII,22,Ed,.Les Belles Lettres,Paris, 1950.

(1) إن من أنجبوا ماغون الذي ألّف كتابه في الزراعة في 28 مجلّدا أنجبوا غيره بدون شك إلا أن الاحتلال الروماني أخذ ما يهمّه وأحرق الباقي، ولم تكن المكتبات بمعزل عن ذلك، ولنا في تقرير رحلة حانون سنة 425 ق.م دليلا على غزارة الكتابة

هل من المعقول أن يترك البونيون كتابا في الزراعة بأهمية كتاب ماغون،علما بأن الزراعة هي نشاط اهتموا به في فترة متأخرة من تاريخهم،ولا يتركون بالمقابل مؤلفات في مجالات أخرى أتقنوها منذ بداية تاريخهم،بل جاءت معهم من موطنهم الأصلي مثل الملاحة والتجارة وما يترتب عنهما من ملاحظات في أدب الرحلة،وعلم الجغرافيا، وكلها أدبيات ارتبطت بما أتقنهُ البونيون بامتياز،دون أن نتطرق إلى المجالات الفكرية من مسرح وفلسفة و شعر ؟!. ومن المؤكد أن البحث وحده مع مقارنة كتب الأقدمين ومقارنة كل ذلك بالمصادر المادية كفيل بأن يؤكد هذا الطرح أو ينفيه [2].

إن هذه التساؤلات منطقية بالإضافة إلى كونها مشروعة لأن الأمر يتعلق بتاريخ وحضارة من ابتدعوا حروف الأبجدية وعلّمُوها غيرهم من الشعوب الرائدة في صرح الحضارة الإنسانية .

كان ماغون حسب كوليمال (Columelle)هو مبتدع علم الزراعة تماما مثلما كان سقراط (Socrate) [3]أبا للفلسفة في رأي شيشرون (Ciceron)[4]ويؤكد فارون (Varron) في معرض حديثه عن علماء الزراعة بقوله:"إن الأكثر شهرة منهم جميعا ماغون قرطاجة

الذي يكتب باللغة البونية [1]".

عند البونيين وشغفهم بالتدوين حتى أنهم نقشوا نصّ الرحلة على البرونز. فهل كان كاتبها قد حدس مصير قرطاج فخلّد الوثيقة على المعدن؟!........ للإطلاع على رحلة حانون أنظر: أحمد توفيق المدني، قرطاجنة في أربعة عصور، من عصر الحجارة إلى الفتح الاسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986،ص ص. 38-40.

[2] إن هذا التساؤل يطرح مسألة شمولية الدمار وبربرية المدمرين إذ أن التدمير لم يقض على مجرّد عاصمة فقط وإنما حاول تدمير مدنية بأسرها .

[3] فيلسوف يوناني(470-399 ق.م) هو ابن النحات سفرونيكوس. لم يُدرّس بصفة نظامية كما أنه لم يكتب كتابا واحدا تتمثل طريقته في محاورة محدّثيه ليكتشفوا حقيقة تناقضاتهم بأنفسهم،جلب له تأثيره على الشباب الأرستقراطي وكراهيته لنظام الطغاة أن اتهم بالزندقة فأجبر على تجرّع نقيع نبتة الشّوكَران السّامة. وقد عرّف بشخصيته وفلسفته كل من أفلطون في المحادثات وأرسطو فان في السحب وقزينو فون في المأثورات.

أنظر: - Larousse illustré,op.cit.,p.1705.

[4] هو ماركوس تولليوس شيشرو(Marcus Tullius Cicero) (106-143 ق.م) ، سياسي وخطيب روماني ولد بأربينيوم، مارس السياسة والمحاماة منذ سنة 80 ق.م، تحولّ بين رجال السياسة وأحبط مناورة كاتالينا (Conjuration de Catalina) وانتهى مُغتالا من أنطونيوس. أوصل فن الخطابة إلى أوجه وترك مؤلفات في الخطابة والفلسفة أهمها المراسلة. أنظر:-

- Larousse,op.cit.,p.125.

[1] -Varron, De L'Agriculture,I,1,10.

إنّ هذه الشهادة التي أكدها اثنان من علماء الزراعة اللاتين تبرهن على ما أبدعه الفكر البوني في مجال يأتي من حيث الأهمية في المرتبة الثالثة بعد الملاحة و التجارة .فهل يُعقل أن يؤلف البونيون في الزراعة و يهملوا أنشطة هُم روّادها في العالم القديم ؟!.

إن نص رحلة حانون الإستكشافية و المسجلة على نقيشة برونزية في معبد بعل حمون بقرطاج دليل على أن البونيين أدركوا قيمة التدوين مبكرا فكتبوا تفاصيل هذه الرحلة في نقيشة لم تطلها نار مُدمّري قرطاج .

ما من شك إذن،في أن أحفاد الفينيقيين قد أبدعوا في عدة مجالات فكرية ولكن مصلحة الرومان شاءت أن يُستثنى مؤلف ماغون دون غيره، بينما أتت النار و الدمار على مالا نعلمه من عصارة الفكر البوني في المحرقة التي نفذها الجيش الروماني.أكثر من ذلك، شاءت إستراتيجيتهم أن يترجم مؤلف ماغون إلى اللغة اللاتينية للإستفادة من الخبرات التي تخص أراضي قرطاج التي وضعها المخطط الإستعماري الروماني نصب أعينه. لقد اقتنع الرومان أنه ليس هناك دليل يكون أفضل عونٍ للمستوطنين الرومان في إفريقيا لاستغلال أراضيها أثمن من التعاليم التي تضمّنها كتاب ماغون.رغم أن خبرة الإغريق الذين استوطنوا جزرهم كانت أقرب لهم من خبرة القرطاجيين.

ورغم انبهار الرومان بمؤلف ماغون وترجمته إلى اللغة اللاتينية إلا أن الإغريق إسترعى انتباههم كذلك فترجموه إلى اليونانية.أليس في هذا التهافت على ترجمة كتاب ماغون من قِبل الرومان و الإغريق ما يؤكد الأهمية القصوى لهذا الكتاب ؟!.

لقد كانت تعليمات ماغون تأسيسا في عالم الزراعة،لهذا كان دليلا ومثالا للمؤلفين الإغريق واللاتين "وهكذا جاء الإزدهار من إفريقيا فيما يخصّ الإرشاد المبدئي الذي اكتسبته روما من مهزوميها في الساحل الجنوبي للمتوسط، فنهلت منه عوامل إتقان جديدة،فعلّمت ليبيا القديمة لِغُزاتِها أساليب جعلت أراضيهم أكثر إنتاجا قبل أن تُغدِق عليهم هي نفسها بكنوز خصوبتها " [2].

2- ترجمة مؤلف ماغون وتأثيره:

أ- <u>الترجمة اللاتينية</u>: بقرار من مجلس الشيوخ الروماني سنة 146ق.م، وبعد تدمير قرطاجة تمّت ترجمة الأجزاء الثمانية والعشرين لمؤلف ماغون " في الزراعة " من خلال لجنة

---

(2) **-F.Lacroix,op.cit.,p.17.**

برز على رأسها ديسيموس سيلانوس (Dicimus Silanus) [1]،ولكن هذه الترجمة لم تحقق انتشار تعاليم ماغون الزراعية ولعل ذلك يعود إلى الترجمة الإغريقية التي تجاوزتها نظرا لتقارب الترجمتين زمانا،وكذلك نظرا لخبرة الإغريق الأوسع في الزراعة والترجمة على حد سواء.

ب- أما الترجمة الاغريقية : فتعود إلى سنة88 ق.م وقام بها كاسيوس ديونوسوس الأوتيكي (Cassius Dionyssus) [2] وقد اُختزلت في عشرين كتابا بإضافات إغريقية. علما بأنه، ليس من السهل التفريق بينها وبين ما اقتبسه ماغون من العلماء الإغريق،حتى أن هناك تطابقا بين مقاطع من كتاب ماغون وبعض ما كتبه تيوفراست(Théophraste)[3]، فهل أخذ ماغون فعلا عن تيوفراست،أم أن هذه الإقتباسات هي إضافات لكتاب ماغون من طرف ديونيسوس؟.إنّ المُهم من ذلك هو أن الترجمة الإغريقية هي التي نشرت تعاليم ماغون في الزراعة، غير أنها دفعت آخرين لاختزالها وتلخيصها،فكانت الترجمة الإغريقية المختصرة لـ: ديوفان دي نيسي (Diophane de Niceé) في ستة أجزاء ثم أُختزلت في كتابين فقط من طرف المعلم الفيلسوف بروما، بوليون دي طرال(Pollion de Tralles) [4]، في منتصف القرن الأول قبل الميلاد.[5]وهكذا ومن خلال هذه الترجمات والتلاخيص استطاع الشارحون أخذ تعاليم ماغون في الزراعة،ولكن ذلك لم يكن ليخلو من نقائص

و إخلالات تعود إلى طبيعة الترجمة و التلخيص أساسا،وهذا ما غمط النص الأصلي حقه،بل واشتهر على حسابه كُتّابٌ ما كانوا ليشتهروا لو لم يترجموه ويلخصوه.

ج- إشعاع كتاب ماغون: من خلال كل ذلك انتشر كتاب ماغون، بل الأصح، انتشرت تعاليمه وأصبحت مصدرا لمجموعة من الكُتاب الرومان تأثروا بها" فـتَبَوْتَنَتْ " كتاباتهم " من خلال "رَوْمنتِهِمْ" لكتاب ماغون ،وأضحى هؤلاء وُسطاء لنشر هذا الكتاب الذي فرض نفسه بين

---

(1) -R.Martin,op.cit.,p.44.

(2) مؤرخ وسياسي إغريقي وُلد في نيسيا ببثينيا،عمل على عهد الأباطرة الرومان من أمثال سبتيم سيفار،عُين قنصل لمرتين.كتب تاريخ الرومان في28 مجلدا باليونانية وقد يكون مترجم ماغون إلى لغته علما أن الترجمة اللاتينية قد ضاعت. أنظر:- F.Lacroix,op.cit.,p.10.

(3) هو تيرتام المدعو تيوفراست وُلد في إيريز بجزيرة ليسبوس،درس عن أفلاطون والتقىأرسطو الذي سماه تيوفراست وتعني" المُتحدّث الجيّد،خلف أستاذه على مدرسته لمدّة 36 سنةحتىوفاته.هوكاتب موسوعي ألّف 200 كتابا منها "تاريخ النباتات" في (9 مجلدات) و"أسباب النباتات" في(6 مجلدات). أنظر:.-Encyclopédie Encarta ,2005

(4) هو Asinus Pollio(76 ق.م-5 ب.م)، رجل دولة وكاتب روماني، وُلد بروما وكان صديقا مُحاميا للشاعرين فرجيل وهوراس،ترك كتبا في الخطابة و التاريخ. أنظر: -Larausse illustré,op.cit.,p.1137.

(5) -S.Gsell,op.cit.,p.8.

الرومان وأثرى المكتبة اللاتينية سواء في الفترة المعاصرة والقريبة من ترجمته،أو في مَن تـلَوْه من علماء الزراعة،بل وتواصل تأثيره حتى في العصور الوسطى. لقد طبع ماغون الذي كانت موسوعته من أوائل كتب الزراعة،طبع ببصمته الدائمة كل علماء الزراعة في كل الأمم والأوطان..حتى ولو أن مُؤلفه ضاع،فإن العشرات من تعليماته (70 تقريبا) تعطي فكرة كاملة عن سِعة معارفه والمظهر العلمي لملاحظاته وتجاربه،وهذا ما يُظهر كذلك درجة تطور الزراعة بقرطاج. لقد كرّر علماء الزراعة أنفسهم، وأخذوا من ماغون، ولخّص بعضهم الآخر وتجدّد ماغون في كل واحد منه،م فكانت روح مُؤلفه الأول تخترق القرون واللغات والحدود والقارات والمعتقدات.إنّ ماغون حي حاضر في عشرات الصفحات لفارون و كوليمال و بالاديوس اللاتينيين،وكذلك عبر علماء الزراعة الإغريق و البيزنطيين وفي كل ما كتب علماء الزراعة العرب وعلى الخصوص إبن العوام[1]:

- <u>ماركوس ترنتيوس فارون</u>:(Marcus Trentius Varron)[2]:

(116- 27 ق.م)هو عالم موسوعي روماني ترك ثلاثة كتب في الإقتصاد الفلاحي:في الزراعة،و تربية الحيوانات،والاعتناء بحيوانات الضيعة.وقد أعطى فارون،لماغون كما أسلفنا مكان الصدارة باعتباره الأشهر على الإطلاق ضمن العلماء الزراعيين.وأهم ما قدّمه فارون هو نقل مبادئ ماغون حول عُمّال الأرض وتربية الحيوانات.

- <u>موديراتوس كوليمال</u>: (Moduratus Columelle):(القرن الأول الميلادي)

إشتهر كوليمال[1] بالإضافة إلى صفته كمؤرخ،بالكتابة في الزراعة مقتبسا من ماغون من خلال مؤلفين اثنين هما:(Rustica) في الزراعة،و(De arboribus) في العناية بالأشجار.

---

[1] **-A.Gelloul,Magon,Columelle et Ibn-El-Awam,permanance de connaissances pratiques agricoles en Méditerranée,Colloque de Faculté de Sc.Humaines de Tunis(9 Avril)Decembre 1995 .**

[2] **وُلد فارون بمدينة ريات وانحاز إلى جانب بومبي في حربه ضد يوليوس قيصر(49-48 ق.م)، ولكن بعد وفاة الأول غفر له الثاني وعيّنه على رأس المكتبة العمومية الجديدة بروما،كتب 74 مُؤلّفًا تضمّنت 620 كتابا شملت عدّة مجالات منها ثلاثة مجلدات في الإقتصاد الريفي.أنظر: -Encyclopédie Encarta, 2005.**

[1] **لم يُعط كوليمال نفس المكانة التي أعطيت لفارون في دوائر المعارف و القواميس. التي اكتفت بأن عرّفته ككاتب لاتيني عاش في القرن الأول للميلاد وكتب مؤلّفا في الزراعة.**

أنظر: -Larousse illustré,op.cit.,p.1260. و -Encyclopédie Universelle,V.1,Paris,1980,p.510.

ففي كتابه الأول أورد كيفية صناعة النبيذ البوني الشهير،وكذلك خبرة ماغون في تربية الحيوانات و البيطرة وجودة الأصناف المربّاة في الريف البوني. وفي كتابه الثاني نقـل كوليمـال تقنيـات ماغون في غراسة أهم الأشجار وهي الزيتون والكروم.ومن كتاباته المثيرة نصه في وصف البقرة البونية لما بلغته من شهرة في عالم المتوسط آنذاك.

- بلين الكبير Pline l'Ancien (23-79 م) هو أحد علماء الطبيعة إضافة إلى امتهانـه المحاماة وكتابة التاريخ.أهم أعماله تاريخه الطبيعي (Histoires Naturelles) في 37 مجلدا وقد مـات مختنقـا وهـو يحـاول مراقبـة بركـان فيـزوف الـذي دمّـر مـدينتي بومبـاي و هركيلانوم بإيطاليا في ثورته سنة 79 م.كان يُعطي للأحداث تفسيرا بدلالات علمية فقد ربـط اشتداد حريق قرطاج مثلا بالقطران (سريع الإشتعال) الذي كانت تطلى به أسقف المدينة[2]. واهتم بعدّة مواضيع زراعية وذكر مُترجمي ماغون ومختصريه،ولكنه في كتابه الثالث والعشرين يعـود مباشرة إلى ماغون نفسه،وتطرّق خاصة إلى إجراءات غراسة الكروم والزيتون وكذا إجـراءات التأبير والتّقليم، كما تحدث عن أهمية الشّمع البوني الذي يستخدم حتى في صناعة الأدوية.

ولم يقتصر إشعاع مؤلـف مـاغون علـى العـصر القـديم بـل تعـداه إلـى العـصر الوسيط ويظهر ذلك من خلال التراجم أو المختصرات التي خضع لهـا مـن طـرف الإغريـق والرومـان،أومن خـلال الاقتباسـات التـي جعلـت منـه مـصدرا رئيـسًا للعديـد مـن المـؤلفين.فعـن مؤلـف جـامع يُعـرف "بالجيوبونيكـا"(Géoponiques) [1].

---

[2] يجب التمييز بين بلين الكبير (Pline L'ancien) عالم الطبيعيات والمؤرخ، وبين حفيده بلين الصغير(Pline Le jeune) الذي هو كاتب وُلد بكوم (Côme) (62-104 م) وكان صديقا لتراجان الذي كتب عنه وعن عادات عصره.
أنظر: -Larousse illustré,op.cit.,p.1609.

[1] مُصنّف إغريقي جامع للمؤلفات المتعلقة بالزراعة في العصر القديم جمعه كاسينوس باسُّوس(Cassianus Bassus) خلال القرن السادس للميلاد أورد فيه معلومات كثيرة عن تعليمات ماغون القرطاجي،لكن هذا المُصنّف ضاع ولم تبقى من آثاره سوى نسخة بيزنطية تعود إلى القرن العاشر للميلاد. وقد تساءل بعض المؤرخين عن إمكانية اقتباس المؤلفين العرب في الزراعة منها.أنظر: -S.Gsell,op.cit.,pp.5-7.
- أما الموسوعة البريطانية فقد عرّفت الجيوبونيكا بأنها تشمل مؤلفات الأوروبيين حول الرعي و الزراعة وصنفتها إلى: مصنفات الإغريق ومترجماتهم، ومصنفات الرومان ومترجماتهم كذلك، وأخيرا مصنفات البيزنطيين ومترجماتهم و التي جُمعت للأمبراطور قسطنطين السابع حوالي سنة 950 م. وما يميّز هذه المصنفات جميعها ورود تعاليم ماغون أو بعضها فيها. - للمزيد أنظر موسوعة:
-Encyclopedia Britannica,1911.: الموقع الإلكتروني www.wikipedia.org .

يُورد ستيفان قزال:" توجد أشياء كثيرة يمكن أن تعود إلى ماغون ويمكن التأكيد بدون شك أن هذه التعاليم قد وصلت العرب عن طريق الجيوبونيكا وعن طريق مؤلفات إغريقيــة تُرجمــت إلـــى السريانية أو الفارسية أو العربية[2] أما بالنسبة للمكتبة العربية فقد ألف أبو زكريا يحيى الإشــبيلي المعروف بابن العوام كتابه "في الفلاحة" وذكر فيه: " فإني قرأت كتــب المــسلمين الأندلــسيين وغيرهم من القدماء المقدمين صفحة الفلاحة ..نقلت من عيونها إلى هذا التأليف"[3]،ثمّ ذكر إبــن العوام،أنون وبارون و كاسينوس[4] وهؤلاء جميعا وإن طرأ التحريف على أسمائهم فهم علمــاء ألّــفوا في الزراعة ولكنه لم يذكر ماغون بصفة مباشرة .

إن قيمة ماغون تكمن في أنه فرض مؤلَّفَـــهُ كمصدر أساسي لعلم، كــان حتـــى عهــدِهِ، مجهولا فهو الذي وضع بتطبيقاته وتعاليمه علما قائمــا بذاتــه أصــبح يُعــرف بعلــم الزراعــة (Agronomie) [5].

ورغم أن الموسوعة العالمية (Encyclopédia Universalis) لم تذكر إسم ماغون إلـــى جانب ذكر أسماء من أخذوا عنه و اعترفوا به كمصدر مثل فارون وكوليمال عند التعرض إلـــى مادة (Agronomie)، إلا أن هذا العالم كان بالنسبة للزراعة مبدأ علمها ويمكن أن نــدعوه (أبــا الزراعة) عن جدارة،تماما مثلما دُعي سقراط (أبا الفلسفة) وهيرودوت (أبا التــاريخ).ألــم يــذكر فارون أن أهم مصادره من علماء الزراعة الأكثر شهرة حتى ممّــن كتبــوا بالإغريقيــة،ماغون القرطاجي الذي يكتب باللغة البونية ؟[6].

وبحساب التواصل الحضاري كان كتاب ماغون بالنسبة إلى العالم القديم الــذي يتمحــور أساسا حول البحر المتوسط،سفيرا بين حضارات الشعوب بغضّ النظــر عــن اخــتلاف اللغــة والجنس و المعتقد بينها .ألم يكن ماغون إذا مبشّرا بما يجب أن يكون "روح المتوسط" ؟[1].

ثالثا: الملكية الزراعية واليد العاملة:

---

(2) -Ibid,p.7.

(3) إبن العوام أبو زكريا يحيا الاشبيلي،في الزراعة مع ترجمة إسبانية لي: دون جوزيف أنطونيو بكيري،مدريد،1802 ،ص.2.

(4) نفسه، ص ص. 61-62.

(5) -Encyclopédie Universelle,op.cit., p.510.

(6) -S.Gsell,op.cit.,p.7.

(1) -M.H.Fantar,Carthage Punique,La Cité,C.N.R.S,Paris,1995,p.58.

إن المتمعن في تصميم قرطاجة سيَنْتَبِه بدون شك إلى وجود حي كبير يشمل أحواز المدينة بالإضافة إلى حي بيرصا مركز السياسة والعبادة وحي الميناء الحربي والتجاري،هذا الحي الثالث هو حي ميغارا الذي يلف المدينة من جهة الشمال.إن هذا الحي الذي تلتصق فيه المنازل بالحدائق و الحقول، هو بمثابة عمق إستراتيجي للمدينة المحصنة إذا ما حُوصرت من جهة البر وهذا لا يمنع السكان من العمل في حقولهم فلا تُصاب المدينة بالخصاصة[2].

إن هذه الملكيات تدخل دون شك ضمن حدود أملاك مدينة قرطاجة التي منحها الليبيون لمؤسسيها مقابل ريع سنوي. ولكن كيف كانت ملكية الأراضي التي كانت قرطاج قد ضمتها إلى سلطتها بعد أن تخلصت من دفع التزاماتها المالية للمحليين ؟من كان سيُشغّل هذه الملكيات الواسعة؟و هل كان العمال إجراء أم عبيدا ؟و كيف كان السكن الريفي؟.

1- ملكية الأرض و السكن الريفي: إذا كان من الثابت أن الأراضي التي احتلها الرومان أصبحت ملكا للشعب الروماني فإن القول بأن ذلك ينطبق عن قرطاجة لا يمكن الجزم فيه .ومع أن الأراضي التي ضمتها شملت الجزء الشمالي للتل الأعلى والوادي السفلي لمجردة والوطن القبلي والجزء الجنوبي من سهل الساحل كما حددها بيكار[3].إلا أن المصادر الأدبية لم تُشِر إلى كيفية تنظيم الملكية وإدارتها في هذه الرقعة الهامة من بلاد المغرب القديم .فهل يمكن القول أن الرومان اتبعوا التقسيمات الموجودة عند البونيين بعد تدمير قرطاج ؟ هل أن كلمة Pagus[4] والتي تعني المقاطعة الريفية عند الرومان لها مدلول في أدبيات قرطاج ؟ لقد تحدث أرسطو في كتابه (السياسة) عن مواطنين قرطاجيين ينتمون

إلى الطبقات الشعبية تقلّدوا مهام مربحة عند الرعيّة[1] " إن في مقولة أرسطو هذه على الأقل إشارة إلى نوع من التنظيم الإداري أو المالي كنتيجة للتوسع القرطاجي في المجال الليبي.

إن التوجه البوني للفلاحة أفرز بدون شك أرستقراطية جديدة أو على الأقل أرستقراطية غيّرت نشاطها من التجارة إلى الزراعة،وهذا ما نلمسه في وجود ضيعات واسعة إمتلكها كبار مُلاّكٍ،من رجال الدولة كالقادة العسكريين والسياسيين .وهذه المزارع الكبيرة لم تكن بدون شك تحت الرعاية المباشرة لمُلاّكِها إنما كانت تتوفر على مُتَعَهّدِين وجُباة وعمال سهروا على كل

---

[2] محمد فنطر، المرجع السابق،ص.22.

[3] -G.Ch.et C.Picard,op.cit.,p.99.

[4] تعني المقاطعة عند الجرمان والغاليين، إذ تُقسّم البلاد إلى مجموعة باقيس على رأس كل منها مساعد للملك.

أنظر: -F.Gaffiot,op.cit.,p. 521.و - Encyclopédie Encarta ,2005 .

[1] -Aristote,La Politique,II,11(note et index de J.Tricot),Lib.philosophique,Paris,1970,p.157

الأعمال المتعلقة بها. مثل مزرعة حنبعل التي لجأ إليها سنة 195 ق.م.ويقول بعض العلماء أنهـا تقع قرب مدينة المهدية حاليا [2]ويؤيد هذا المنحى محمد الصغيرغانم الـذي يقـول:"لقـد كانـت المزارع الواسعة من حق الأغنياء والأرستقراطيين الذين كـانوا يوجهـون الـسلطة الـسياسية والإقتصادية في مدينة قرطاجة "[3].

غير أن مدى سعة هذه المزارع يمكن الإختلاف فيه لأن ما ملكـه القرطـاجيون يقـارب مزارع الرومان الواسعة "Latifundia"[4] والتي استحدثوها بعد احتلال بـلاد المغرب،ولكنهـا كانت أقرب إلى الملكية النموذجية لكاطون أي ملكية صغيرة مـن الكـروم بخمـسة وعـشرين هكتارا،وستين هكتارا من الزيتون،وثلاثين من العبيد بعضهم عُمّال أحرار[5].

ولعل هذا الحجم هو الذي أوصى به ماغون وأضحى مـثلا عنـد البـونيين مـن أنـه: " يجب أن تكون الأرض أضعف من الفلاح لأنه وفي حالة صراع معها و تهزمه فإنه سيتحطم " وقد أيّد قزال هذا الرأي قائلا:" فالنبلاء يجنون من هذه الملكيات مداخيل معتبرة جدا ولكنها بعيـدة عن الأرباح الطائلة التي يمكن أن تمدّها التجارة وتربية الحيوانات الممارسة كأنشطة كبـرى.لقـد كان الأمر يتعلق في الضيعات بمواردها المتنوعة وليس بملكيات واسعة أحادية المردود...ولـسنا ندري إذا كانت الدولة هي التي تتعهد بعض الأراضي بصفة مباشرة،باستخدام يد عاملة من الرقيق .ولكن ذلك لا يبدو محتملا لأنها تعفي نفسها من المتاعب الإدارية من جهة.ومن جهة أخرى،فـإن

الأرستقراطية لا تعدم الوسيلة لتحويل الأملاك العمومية إلى أملاك خاصة عند الحاجة[1].

إن هذا الإستنتاج يدفع بالقول أن قرطاج التي عاشت تحـولات عميقـة نتيجـة الوضـع الجيوسياسي في غرب البحر المتوسط وما نتج عنه من توسـع فـي المجـال الإفريقـي ومـن حروب،وثورات و تمردات،ونقص في الرجال المحاربين،كل هذا جعلها تصرف النظر عن وضع نُظُمٍ لتسيير الأملاك الزراعية فتركتها في يد النبلاء من كبار قادتها.هذا دون أن نهمل ذكر صغار

[2] تقع على ساحل البحر المتوسط،بنى عليها الفاطميون عاصمتهم في العصر الإسلامي.

[3] محمد الصغير غانم، التوسع الفنيقي في غربي البحر المتوسط، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر،1992،ص. 110.

[4] ملكيات زراعية رومانية واسعة، وعكسها Minifundia والمصطلحان لا يزالان في قاموس الملكيات الزراعية في أمريكا اللاتينية خلال القرن 19 ميلادي. أنظر: -F.Gaffiot,op.cit.,p.418.

[5] -J.Heurgon,op.cit.,p.445.

[1] -S.Gsell,op.cit.,p.48.

الفلاحين من الليبيين الذين طبّقوا زراعة معاشية أمّنت لهم قوت عيالهم وضمنت لهم ما يحـــرّرهم من التزام ثقيل يدفع عيْنيا لجُباة قرطاج [2].

ومادامت الأرستقراطية البونية هي التي طبعـــت الريـــف البـــوني بأملاكهـــا،فكيف كـــان الأرستقراطيون يتعاملون مع أملاكهم...هل كانوا يقطنون المدينة أم أنهـــم ســـكنوا إلـــى جـــوار ممتلكاتهم أو فيها ؟

لم تكن توصيات ماغون التي وصلتنا تتحدث عن الزراعة فقط، بل تعدتها إلى الحديث عن الملكية الزراعية والسكن الريفي ،فعارض ماغون امتلاك المواطنين للأراضي الزراعية وإهمالهم العناية بها،وطلب ممّن يزاول مهنة الزراعة أن يتفرغ لها فأوصى من يشتري أرضا زراعية أن يبيع بيته في المدينة، حتى لا تبقى لديه تلك الرغبة التي تدفعه إلى عبادة آلهة منزله في المدينة بدلا من عبادة آلهة الريف،والمرءُ الذي يجد متعة أكبر في مقره بالمدينة ليس بحاجة لامتلاك أراض في الريف[3]إن أهمية هذه النصيحة هي تحقيق النجاعة في استغلال الأملاك الزراعية.ولنا في ضيعة "قمّرت(Ghammart)[4] "تتويجا لتعليمات ماغون الذي يبدو كأنه مواطن يعشق حياة الريف بعمق لا ينطبق إلاّ على الفزيوقراطيين(Physiocrates)الذين يعتبرون أن الزراعة هي المنبع الوحيد للإقتصاد.

وقد وافق كوليمال رأي ماغون،فقد أكد أنه: " إذا لم يراقب سيد الأرض الأشغال فسيحدث ما سيقع عند غيابه عن جيشه: سيهمل كل شيء،ولا أحد يقوم بواجبه[1].

إن هذا المفهوم يتعارض بدون شك مع دور الأرستقراطية السياسي و التجاري الذي يتطلب العيش في المدينة،ونظرا لهذا الواقع فإن السكن الريفي يعتبر سكنًا للضيعة فـــي الـــضاحية التـــي اختارها صاحبها ،فكان هذا البناء على علاقة بتواجد فصلي أو دوري لصاحب الضيعة.وقد اقترح

---

[2] -Ibid,p.40.

[3] -Columelle,op.cit.,1,1.

[4] **حي في أحواز قرطاج على ساحل البحر. تقع شمال شرق العاصمة التونسية ولا تزال موطنا لحدائق غنّاء كم أنها من أرقى الأحياء السياحية بتونس.**

[1] **-M.Fantar,A Ghammarth avant la conquête romaine,in B.A.C,Fasc.17,1981**.

كوليمال حلا يكون الأمثل " بتوفر ملكية ريفية تكون قريبة تسمح بالذهاب إليها كــل عــشية،مهما كانت المشاغل بعد أن تنتهي الأعمال" [2].

ومن الضيعات البونية القليلة التي رأت النور بعد عمليات التنقيب ســنة 1976 م ضــيعة قسنطينة و ضيعة قمّرْت. (أنظر الشكل رقم 6،الصورة د ،ص125).

و تتميز ضيعة قمرت عن ضيعة قسنطينة بموقعها بالنسبة إلى المدينــة وبحالــة لواحقهــا المحفوظة. والبناية على شكل مخطط مزدوج يحتوي قطاعان يفصلهما رواق. والقطاعان يختلفان في الوظيفة بحسب مكوناتهما.

هل يمكننا أن نسلــّم أن بناية " قمّرت " هي واحدة من تلك السكنات الريفية التــي تملكهــا البرجوازية في ضاحية قرطاج ؟" [3]،ورغم رأي ماغون في التخلي عن سكن المدينة فــي حالــة امتلاك أراض فلاحية ،إلا أن السادة يقطنون سكناتهم الريفية على الأقل لبعض الوقت من السنة[4].

ومما سبق نستنتج أن الريف المغاربي القديم كان ينبض بالحياة والنشاط الذي أهّــله لدخول مدوّنة الإقتصاد البوني بما كان يزخر به من منتوجات متنوعة و وفيرة،ما كانت لتكون لولا توجّه بعض أصحاب الثروة لهذا النشاط الذي أمْــلته مصلحة الوطن.

2 - اليد العاملة الزراعية : لا يمكن الحديث عن الزراعة وخاصة عن الإنتاج الزراعــي دون التطرّق إلى موضوع اليد العاملة الزراعية،فهل كان العمال في الريف عبيدا ؟ أم كانوا أجراء أحرارا ؟ .لقد كــان العبيــد فــي الريــف كثيــرين وكــان الإعتنــاء بهــم لا يكلّــف كثيــرا وهم غير معنيين بالخدمة العسكرية [1]،ومع ذلك كان من الضروري مراقبتهم عن قرب. و قد أسهب كاسيوس ديونيسوس الإغريقي السالف الذكر وأحد مترجمي ومختــصري مــاغون، فــي وصف خصال رؤساء العبيد كأن تكون لهم دراية بالمعــارف الزراعية،وطبيعــة لا تميــل إلــى

(2) -Columelle,op.cit., I,1.

(3) -A.Berthier.Un Habitat Punique à Constantine,Antiquités Africaines N°XVI,1980,p.31.

(4) -S.Gsell,op.cit.,p.46.

(1) -Ibid,p.45.

العنف،مع شحذ هممهم بمعاملتهم بنوع من التقدير ومنحهم حوافز، مع العمل على تزويجهم لبنـــاء أسَر[2]، وهذا ما يزيد ارتباطهم بالأرض بدون شك .

وقد تكون الأشغال الكبرى المرتبطة بالمواسم كالجني والحصاد مــدعاةً لتوظيــف عُمّــال أحرار مقابل أجر معلوم مثلما هو الحال اليوم في المغرب الأقصى و منطقة القبائــل بــالجزائر، وهذه اليد العاملة يمكن أن يُؤتى بها من بلاد بعيدة خارجة حتى عن نفوذ القرطاجيين[3].

وإذا كان مصدر العبيد من اليد العاملة غير مؤكّد فإن استجلابهم إلى قرطاجة والأراضي التابعة لها لم يكن بالأمر العسير خاصة أن سوق الرّق كانت رائجة وكذلك كانت عمليات الــسبي في الحروب توفر موردا هاما للعبيد.وقد استطاع ريقولوس "Regulus"[4]من خلال حملته علـــى الرأس الطيب[5] سنة 265 ق.م، أن يغنم أزيد من عشرين ألفاً من العبيد بعد أن عاث جنوده سَلبًا و نهبا في ممتلكات القرطاجيين.

و إذ كـــان هــــذا الــرقــم يــبــدو كــبــيــرا فــإن مقــارنــتــه مــع عدد

السكان الإجمالي المقدر بخمسمائة ألف نسمة يجعله مقبولا[1].

أما خارج ممتلكات قرطاج فإن الليبيين يتعهدون أرضهم ويعملون فيها بأنفــسهم محــاولين إنتاج ما يكفي معيشتهم وما يغطي التزاماتهم العينية الثقيلة تجاه المدينة وما يُتــرك لهــم لــشراء مستلزمات لا يستطيعون إنتاجها بأنفسهم[2].

ومن خلال كل ذلك فإنه يمكن القول أن القرطاجيين ورغم ما استولوا عليــه مــن أراضٍ خصبة على حساب المغاربة إلا أنهم أبقوا على سياســة اســتنزاف منتوجــات الأهــالي لتــأمين

---

(2) -Ibid,noteN°5.

(3) - Ibid,pp.47-48.

(4) هو ماركوس أكتيليوس(Marcus Actilius) (ت.250 ق.م)، قائد عسكري روماني، يعتبره الرومان شهيدا وطنيا.قاد الأسطول الروماني في الحرب الأولى ضد قرطاج وهزم أسطولها.هاجم القوات البرية القرطاجية في إفريقيا قبل أن يهزمه القرطاجيون ويأسِروه سنة 250 ق.م. أوفده القرطاجيون للتفاوض مع الرومان وتعهّد لهم بالعودة إلى قرطاج في حال فشل سفارته وفي روما ألحّ على الرومان بعدم قبول شروط قرطاج وعاد إليها كما وعد وهناك عُذّب حتى الموت. أنظر: :
-Encyclopédie Encarta, 2005 .

(5) هي شبه جزيرة الوطن القبلي بتونس، بها نزل الاغريقي أغاتو كليس في نهاية القرن الرابع ق.م بقواته التي أبهرتها المزارع المنظّمة للكروم و الزياتين والمواشي. وبعدها بخمسين سنة نزلت القوات الرومانية في جزئها الجنوبي الشرقي عند مدينة قليبية(Clupéa)أين صادفت المنازل الريفية الفاخرة وغنمت آلاف الرؤوس من الماشية.
أنظر: - G.Walter,op.cit.,p.183.

(1) -S.E.TlatlIi,Le Carthage punique,Etude urbaine,Paris,1978,p.117.

(2) -S.Gsell,op.cit.,pp.48-49.

حاجة مستوطناتهم من الغذاء حيث لا مجال لأن يبيع الأهالي فائض إنتاجهم في السوق المحلية كما أنه لا مجال لتصديره إلى الخارج لأنه لم يكن بالكميات التي تسمح بذلك[3].

ومن كل ما سبق من تعاليم ميدانية خلّدها ماغون في كتابه كخلاصة لتجارب أجداده الفينيقيين وآبائه البونيين،إضافة إلى ما أمكن جمعه من تراث و لُقىً شيءً لها أن تتبَعِث من جحيم المحرقة التي أعدّها ونفذها الرومان ضدّ قرطاجة مع سبق الإصرار ،من كل ذلك يمكننا الإطلاع على الإنتاج الزراعي الذي اكتسبه البونيون و استجلبوه من أرض أجدادهم فينيقيا، أو ذلك الذي وجدوه وطوّروه محلّيا، فما هي أهم هذه المنتوجات الزراعية يا ترى ؟

إن مسألة التواجد الفينيقي في بلاد المغرب لا تزال تطرح عدّة تساؤلات عن مدى التأثير البوني في المجتمع المغاربي القديم في شتّى المجالات، وفي الجانب الزراعي سنتمكّن من تتبّع بعض جوانب هذا التأثير سواءٌ تعلّق الأمر بدراسة إحداثيات الزارعة عند البونيين أو عند النوميديين الذين كانوا، إلى جانب الجوار،قد ورثوا الأراضي الواسعة التي طبعها البونيون ببصمتهم الواضحة [4].

رابعا:الإنتاج الزراعي:

من خلال استعراض ماغون وكتابه في الزراعة يمكن أن نربط تطور الانتاج الزراعي البوني بتطور العلوم الزراعية.لأن الزراعة عند البونيين تجاوزت الأساليب المعروفة والمتوارثة، وتعدتها إلى البحث و التجارب التي أكّدتها تعاليم ماغون بأن ظهر علم الزراعة (Agronomie) .

ولعل النظرة الشاملة لكل ما يحيط أو يشير أو ما له علاقة بالإنتاج الزراعي، من تغيرات مناخية وطبيعية للتربة وتطور وانتشار للنوع النباتي والحيواني، وحتى علم اللسانيات (Linguistique) التي احتفظت ببعض المُسمّيَات الأصيلة لبعض النباتات، بالإضافة إلى علاقة

---

(3) -Ibid.

(4) للمزيد حول التأثيرات البونية الزراعية في بلاد المغرب القديم. أنظر: -H.Basset,op.cit.,pp.344-349.

المعتقدات الدينية ببعض أصناف الإنتاج الزراعي، كل ذلك يجعل الإقتراب من موضوع الإنتاج الزراعي أكثر دقة ومصداقية.

لقد صنّفت الشواهد القديمة الأراضي الزراعية التابعة لقرطاج كممتلكات تخصّصت في تربية الحيوانات و غراسة الأشجار المثمرة المتنوعة. و في مشاهدات أغاتوكليس وجنوده في الوطن القبلي، ما يشير إلى ذلك حيث أن المنطقة كانت تزخر بالكروم و الزياتين والأشجار المثمرة الأخرى [1] .

وقد يعود تفسير ذلك إلى أن النبلاء أرادوا احتكار إنتاج الأشجار المثمرة والحيوانات بعد أن سيطروا على السلطة في قرطاجة [2]. ولعل السكان المحليين استجابوا لهذا الإحتكار فاتجهوا لإنتاج الحبوب لسرعة الربح فيها من ناحية ،باعتبارها محاصيل سنوية لا يتطلب إنتاجها السنين مثل الأشجار المثمرة حتى تأتي أكلها،ومن ناحية ثانية ،أنهم لا يملكون رؤوس أموال كثيرة تساعدهم على هذا النوع من النشاط.ومع ذلك تبقى الحبوب هي أهم المنتوجات الزراعية باعتبار قيمتها الغذائية وقابليتها للتخزين كمؤونة دائمة تظهر الحاجة الملحة إليها خاصة عند الحروب وبالأخص أثناء الحصار[3].

1-الإنتاج النباتي:

أ- الحبوب: تعود النصوص التي تحدّثت عن الليبيين آكلي القمح في مدينة ميغازة إلى هيكاتي دي ميلي، في القرن السادس قبل الميلاد وأكّد هيرودوت ذلك في القرن الخامس ذاكرا قبائل غرب تريتون التي تنطبق على جنوب شرق تونس [1].

وكانت زراعة القمح والشعير من اختصاص الليبيين ولم يمارسها القرطاجيون إلا نادرا ونلمس ذلك في مُؤلف ماغون الذي لم يتحدث إلاّ لمامًا عن الحبوب ويتعلق الأمر بكيفية درس الحبوب وانتقاء ثيران الحرث [2] .

---

[1] - Diodore de Sicile,Bibliothèque historique XX,8,4.Traduit par A.F.Miot,Paris,1934.

[2] -S.Gsell,op.cit.,p.20.

[3] أورد قزال عن تيمي (Timé) أن جمهورية قرطاج قطعت كل الاشجار المثمرة في سردينيا وهدّدت بالموت من يعاود غراستها. فهل أرادت قرطاج بذلك جعل مستعمراتها مطمورة للحبوب لتحتكر لنفسها الاشجار المثمرة؟.
أنظر: -Ibid.

[1] هي قبائل الماكسيس و الزويس و الجيزانت. أنظر : -Hérodotem, IV,191-193.

لكن غياب التعليمات حول الحبوب لا يجب أن يُفسّر بميل القرطاجيين عن زراعتها لصالح الأشجار المُثمرة،بل أن الأمر قد يعني ضياع أو إهمال ما يتعلق بهذه الزراعة الحيوية بالنسبة إلى السكان في السلم والحرب على حدٍّ سواء ،والدليل على ذلك تواجد صور السنابل في النقائش و العملات البونية(شكل رقم 6 ، الصور ج ، ص125).

لقد زرع الليبيون الحبوب في كل مكان أمكن أن تُزرع فيه عند الممتلكات القرطاجية، وأفضل المناطق هي منطقة البيزاسيوم (Bisacium) حول ساحل حضرموتHadrumète (سوسة قديما) و أمبوريا Emporia من ساحل خليج السرت الكبير حتى السّرت الصغير (خليج قابس) [3].

منذ القرن الخامس قبل الميلاد إعتمدت قرطاجة على القمح المغاربي،فقد أرسل هملكار(Hamilcar)[4] في طلب القمح من إفريقيا بينما كان يقود جيشا كبيرا في صقلية[5].

بعد فقدانها لصقلية وسردينيا في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد،اعتمدت قرطاج أكثر فأكثر على قمح ممتلكاتها الإفريقية لتعويض ما كانت تفرضه على مزارعي الجزيرتين،لذلك أخضعت المُزارعين الليبيين لدفع ضريبة من منتوجهم لتأمين غذاء سكان المدينة بما يتناسب مع حجم إنتاجهم للحبوب سنويا [1] .

إن للقمح مكانة كبيرة في التاريخ العسكري قديما،وذلك بحضوره في مختلف الحملات العسكرية كعامل أساسي في الإتفاقيات والمساومات.ولم تشذ قرطاج عن هذه القاعدة ففي سنة

---

(2) -Pline l'ancien,op.cit.,XVIII,98.

(3) إن المواطن المعروفة حاليا بزراعة الحبوب هي سهول ماطرو باجة و مجردة و السهول العليا لتونس الوسطى.

- أنظر: -S.Gsell,op.cit.,p.11.

(4) قائد قرطاجي عُرف بهملكار برقة،قمع ثورة المرتزقة (240-237 ق.م) وغزا إسبانيا بين (237-229 ق.م) أين جهّز جيشا سيكون سندا لابنه حنبعل في حربه ضدّ روما.

-أنظر: : -Encyclopédie Encarta, 2005 .

(5) -Diodore de Sicil ,op.cit.,XI,20,4.

(1) -S.Gsell,op.cit.,p.10.

306 ق.م مَنحـــت قرطـــاج للقائـــد أغاثوكـــل(Agathocle) 200 ألـــف مـــدين مـــن القمـــح (أكثر من 100 ألف هيكتولتر) [2].

وخلال ثورتهم،فرض المرتزقة على حكومة قرطاج أن تدفع لهم، بالإضافة إلى الجياد التي خسروها،ثمن القمح الذي كان لهم في ذمتها منذ مدّة طويلة،و بأغلى الأثمان التـــي بلغهـــا أثنـــاء الحرب[3].

أما عن الجانب الروماني فقد طلب سيبيون (Scipion) من القرطاجيين الذين طالبوا بالسلم سنة 203 ق.م،مقدار 500 ألف صاع من القمح (43770هكتولتر) و300 ألف صاع من الشعير. وكانت هذه الكميات موجهة لتغذية جيشه [4].

إن استعراض هذه الأرقام له دلالة أساسية بدون شك،عن دور الحبوب الـــرئيس وخاصـــة القمح، في بقاء قرطاج،التي حُجِّمت إلى مجالها الإفريقي،صامدة في وجه أعدائها في الخارج بـــل وحتى في وجودها محلياً.

أمّا عن مردودية الأرض فإنها تتراوح بين 100و150حبة للـــبذرة الواحـــــدة في شـــمال البيزاسيوم [5]. بينما أورد بلين ما يُشبه الطفرة النباتية،من أن نبتة قمح واحـــدة ذات 400 ســـاق أرسلت إلى الإمبراطور قيصر،ونبتة أخرى ذات 360 ساق أرسلت إلى نيرون[6].

أما في جنوب البيزاسيوم وفي أمبوريا فإن المردود أقل بكثير وخاصة بالنسبة إلى القمـــح الذي لا يتحمل الجفاف مثل الشعير.

أما عن عملية الحرث، فنظرا لتذبذب المناخ وعدم انتظـــام التـــساقط، فإنهـــا وإن كانـــت ضرورية في كل الحالات ،إلا أنها كانت تختلف بين الأرض المروية والجافة." فـــالثيران القويـــة تستطيع بالكاد شقّ أرض البيزاسيوم الخصبة إذا كانت جافة،ولكن تكفيها سكّة محـــراث يجرّهـــا حمار ليشُقّها بعد هطول المطر" [1] .

---

(2) -Diodore,op.cit.,XX,79,5.

(3) -Polybe,op.cit.,I,68,5.

(4) - S.Gsell,op.cit.,note n°1,p.11.

(5) -Varron,De l'Agriculture,I,10.

(6) -Pline,op.cit.,VIII,12,21.

(1) -Ibid,XVIII,21.

من هذا المشهد البدائي لعملية الحرث يُمكننا الحديث عن آلات الحرث القرطاجية التي هي عبارة عن محراث بسيط يتشكل من قصبة طويلة ومُنحنية موصُولة ومتلائمة مع ذراع يحمل في قمته مقبضا بزاوية قائمة وفي جزءه السفلي توجد السّكة[2].

ومن المؤكد أن خبرة الفينيقيين المتراكمة من الشرق جعلت أحفادهم يُطوّرن آلات الحــرث والدرس.ولعل أهم ما أبدعوه أو طوّرُوه ،تلك الآلة المعروفة بعربة الدرس البونية (Plastellum poenicum) التي كانت تستعمل في إسبانيا وفي مناطق أخرى[3] وتتــشكل مــن ألواح خشبية وعجلات صغيرة مُسنّنة يصعد السائق عليها ليُوجّه الحيوانات المقرونة إليها(شــكل رقم 6 الصورة ب،ص 125)ويبدو أن القرطاجيين أدخلوها إلى إسبانيا ،ولا تــزال هــذه الآلــة مُستعملة في أرياف الساحل التونسي لدرس الشعير[4].

وكانت الحبوب تُخزّن في أوانٍ كتلك الجرار الضخمة التي عُثر على نمــاذج منهــا فــي الأندلسيات قرب وهران[5] وتخُص هذه الطريقة بدون شك المناطق الرطبة خلافا لطريقة التخزين في المطامير والتي توجد عادة في المناطق الأكثر جفافا و التي أشار إليها سالوست فــي حــرب يوغورطة [6].

ب- الأشجار المثمرة: تعتبر زراعة الأشجار المثمرة أهم ما حوته الأراضي التي ضــمّتها قرطاجة. وقد ورثها البونيون عن أجدادهم الفينيقيين الذين تعاطوها منذ القدم.ولا يــزال الــشمال التونسي،من سهول بنزرت إلى مجردة غربا حتى الرأس الطيب إلى سوسة شرقا،مجالا لزراعــة أشجار الفواكه المتنوعة وقد عبر عنها ديودور الصقلي في وصفه للريف القرطاجي إبــان حملــة أغاثوكليس (أنظر الملحق رقم 02 .)

- الكُروم: الكروم من الأشجار الأصيلة في بلاد المغرب القديم، وقد أورد هيرودوت كمــا أسلفنا أن جزيرة كيرونيس (قرقنة) شــهدت ازدهــارا فــي زراعتها،ولكنهــا أقــدم مــن ذلــك

---

(2) **-M.Hours Miedan,Les représentations figurées sur Les Stèles des Carthage,in Cahiers de Byrsa,1951,p.66.**

-كان المحراث البدائي بسيطا تشكّل من جذع شجرة صغيرة بها جزء بارز ومُدبّب في ثلثي مسافة طولها من أجل الحرث. ولما كان هذا الجزء يَبْلى بسرعة أضيف إليه جزء منفصل من أصلب أنواع الخشب.وقد شكّل استعمال المحراث انقلابا في تقسيم العمل بين الرجل والمرأة حيث أصبحت الحراثة من مسؤولية الرجال مما دفع بالانتاج إلى الارتفاع بينما تراجع دورالمرأة للاهتمام بالبيت وما حوله. للمزيد أنظر:رالف لينتون،المرجع السابق ص ص.235-238.

(3) **-Varron,op.cit.,I,52.**

(4) **تُعرف بالجاروشة في تونس** **-F.Lacroix,op.cit.,p.346.**

(5) **-G.Vueillemot,Reconnaissances,aux échelles puniques d'Oranie,Ed.Autaun,Paris, 1967, p.301 .**

(6) **-Salluste, Jugurtha, LXV,1.**

إذ وُجدت الكروم البرية في ليبيا منذ أزمنـــة ســحيقة وعُرفــت بالكرمـــة المجنونـــة،كما عثــر الجيولوجيون على آثارها في طبقات الزمن الرابع [1] .

وإذا كان قدماء المغاربة قد عرفوا الأعناب فإن البونيين هم الذين أدخلوا كُــلّ ما يتعلق بفن الحدائق من تقنيات أسلافهم الفينيقيين كالتلقيم والـــتأبير والزّبر،فصنعوا في إفريقيا الخمر والزيت كما صنعوهما في موطنهم،ولكن أكبر جهدهم انصب في زراعة الكروم التي كانوا أول من أدخلها إلى إفريقيا[2].

غير أن ديودور يُرجع زراعتها إلى نهاية القرن الخامس ق.م،مع اعترافــه بـــأن الكـــروم تُغطّي نصف البساتين البونية[3]،وقد وردت الكروم في نصّه الوصفي للرأس الطيب،كمـــا نقـــشه البونيون في نُصبهم(الشكل6 ،الصورة ج،ص.125).

ولقد انتشرت زراعة الكروم في الشمال كما في الجنوب وخاصة منطقة تاكاب (قابس) التي انبهر بلين الأكبر بإنتاجها قائلا:" إن الأمر الأكثر غرابة هو أن الكُروم تغُلّ مرّتين ويُصنع منهـــا النّبيذ مرتين في السنة " [4].

إن أهم الأدلة عن اهتمام البونيين بالكروم، تلك التقنيات التي تضمنتها تعليمات مـــاغون أو من أخذوا أو كتبوا عنه. فذكر كوليمال أن ماغون يُوصي بتوجيـــه أشـــجار العنـــب نحـــــــــو

الشمال عند غراستها لأنها تكون أكثر خصوبة رغـــم أن خمرهـــا لا يكـــون عـــالي الجـــودة . وتنطبق هذه التوصية عن أملاك قرطاجة،حيث أن عامل الارتفاع وتوجيه الأشجار نحو الـــشمال يُعدّلان من حدّة الحَرْ [1] .

كما يُوصي بوضع بعض الحجارة في الحفر قبل غراسة الشجيرات لحماية الجذور من مياه الشتاء وحرارة الصيف مع دفن نصف ساق الشجرة فقط،حتى تتجه جذورها إلى الأسفل،ثم تُـــدفن

---

(1) -M.H.Fantar,le vigne et le vin à l'époque carthaginoise, revue Afriqua,volume V.n°X, Institut nationale de patrimoine,Tunis,1997,p.41.

(2) -G.Ch.Picard,op.cit.,p.89.

(3) -Diodore de Sicile ,op-cit., XII 81,5.

(4) -Pline,op.cit.,XVIII,20.

(1) -ColumelleIII,12,5.

الحفرة شيئا فشيئا خلال السنتين المواليتين[2]،ثم يواصل ماغون من خلال كوليمال وصاياه حـــول تقنيات تخصيب التربة بـــِثـــَـفــَـــلِ العنب (ما يتبقى من العنب بعد عصره وتصفيته) وفضلات الحيوانات،كما أوصى بتعليمات للإعتناء بأشجار الكروم حتى تستقيم كالأشجار الأخرى،رغـــم أن بلين يرى أن الكروم الزاحفة كانت الأكثر انتشارا في البلاد ويبلغ العنقود الواحد من ثمارها حجم جسم الطفل الصغير[3].

أما بالنسبة إلى التشذيب والزبر فقد فضّل ماغون أن يكون في فصل الربيع قبـــل أن تبـــدأ الأشجار في التّبرعم لسهولة قطع الأغصان المُشَذّبة[4]غير أن كوليمال خالفه الـــرأي ناصـــحا أن يكون التشذيب في بلاد الشمس ذات الشتاء المعتدل،أي بلاد المغرب، في فصل الخريـــف.ولكـــن هناك من نصح بتأخير هذه العملية إلى فصل الشتاء [5] .

أما معالجة أمراض الكُروم فقد أعدّ لها ماغون وصفات أسَاسُها البول والرماد،وهي كيفيـــة تتلاءم مع معطيات الكيمياء الزراعية[6].أما عن صناعة النبيذ فقد أعطى ماغون كيفيـــة أوردهـــا كوليمال ولا يزال بعض المغاربة يستعملون طريقة مشابهة لتحضير الخمور[7].

أما عن استهلاك الخمور،فإن القرطاجيين،وإن كانوا يشتهونها،ولكنهم لا يصلون إلـــى حـــدِّ السُّكْـــر[8].

وقد أورد الفيلسوف أفلاطون (Platon)فـــي كتابـــه الـــشرائع(lois)أن مجلـــس الـــشيوخ القرطاجي شرّع ترتيبات تتعلّق بالخمور وتعاطيها في المجتمع القرطاجي وقـــد جـــاء فـــي هـــذا التشريع:"أنّ الخمر ممنوعة عن الجنود،والعبيـــد ذكـــورهم وإنـــاثهم،وعن القـــضاة أثنـــاء ســـنة تكليفهم،وعن الحُكّام أثناء تأدية خدمتهم،وعن كُلّ من يُشارك في اتخاذ قرار خطير.وهي ممنوعـــة

---

(2) **-Ibid,III,15,4.et V,5,4.**
(3) **- Pline XIV,13-14.**
(4) **-ColumelleIV,10,1.**
(5) **- S.Gsell,op.cit.,p.21.**
(6) **- ColumelleXII,39,1-2.**
(7) **-S.Gsell,op.cit.,p.25.**
(8) **- M.H.Fantar,op.cit.,p.48.**

ليلا حتى عن الرجـــل وزوجتـــه قبـــل المعاشـــرة،وفي النهـــار يُـــسمح بهـــا كمنـــشط أو دواء لا غير"[1] .

من المؤكد أن هذا التشريع إذا كان قد طُبّق في قرطاج،فإنه كان قد شكل استثناءا لأنه مـــن المستحيل منع الخمور عن الجيوش،بل وحتى عموم الناس من تعاطيها في ذلك الوقت[2].

لكن المفارقة أن النبيذ كان محل استيراد بالنسبة إلى القرطاجيين إذ كانوا يجلبونه من بعض جُزر المتوسط مثل نبيذ مدينة أغريجنت بصقلية. وقد يكون دافع الإستيراد هو أن ما يصنعونه من نبيذ لا يكفيهم،أو ربما كانت جودته دون المستوى، ويشهد على ذلك وجود حطام لعدّة جرار مـــن النبيذ يعود أصلها إلى جزيرة رُودس،في ذلك الوقت [3].

- الزيتون: علمنا أن الزيتون كان جزءا من المشهد الزراعي في بلاد المغرب القديم.فقـــد تحدّث هيرودوت كما أسلفنا عن الزراعة الجافة بين بحيرة تريتون(خليج قابس) وجزيرة كيرونيس (قرقنة) التي تعُجّ بالزياتين والكروم بما يوحي أنها زراعة موغلة في القدم قد تكون متوارثة عـــن أقوام حلّوا من الشرق قبل حلول مؤسّسي قرطاج أنفسهم.

أما عن انتشار زراعة الزيتون فقد أورد أورليوس فيكتور (Aurelius Victor) أن حنبعل هو الذي ملأ الجزء الأكبر من إفريقيا(تونس حاليا) بأشجار الزيتون من طرف جنوده الذين كـــان يخشى عليهم ،خطورة الفراغ والركون إلى الراحة،وذلك بمنطقة البيزاسيوم في الأشهر التي مرّت بـــين عودتـــه إلـــى إفريقيـــا وبدايـــة عملياتـــه العـــسكرية ضـــد سيبيون،بينما كان في حضرموت(سوسة) مقر قيادة أركانه [1].

وقد نمت هذه الأشجار وأثمرت وأصبحت المنطقة من أهم مراكز صناعة الزيت بعد أكثر من قرن ونصف من الزمن [2] .

---

(1) -Platon,Lois,p.674,ApudGsell,op.cit.,p.26.

(2) عُرف نظام منع الخمور(Prohibision) بين 1919-1932 وذلك بعد انتشار البؤس والجريمة في الولايات المتحدة الأمريكية،حتى أعلن تعاطيها كارثة وطنية وحُرمت صناعتها وتجارتها ولكنها نشطت في الخفاء كما دلّ عليه ارتفاع زراعة الذرة التي تدخل في صناعة خمر الويسكي. ولم تمثل الكميات التي صادرتها سلطات المنع أكثر من 5% من الخمور التي تم تصنيعها سرًا أنذاك . - أنظر: -Encyclopédie Encarta,op.cit.

(3) -S.Gsell,op.cit.,p.27.

(1) -Ibid.

(2) -S.Gsell,op.cit.,p.28.

وعن تقنيات غراسة الزيتون يوصي ماغون بأن تتم بين الإعتدال الخريفي والانقلاب الصيفي،في المنحدرات والأراضي الجافة. أما في الأراضي الخصبة والمروية فقد أوصى أن تكون الغراسة من موسم الحصاد حتى الإنقلاب الشتوي.ويرى بلين أن ماغون أعطى هذه التعليمات للغراسة في بلاد المغرب [3]،وذلك خلافا لإيطاليا التي تتم الغراسة فيها في فصل الربيع [4] .

وعن المسافة بين الأشجار أوصى ماغون بأن يكون الفاصل بينها 75 قدما (22.20 مترا) في كل الاتجاهات و45 قدما (13.32 مترا) في الأرض الضعيفة والصلبة والمعرّضة للرياح،وهذه الأبعاد ليست مُبَالغةً،ففي منطقة سفاقص تتباعد أشجار الزيتون فيما بينها 24 متر [5] .

أما عن مردود الزيتون،فقد أورد بلين،مُلقيا المسؤولية عن مخبريه،أنه توجد أشجار للزيتون تسمى الألفية (Millénaires) بحسب وزن الزيت الذي تنتجه سنويا[6] ،ونعتقد أن بلين على حق عندما شكّك في هذا الرقم،اللّهُم أن تكون الكمية المذكورة هي وزن الزيتون وليس الزيت المُنتج [7]، كما قد تكون وحدة القياس أقل ممّا نعرف.

أما عن تحويل الزيتون فيقول قزال أننا لا نتوفر على معلومات لصناعته،غير أن كاتون أشار إلى ما سمّاه(Punicanis Coagmentis)القرص الخشبي الذي يضغط الإناء الحامل للزيتون[8] لأجل عصره، ويتعلق الأمر هنا بطريقة للضبط وللضغط مأخوذة عن

القرطاجيين الذين كانوا نجارين مهرة .

أما التقنية الأكثر تقدما في عصر الزيتون فتتمثل في معصرتي قمَّرتْ بضواحي قرطاج ،وسيرتا (قسنطينة) وتتميز الأولى عن الثانية بقربها من قرطاج و بسلامة منشآتها إلى اليوم.

وهي عبارة عن جناحين لبناية واحدة يفصل بينهما رواق. و يختلف الجناحان في الوظيفة بحسب مكوناتهما:

---

(3) **-Pline,XVII,128.**

(4) **-S.Gsell,op.cit.,p.28.**

(5) **-Ibid,p.29.**

(6) **-Pline,XVII,93.**

(7) **تنتج الشجرة في منطقة سفاقص حوالي 90 لترا ومن النادر أن تصل إلى 200 لتر.**
-S.Gsell,op.cit.,note n°4,p.29.

(8) **-Caton,De l'agriculture,XVIII,9.**

- فالجناح الشرقي يوحي بفرضية وجود معصرة للزيتون من خلال ثقالة وأحواض وبراميل وُجدت هناك .

- أما الجناح الغربي فيبدو أنه كان مخصّصا للسكن حيث يقطن المالك أو متعهّد الضيعة ويحتوي على 3 غرف وبئر وحمّام . أنظر: (أنظرالشكل 6 ،الصورة د،ص.125.).

- التين: كان التين البري معروفا في بلاد المغرب القديم غير أنه لم يكن صالحا للإستهلاك، ولعل الفينيقيين هم الذين أدخلوا أصنافا جيدة نظرا لمعرفتهم العريقة به، كما يكونون قد أدخلوا تقنية التأبير[1] التي نقلها الليبيون عنهم منذ القدم [2].

لقد اشتهر تين الممتلكات البونية وأشاد به كاتون الذي لم يجد مبرّرا أفضل من التين الافريقي (Figus africana) الذي قطفه من قرطاجة لكي ينتزع من مجلس شيوخ روما قرارا بتدمير عاصمة البونيين[3] وقد ذكره في كتابه وأوصى بزراعته في أرض خصبة أو مُخصّبة [4]،أما بلين فقد تحدّث عن صنف آخر أُدخل لاحقا إلى إفريقيا وقال أنه المفضّل لديه من بين كل الأصناف الأخرى [5].

- الرّمان: أطلق الرومان إسم مالا بونيكا(Mala punica)على فاكهة الرمان والصفة البونية هذه تدل على الرّمان القرطاجي الشهير ولا تدل على اللون الأحمر[6].

وهذا ما أكّدته كتابات المؤرخين مثل بلين الذي أعاد التفاح البوني (الرّمان) إلى بلاد المغرب القديم كما تؤكّده تسميته وهو يُنتج حول مدينة قرطاجة [1].

أما كوليمال فقد قدّم عدّة كيفيات لحفظ الرمان من الجفاف و التلف حتى يستهلك نـَظِرًا بعد انتهاء موسمه (أنظر الملحق رقم 3).

---

[1] التأبير(Caprification) هو تعليق حبات من فاكهة التين البري التي تحمل اللقاح الذكري إلى ثمار أشجار التين المزروع عن طريق حشرات تنبعث منها،مع العلم أن هناك أصنافا من التين تحمل صفات الذكورة و الأنوثة معا غير أن التأبير يُسارع بنضج الثمار. - أنظر: -S.Gsell,op.cit.,p.31, note n°2.

[2] -Ibid.

[3] -G.Walter,op.cit.,p.468.

[4] - Caton,op.cit.,VIII,1.

[5] -PlineXV,69.

[6] -S.Gsell,op.cit.,p.32.

[1] -Pline,op.cit,VIII,112.

ورغم الإسم البوني الذي حمله الرّمان،فإن أصوله تعود إلى المشرق فقد عُـرف الرّمـان البرّي في غرب آسيا وأُدخل إلى هندوستان فالصين فالحوض الشرقي للبحـر المتوسـط فـشمال إفريقيا [2].

وبصفته أحد رموز الخصوبة فقد نقش القرطاجيون ثمار الرّمان في عدّة نُصب ونقـائش، كما زيّنوا به مداخل المباني سواء في الأعمدة (Colonnes)أو الجبهيات (Frontons) .(الـشكل 6،الصورة ج،ص.125.).

- اللوز: لم يهمل القرطاجيون المكسرات وخاصة اللوز الذي أعطى ماغون في تعليماتـه تقنيات لبذره وكيفية نقل الشتلات إلى أماكن زرعها النهائية،فأوصى بأن يتم ذلـك بـين شـهري أكتوبر وديسمبر والانقـلاب الـشتوي [3]،وهـو مـا يـتلاءم مـع طبيعـة بـلاد المغـرب. (أنظر الملحق رقم 4)

واللوز،مثله مثل الرمان أصيل آسيا الغربية لكن تواجده في الحوض المتوسط قديم.وقد كان اللوز من ضمن الهدايا التي أخذها أبناء يعقوب (عليه السلام)إلى أخيهم يوسف (عليه السلام) فـي مصر [4].

وتجدر الإشارة إلى أن التسمية الأمازيغية لكل من الرّمان واللّوز هي نفس التسمية السامية.

- نخيل التمور: رغم أن زراعتها منحصرة في الواحات و الصحراء إلا أن النخلة ممثلة في العديد من النـقائش و النّصب(أنظر الشكل رقم 6،الصورة هـ، ص.125). كما نجـدها منقوشة على النقود البونية.

وهذا التمثيل المقصود يدل بدون شك على الأهمية القصوى التي حُضيت بها النخلة عند البونيين [1] .

وإذا علمنا بأن التمور القرطاجية لم تكن من الجودة بمكان،لأنها لا توجد ضمن ممتلكـات قرطاج إلا ابتداءا من تاكاب (قابس) وهذا ما يجعلها بالكادْ تُؤمّن الإستهلاك المحلي،ناهيك عن قلّة جودتها،إذا علمنا كل ذلك فإن ما يشدّ البونيين إليها خاصة،هو تقديسها وليس ما تنتجه من تمـور

---

(2) **-L.Guyot,Histoire des plantes cultivés,Ed.,A.Colin,1963,p.107.**

(3) **-Pline,op.cit.,XVII,130.**

(4) **-L.Guyot,op.cit.,p.104.**

(1) **-S.Gsell,op.cit.,p.34.**

لارتباطها بآلهة الخصوبة مثل عشتار و بَعْــل. وقد نشر الفينيقيون هذا التقديس من موطنهم الذي سادت فيه عبادة أنواع من الأشجار ومنها النخلة،كما فعل بعض القرشيين الــذين عبــدوا (ذات الأنواط) قبل الإسلام [2].

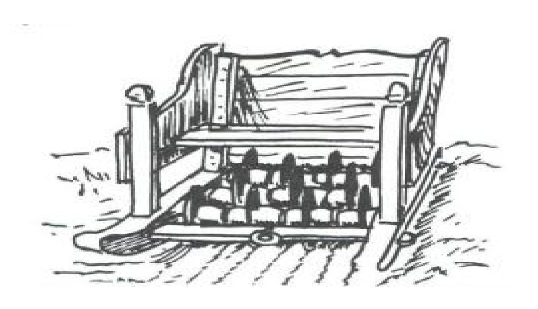
ج- الخضر: كانت زراعة الخضر ناجحــة حــول مدينـــة قرطـــاج إذ تــؤمّن حاجاتهــا الإستهلاكية. وكانت بساتين حي ميغارا الشهير محل إشادة مــن بعــض الكُتّــاب مثــل :أبيــان (Appien)الذي وصف المنطقة الواقعة في تخوم المدينة قائلا: أنها" تعُــجّ بــالبقول والأشــجار المثمرة وتُقسِّمُ البساتين أسْيجة من الحجارة والأشجار الشوكية،كما تشقّها العديد من القنوات العميقة والمتعرّجة [3] .

ومن الثابت أن بساتين ميغارا وما حوت من خُضر وثمار هي التي ساهمت في المقاومــة التي أبداها أهل قرطاجة قبل سقوطها وتدميرها سنة 146 ق.م.

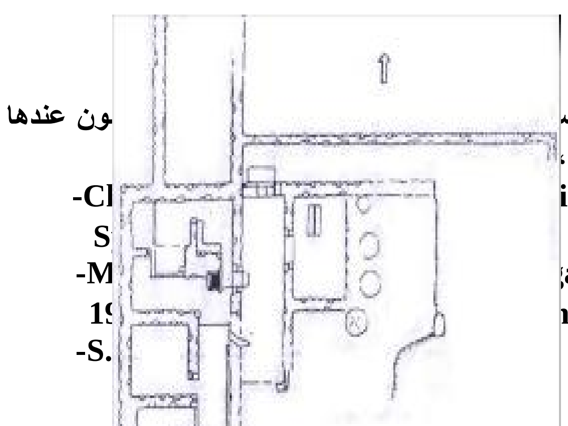
وقد ذكرت بعض النصوص الإغريقية و اللاتينيــة بعــض أنــواع الخــضر المغاربيــة مثل:كرنب قرطاج، و الكرنب الليبي،و خرشف قرطاج والثوم البوني الذي يستهلكه القرطــاجيون بكثرة، وكذلك الحمّص البوني[4].



الصورة أ: نقش للسنابل على عـمـلة بـونـية.



الصورةب :عربة الدرس البونية كما وصفها:.H.Basset,op-cit,p346





---

(2) هي ... ون نخلة يأتيها الرجال كل س... ون عندها يوما. - ... ج1،مكتبة النهضة المصرية، ...

- أنظر ... -Cl... ité et au moyen Age,H... S...

(3) ...ier) -M... gara" de Cathage, in B... 19... nica 177.).

(4) -S.



الصورة هـ: نقش لنخلة تحته كتابة

الشكل رقم 6: بعض مظاهر الزراعة البونية .

د- النباتات الصناعية: من أهم النباتات الصناعية التي عرفها البونيون الجلجلان (Sésame) الذي يُستخرج منه الزيت الذي كان شائع الاستهلاك في آسيا[1]،و يكون الفينيقيون قد جلبوه معهم .

ومن النباتات الصناعية الأخرى الكتّان الذي عُرف بكتّان قرطاج.ولم يثبت أنّ الفينيقيين قد أدخلوا القطن إلى بلاد المغرب [2].

---

(1) -Ibid,p.36.

(2) -Ibid. **زرع القطن في بعض مناطق بلاد المغرب،وقد أدخله العرب بعد الفتح الاسلامي.**

وفـــي الـــصيدلة و الإســـتطباب إســـتغل البونيـــون ثمـــار البَـــرُوُق (Asphodèle) و الإشْـــقِـيل (Scille)وهما من الزنبقيات لصناعة بعض الأدوية وتحضير المقبّلات[3]، واستُغل الخُوص لصناعة السِّلال، أما الحبال فقد صنعها القرطاجيون من حَلفاء جنوب إسبانيا[4].

لقد كانت قرطاج دولة بحرية تمتلك أسطولا تجاريا وآخـــر حربيا،لهـــذا اتـــّجه أهلهـــا بدون شكٍّ إلى استغلال أخشاب الغابات التي تزخر بها جبال التل،وذلك لصناعة السفن التي كانت حجر الزاوية في الأسطولين القرطاجيين .

أما أخطر ما كان يُهدّد الزراعة في بلاد المغرب القديم،فهو آفـــة الجـــراد التـــي كافحهـــا المغاربة بعدّة طـــُرق كدُخان الحرائق ورش النباتات بمواد خانقة واستغلال طيور الخفاش لتفريق أسرابه[5] .

2-الإنتاج الحيواني:

أ-الحصان: لم يستخدم القرطاجيون الحصان كثيـــرا فـــي حـــروبهم. ولـــم يتعـــدّ عـــدد الجياد التي استخدموها أكثر من 10 آلاف بين أحصنة للجرّ وأخرى للفرسان[1].

وإذا كان صيت الفروسية قد ذاع عندهم،فإن ذلك عائد إلى فرقة الفرسان النوميديين الـــذين كانوا رأس الحربة في جيش قرطاج البري [2].

---

(3) -F.Lacroix,op.cit.,4eme épisode,R.A.,N°1870,p.118.

(4) -S.Gsell,op.cit.,p.36.

(5) أنظر: -F.Lacroix,op.cit.,p.119.

(1) كان ذلك أثناء حملة صقلية 341-339 ق.م . -Diodore,op.cit.,XVI,77,4.

(2) -S.Gsell,op.cit.,p.38.

مع ذلك كان الحصان مُبجّلا في قرطاجة وربوع أملاكها وكان محل عناية وتدليل، فقد طُبع نقش الحصان على كل النقود التي صدرت في العهد الجمهوري القرطاجي بين القرنين الخـــامس حتى الثاني قبل الميلاد.كما أن مشاهد الوطن القبلي تبرز انتشار الخيل في المراعي الخصبة [3] .

أما في قرطاجة نفسها،فإن سورها ثلاثي الجدران يحتوي على إسطبلات تتسع لأربعة آلاف حصان ،بمخزونها العَلفي [4] .

ومن خلال النقوش و المسكوكات البونية يبدو أن الحصان الذي كان سائدا في قرطاج هــو الحصان المغاربي (Cheval barbe) وهو الذي تنتمي إليه أحصنة النوميديين [5] ومن الطبيعـــي أن يفضل البونيون هذا النوع الذي خبروه لعدّة قرون،ومن المحتمل أن يكونوا قد حسّنوا ســـلالته عن طريق التهجين والعلف الجيد.فلم يتردّدوا كما أورد قزال عن أبيان، في تغذية جيادهم بالشعير وهو العلف الذي لم يقدّمه الليبيون لأحصنتهم [6] .

غير أن المعطيات تشير إلى أن الحصان كان غريبا عن عالم الريف القرطاجي وخاصـــة بصفته حيوانا للحرث[7] لذلك اهتم البونيون بتربية البغال التـــي تتميـــز بقوّتهـــا وقـــدرتها علـــى التحمُّل[8].

ب-الأبقار: لعبت الثيران دورا كبيرا في عالم الريف،وإذا لم تكن هي الوحيـــدة التـــي إعتمد عليها الإنسان فهي المفضلة لديه من بين الحيوانات الكبيرة الأخرى. والأبقار بصفة عامـــة قديمة العهد في بلاد المغرب القديم ،إذ استأنسها الإنسان مبكرا وخلّـــدها فـــي مدونـــة الرســـوم الصخرية في الصحراء وفي الأطلس الصحراوي. وقد وجد القرطاجيون ومن بعدهم

الرومان تربية الأبقار جِدُّ متطوّرة[1]،واهتمت الزراعة البونية بالثيران لأهميتها في النشاط الريفي فترك ماغون في تعليماته نصائح تتعلق إحداها بصفات الثور الذي يجب اقتناؤه للحرث والدرس[2]

(3) -Diodore,op.cit.,XX,3,4.
(4) - S.E.Tlatli,op.cit.,p.110.
(5) -S.Gsell,op.cit.,p.40.
(6) -Ibid.
(7) -F.Lacroix,op.cit., 3eme épisode,p.35.
(8) -S.Gsell,op.cit.,p.40.
(1) -F.Lacroix,op.cit.,p.33.
(2) -Columelle,op.cit.,VI,1,3.
-Varron II,5,6-7.

(أنظر الملحق رقم 5)،وأخرى تتعلق بعملية خصي العجول عند بلوغها العامين، في فصل الربيع[3]،وذلك للحفاظ على قوتها من أجل تسخيرها للأعمال المضنية من حرث ودرس.

غير أن ثيران بلاد المغرب الحالية تبدو صغيرة الحجم وهي أبعد ما تكون عن تلك التـــي ذكرها ماغون ،والتي قد تكون مستوردة أو مُهجّنة من سُلالات أصيلة الجــزر التـــي اســتوطنها القرطاجيون [4] .

ج- الضأن والماعز: كانت تربية الماعز من اختصاص الليبيين وحدهم، أمّا الــضأن فقــد ربّاه القرطاجيون واعتنوا به ولكن السلالة بقيت تلك التي تتّصف بقصرها وكبر حجم ذيلها طــولا وعرضا .ولا تزال نفس السلالة هي الغالبة في كامل التراب التونسي إلى اليوم وقد وُجدت صورة هذه السلالة ممثلة في بعض النقائش النذرية [5] .

د- تربية النحل: لم تكن تربية النحل هي مجرد مصدر للعسل كمُحَلّ ٍ وحيد فقط، بل تعدّته إلى استعمالات أخرى فقد أورد بلين عن ماغون كيفية لإحضار شــمع العــسل البــوني (Cera-punica) لأغراض طبية وجمالية كالدُّهن و الوَرْنَشَة أو الرسم بالشمع (Encaustique) [6].

وبدون شك فإن شهرة هذا الشمع، باعتباره الأفضل، تؤشر إلى إنتاج كمية كبيرة من العسل

سمحت بإنتاج الشمع من خلاياه بما يكفي الإستهلاك المحلي بل و تعداه إلى التصدير إذ أشاد بــه الكُتاب اللاتينيون[1] .

---

(3) -Ibid,VI,26.

(4) -F.Lacroix,op.cit.,p.34.

(5) - S.Gsell,op.cit.,p.34.

(6) - Pline,op.cit.,XX1,84.

(1) -S.Gsell,op.cit.,p.45,note n°10.

وفي مدينة روسادير (مليلة) Russadir وُجدت نقود تحمل نقشا لنحلة مع كتابة بونية،وهذا دليل على قيمة النحل عند البونيين والليبيين على حَدّ سواء كرافد مـــن روافـــد اقتـــصاد الريـــف القرطاجي[2].

لقد ورث القرطاجيون تجربة مستقبليهم في مجال تربية الحيوانات ويبدوأنهم لـــم يـــستوردوا أصنافا جديدة واكتفوابما وجدوه في بلاد المغرب،من ذلك أن الخنزير لم يشهد عناية من قِبَـــــلهم لأن المغاربة لم يكونوا يربّونه أويستهلكون لحمه،فسارالوافدون على نهجهم [3].

هـــ- الصيد البحري: رغم أن الصيد البحري لا يعتبر نشاطا ريفيا لارتباطه عادة بالموانئ في المدن،إلا أنه يعتبر نشاطا مكمّلا للزراعة لدوره في غذاء السكان حتى ولو كان يُعـــدّ غـــذاء فاخرا خاصة في المدن البعيدة عن البحر [4].

و كان الصيد عند القرطاجيين في الغالب صيدا ساحليا رغم تطور تجهيزات الملاحة عنـــدهم،غير أن الحاجة لم تكن تستدعي الصيد في أعالي البحار لقلة الإستهلاك نظرا لقلـــة الـــسكان ووفـــرة الأســـماك وتنوعهـــا فـــي الرصـــيف القـــاري الواســـع لمنطقـــة الـــساحل التونـــسي[5]، حيث يتغلغل ضوء الشمس في مياه البحر قليلة العمق فينشط تكاثرالأســماك،ناهيك عـــن تقطّـــع الساحل إلى خلجان ورؤوس أو أشباه جزر مع وجود بحيرات شاطئية(Lagunes)مثـــل بحيرتـــي تريتون وزويس(البيبان وبوغرارة)ممّا يضاعف الملاجئ الآمنة للأسماك[6] بينما تقـــل المراكـــز البونية إنتاجا في الساحل الشمالي لضيق رصيفها القارّي(أنظرالخريطة رقم7 ص130).

---

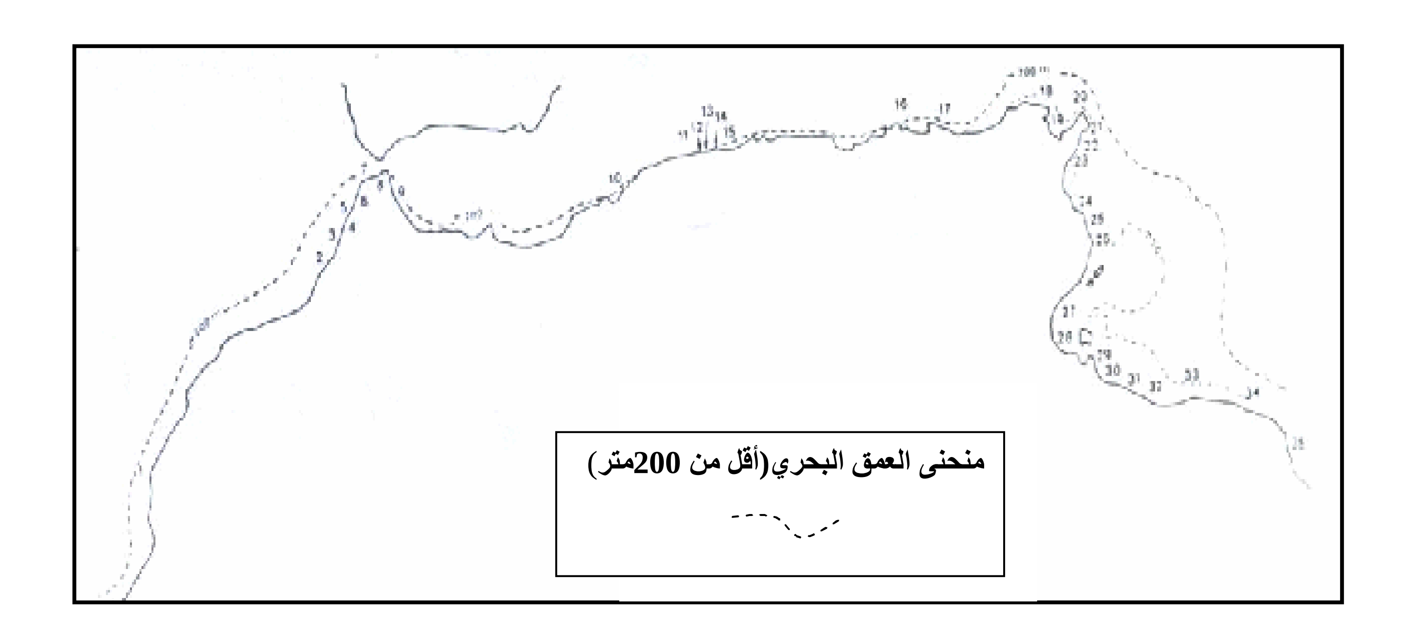
(2) -F.Lacroix,op.cit.,p.98.

(3) -S.Gsell,op.cit.,p.44.

(4) -P.Trousset,La pêche au Maghreb dans l'Antiquité,Cahier du Centre d'Etudes et de Recherches sociales n°11(actes du séminaire:La pêche côtière en Tunisie et en Méditerranée,Zarzis,18-20 novembre,1994) Université des Lettres, tuinisI,1995,p.28.

(5) تعيش النباتات البحرية في منطقة الرصيف القاري(أقل من 200 م.عمقا)وتنعدم في الأعماق،وهذه النباتات هي التي يعيش عليها حيوان البلانكتون وهذا الأخير تعيش عليه الأسماك.- أنظر:عبد القادرحليمي ،المرجع السابق،ص.239.

(6) -H.Mzabi,La Tunisie du sud-est,Ed.,Université de Tunis I,p.248.



منحنى عمق الرصيف القاري المغاربي ومواقع استغلال ثروات البحر.

عن: -P.Trousset,op.cit.,p.25.

أما السواحل الأطلسية عند موريطانيا الطنجية ،فرصيفها القارّي واسع يزيدها دفء مياه تيار خليج المكسيك التي تختلط بمياه ساحل الأطلسي لتوفر بيئة ملائمة لتكاثر الأسماك فنشأت

محطات فينيقية مثل روسادير (مليلة) وشيلا (سالا) وليكسوس (الأعراش) وهي في حدّ ذاتها مراكز للصيد البحري[1].

ومن كتابات الأقدمين حول موضوع الصيد البحري ما أورده سترابون عن ساحل البيزاسيوم،إذ ذكر مراصد (Caput Vada) وهي" رأس كبّودية "حاليا لصيد أسماك الطونة (Thon) بما يُعرف بالصيد عن طريق الرصد(Pêche au guet). [2]

أما في منطقة تاكاب (قابس) فإن الصيد يتم في المياه التي يدفعها المد البحري،كما عرفت نفس المنطقة صيد الإسفنج (Pêche aux éponges) وهو صيد معروف منذ القِدم ولا يزال يُمارس هناك إلى اليوم[3].

ومن الأنشطة الأخرى للصيد البحري،إستغلال المُرّيق (Murex) وهو نوع من الرخويات يُنتج منه صبغ أرجواني[4].

أما الجانب الأثري من هذا النشاط فيتمثل في سلسلة مراكز الصباغة و التقديد (Salaison) والتي تظهر فيها بقايا منشآت للتجفيف وصناعة الأصباغ. (أنظر الشكل رقم 7،الصورة أ ،ص .133)

لقد نقل الفينيقيون خبرتهم بالنشاط البحري إلى بلاد المغرب واستغل أحفادهم البونيون هذا الخبرة فاستثمروا الخيرات التي تزخر بها السواحل .غير أن الإستغلال الأكبر كان إبّان

عهد الإحتلال الروماني الذي يشهد عليه ما تركه المحتلون من فسيفساء تُصوّر مشاهد النشاط البحري، وعالم البحار وما يحويه من أنواع للسمك، ولا تزال تزخر به عدّة مدن ساحلية وداخلية (أنظر الشكل 7،ب ص133).

---

(1) - J.Carcopino,op.cit.,p.25.

(2) -Strabon,op.cit.,XVII,16.

(3) - Pline,op.cit.,IX,69,2.

- يُشكّل الإسفنج فرعا من اللافقريات التي تعيش خصوصا في مياه البحار،يجمعه الغطاسون من قاع البحر.وبعد أن تتحلل خلاياه يبقى هيكله المتكوّن من أنسجة إسفنجية،تـُنظّف وتـُصبغ أحيانا وتـُشذّب حسب الاستعمال. وأحسن أنواع الاسفنج المتوسطي ويليه إسفنج البحر الأحمر. - أنظر مادة(Eponge)- -Encarta 2005.

(4) عُرفت الصّباغة منذ آلاف السنين قبل الميلاد في مصر و الصين وبلاد فارس ففينيقيا التي اختص أهلها في اللون الأرجواني وأشهره المستخلص من المُرّيق، فحتى القرن الرابع للميلاد كان القماش المصبوغ بهذا المستحضر يكاد يساوي وزنه ذهبا وذلك قبل اكتشاف أصباغ من مواد أخرى. - أنظرمادة (Teinture): -Ibid.

كان إنتاج الأسماك من الوفرة بحيث شكّل مجالا للتــصدير عبــر وســطاء فــي مــوانئ البيزاسيوم و أمبوريا لتصريف السمك المجفف و المصبر في جرار كبيرة نحــو مــدن الــداخل والخارج [1] .

لقد استثمر البونيون الخبرات التي توارثوها عن أجدادهم الفينيقيين في إســتغلال خيــرات البحر، من أسماك وإسفنج ومُرّيق ، على طول الساحل الجنوبي للمتوسط في كل المراكــز التــي أخضعوها لسلطتهم من خليج السّرت و جربة حتى سواحل جنوب إسبانيا [2].

هكذا ضمنت قرطاج رافدا مهما لأمن رعاياها الغذائي، ومصدرا ماليا إضافيا في مبادلاتها التجارية.

---

(1) -**P.Trousset,op.cit.,p.44.**

(2) **مادلين هورس- ميادان، تاريخ قرطاج، ترجمة إبراهيم بالش، منشورات عويدات، بيروت-باريس، 1981،ص.90.**



أ- أحواض وخزانات لأحد مصانع التجفيف بمنطقة سالكتة قرب
صفاقس بتونس.عن:.P.Trousset,op.cit



ب - فسيفساء يمشه صيد تبرز الثروة السمكية للساحل المغاربي
عن:.P.Trousset,op.cit

الشكل رقم 7 : إستغلال ثروات البحر.

الفصـــل الرابع:

الــزراعة في نوميديا

أولا- عوامل نجاح سياسة مسينسسا الزراعية.

1- العوامل الداخلية .

2- العوامل الخارجية.

ثانيا- الملكية الزراعية و وسائل الإنتاج.

1- الملكية الزراعية.

2- وسائل الإنتاج.

ثالثا – الإنتاج الفلاحي في نوميديا.

1- الإنتاج النباتي .

2- الإنتاج الحيواني .

رابعا – نتائج سياسة ماسينيسا الزراعية .

1- تثبيت السكان.

2- تأسيس المناطق الحضرية.

3- تثبيت العقار الفلاحي .

4- توفير الأمن .

5-تحديد مسار تحرّك القبائل الرعوية .

6- تعويد الرعايا النوميديين على الحس المدني.

7- تأمين وحماية الرعايا الجدد من المزارعين.

8- تحقيق الأمن الغذائي للنوميديين .

9- تنشيط التجارة الداخلية.

10- ظهور تجارة بينية بحرية .

11- إنبعاث تجارة خارجية نوميدية .

12- تطورالعلاقات مع دول البحر المتوسط.

13- التطورالإقتصادي والإجتماعي لنوميدية

14- إندماج النوميين .

15- إستقرار الحكم في العرش النوميدي.

16- تأسيس إقتصاد قائم على الزراعة.

17- بروز الشخصية النوميدية.

18- تنظيم إدارة المملكة .

أولا: عوامل نجاح سياسة ماسينيسا الزراعية:

بعد انتصاره في معركة زاما سنة 201 ق. م[1] تهيأت الظروف لماسينيسا لبناء الدولة النوميدية على حساب جيرانها في المحيط المغاربي وهم الماسيسيل غربا و القرطاجيون شرقا.وقد استطاع الرجل تحقيق حلمه أثناء فترة حكمه الطويلة التي امتدت لأكثر من نصف قرن حتى بداية سنة 148 ق. م،وعمل بدون هوادة على توطيد أركان حكمه مستلهما" التجربة القرطاجية إذ عيّن حاكما (شِفطا) على رأس كل مدينة ورئيسا(آمقران) على رأس كل قبيلة، ومجلس حكم يتكون من عشرة من بينهم ثلاثة من أبنائه: مكوسن الذي نابه في عدة قضايا، و غلوسة المكلف بالجيش و مسطمبعل المكلف بالخزينة الملكية" [2].

ولكن استفادة ماسينيسا من التجربة القرطاجية لم تكن لتَمنعَه من عدائه للقرطاجيين الذين رأى فيهم غزاة أجانب تجب مكافحتهم واستعادة أرض أجداده منهم،تحت شعار إفريقيا للأفارقة وحجته في ذلك أنّ ما حازته قرطاج كان اغتصابا متواصلا لأرض أجداده ولا مبرر لها فيما اقترفته.

وكان ماسينيسا قد سلك في تحقيق هدفه مبدأ ذرائعيا براغماتيا، فقد اختار الرومان كحلفاء لأن مصلحته التقت مع مصلحتهم: فهم يريدون إنهاك قوة قرطاج قبل تدميرها وهو يريد افتكاك ما أخذته قرطاج من أراض يرى أنه أحقّ بها منها لأنها أرض آبائه وأجداده.

ودون أن نخوض في نوايا هذا الطرف أو ذاك تجاه الآخر،يُمكننا أن نتساءل فقط هل كانت روما ستسمح بوجود قوة جديدة في بلاد المغرب بعد قضائها على قوة قرطاج؟!.

لم ينس المغاربة لقرطاج سياستها التوسعية على حساب أراضيهم منذ أن اقتنعت بأن الزراعة هي الضامن الأول لوجودها كدولة ومجتمع،بعد هزيمتها البحرية في معركة هيميرا سنة 480 ق.م.وقد توارث الليبيون هذا الإحساس الواعي وانتفضوا عدة مرات ضد قرطاج[3]ولكن الذي جسّد حُلم استعادة أرض أجدادهم هو الملك ماسينيسا.

---

[1] **معركة بمنطقة السهول الكبرى غرب قرطاج إنتصر فيها التحالف الروماني النوميدي على جيش قرطاج.**

[2] **-M .Gaid,Aguellids et Romains en Berbérie,O.P.U/E.N.A.L,Alger,1985,p.39.**

[3] **وقعت هذه الثورات بين (396- و241 ق.م): للمزيد أنظر: محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية........،المرجع السابق،ص ص. 45- 46 .**

لقد أكدت المصادر،وخاصة الأثرية منها كما أسلفنا قِدم ظهور الزراعة في بلاد المغرب القديم،إذ لم تكن وليدة توطين ماسينيسا لقبائل مملكته كما أنها لم تكن وليدة توافد الفينيقيين،ولا إسهامات القرطاجيين ولكنها كانت أصيلة في المنطقة سواء تعلق الأمر بتربية الحيوانات أو باستغلال الأرض وخاصة زراعة الحبوب.غير أن بعض المؤرخين القدامى أجمعوا على الدور العظيم الذي قام به ماسينيسا في العناية بالزراعة،بل وذهب بعضهم إلى اعتباره رائدا أدخل الزراعة إلى نوميديا إذ أن "هذا أعظم وأروع ما فعله فقَبْلهُ كانت كل نوميديا غير مُجدية وتعتبر عاجزة بطبيعتها في إنتاج المزروعات،إذ أنه هو الأول وحده الذي برهن أنها تنتجها أكثر من أي منطقة أخرى وقد استصلح مساحات واسعة" [1]،و "استطاع بذلك أن يجعل النوميديين اجتماعيين وصنع منهم مزارعين"[2].

وإذا كان(قزال) قد رأى في هاتين الشهادتين مبالغة،إلا أنه يعترف بأن ماسينيسا "حتى ولو لم يكن باعثا للزراعة فقد كان هو الناشر الحيوي للحياة الزراعية ومُرَوِّجُها في الدولة الواسعة التي أسّسها" [3] .

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف استطاع ماسينيسا،ومهما أُوتي من قوة حجة وسداد رأي أن يُخضع قبائل نوميديا للزراعة وحياة الإستقرار وقد أَلِفَ أهلها حياة الحلّ و الترحال وما توفّره من تحرّر من أعمال الأرض المتواصلة والمضنية أحيانا؟.

من المؤكد أن هذا التحول لم يتم بين عشية وضحاها،فقد ساعدت ظروف بلاد المغرب الطبيعية على المزاوجة بين حياة الرعي و الزراعة،وخاصة زراعة الحبوب التي لا تتطلب سوى فترتين فصليتين للعمل فيها هما: فترة الحرث والبذر، وفترة الحصاد والدرس. وهناك عوامل أخرى فرضتها شخصيته و سياسته الإقتصادية في استصلاح الأراضي و تثبيت البدو الرّحّل فيها، بل وإلزامهم ضمن تعاليم صارمة بالإستقرار وخدمة الأرض .

كيف استطاع ماسينيسا إذن النجاح في سياسته الزراعية وما هي أهم العوامل التي أهلته لهذا النجاح ؟.

---

(1) **-Polybe ,op.cit,.XXXVI,16**.

(2) **-Strabon,XVII,3,15 ,Géographie,traduction B. Bourmeque,flammarion,Paris, 1965 .**

(3) **- S.Gsell,op,cit,.TV,p.18.**

1-العوامل الداخلية

أ- شخصية ماسينيسا :

لقد لعبت الحروب التي خاضها ماسينيسا ،وقيادته لقبائل الماسيل الدور الأكبر في إكسابه شهرة واسعة جعلته محل تقدير وإعجاب،بل وحُبّ من رعاياه الذين وجدوا فيه دون شك ضالّتهم التي تجسّدت في شخص قائد مقدام جمع بين الشجاعة و القوة و الحكمة ورجاحة العقل. وقد أكسب هذا الحب وهذا الولاء لماسينيسا كاريزمية متفردة ساعدته على تحقيق سياسته الزراعية في توطين البدو و العمل على استقرارهم خاصة وأن" السيادة النوميدية لا تقع على امتلاك الأرض، بقدر ما تقع على الهيمنة على الرعية "[1]. (أنظر الملحق رقم:6)

لقد استطاع الملك النوميدي كسب قلوب رعاياه فأطاعوه وتفانوا في خدمته وليس أدل على ذلك من أنه استطاع أن يجعل له أنصارا في حاضرة قرطاج نفسها .وقد عملوا على خدمته[2] رغم ما كان يمكن أن يتعرضوا له من أخطار[3].

ب الاستقرار السياسي:

لم يكن عمر ماسينيسا يتعدى السابعة والثلاثين عندما حسم و رجاله معركة زاما لصالح الرومان سنة 201 ق.م ،وخرج ماسينيسا الرابح الأكبر من الحرب البونية الثانية[4]،وقضى مدة حكمه الطويلة في صحة جيدة لفتت الإنتباه واستطاع إنجاب أكثر من أربعين بين ذكور و إناث كان لهم جميعا ،وبفضل المصاهرة، دور كبير في ربط أواصر القربى و الولاء للملك النوميدي [5]. ولم تعكّر صَفْوَ حُكمه أيّة جرائم سياسية ولا انقلابات عائلية على السلطة [6].

---

(1) **-G. Camp ,Berbéres …….,op.cit., 1980,p.100.**

(2) **- M.Gaid, op.cit., p.41 .**

(3) **من ذلك أن أنصار ماسينيسا عرضوا على القرطاجيين الاستسلام لماسينيسا عوض استسلامهم للرومان الأمر الذي كلف طرد مايمكن اعتباره حزب ماسينيسا في قرطاج.أنظر: -Ibid.**

(4) **-M.Kaddache,op.cit.,p.50.**

(5) **كان من بينهم صدر بعل، الذي أسند إليه مجلس شيوخ قرطاج الدفاع عن المدينة عندما تأكّد حصار الرومان لها،إذ كانت أمه واحدة من بنات ماسينيسا الذي زوّجها لأحد القادة القرطاجيين .**

(6) **-Polybe,op.cit.,XXXVI,16.**

ج- طول مدّة حكمه:

سمحت طول مدة الحكم لماسينيسا بأن جعل الأمر يسْتتب لـه بعد أن قضى على منافسه و غريمه سيفاكس وبعد أن استطاع استعادة ما كان يُسمّيه أرض أجداده على حساب ما كانت قرطاج قد نهبته من أرض القبائل التي أصبحت تابعة له.

د الظروف الطبيعية الملائمة:

تعتبر أرض الماسيل من أجود الأراضي المنتجة للحبوب في بلا المغرب منذ القدم، ذلك أنها تتربع في جزء منها،على السهول المرتفعة الشرقية التي تنحصر بين جبال الحضنة من الغرب و الأوراس و النمامشة و الظهر التونسي من الجنوب باتجاه الشمال الغربي، والسلسلة النوميدية وجبال الخمير من الشمال، وهي المناطق المهيأة طبيعيا لإنتاج الحبوب [1]. كما أن ماسينيسا استطاع ضم أراضي نوميديا الغربية(ماسيسيليا)المحاذية لموريتانيا والتي يرى سالوست أنها أغنى الأراضي الزراعية و أكثر رجالا من نوميديا الشرقية التي تعتبر أكثر مدنا وموانئ[2]،هذا بالإضافة إلى الأراضي التي ضمها ماسينيسا أو استعادها من قرطاج حتى سهول أمبوريا .

هـ- إهتمامه الشخصي بالفلاحة:

رغم مظاهر الأبـّهة التي تطبع الملوك عادة،غير أن الملك ماسينيسا اهتم إهتماما شخصيا بالفلاحة التي تتطلب النزول إلى الميدان،فأصبح بذلك قدوة لرعيته،لقد أشرف بنفسه على استصلاح واستثمار الأراضي التي ألحقها بالقصر الملكي. [3] والدليل على ذلك أنه ورّث أبناءه الذين يفوق عددهم الأربعين،عشرة آلاف "بلاثر" (875 هكتار)مُجهزة بالآلات الضرورية لكل واحد منهم[4]ومن الواضح والطبيعي أن اهتمام مَلكٍ بالزراعة من شأنه أن يُحفّز الرعيته التي ستبادله وفاءه للأرض بالحب و التقدير و المثابرة على العمل الزراعي كنشاط إقتصادي جديد إلى جانب الرعي.

---

(1) **لا تزال هذه الأراضي أهم مساحات إنتاج الحبوب في شمال شرقي الجزائر و شمال غربي تونس على الدّوام.**

(2) **- Salluste,op.cit.,XVI,16.**

(3) **-G. Camps ,Massinissa ……,op.cit.,p.212.**

(4) **-Diodore de Sicile ,XXXII ,17 .**

و- تأمين الأراضي الزراعية :

من أجل تـأمين و حمايـة الأراضـي الزراعية،إتخذ ماسينيسا إجراءات لتقليص وتحديد مجـالات للبدو الذين اختاروا حياة الرعي والحلّ و التّرحال،وذلك لضمان المحاصيل بتأمين حدود ثابتة للملكيات الزراعيـة، فـأقر دخـول البـدو الرعـاة بـشروط محددة كـضيوف و لـيس كغُزاة" لتتغـذى قطعـانهم علـى الهــشيم بعـــد الحـــصاد ،كمـــا ســـعى إلـــى إقامــــة قـــلاع لمراقبـــة تـــنقلات الرحـــل و تأمين الإستقرار للمزارعين[1].

ز- إستصلاح الأراضي:

رغم خصوبة مناطق كثيرة، إلا أن الأراضي التي اشتهرت بإنتاج الحبوب لم تكن مهيأة طبيعيا لهذا الغرض بل تطلب الأمر إستصلاحها. ولم تكن عملية الإستصلاح بالسهلة بتاتا،بل استلزمت حربـا علـى النباتـات ذات الجـذور القويـة والممتـدة فـي عُمـق الأرض مثـل شـجيرات أقـزام النخيـل و العُنـّاب الشائك،وغيرها و التـي تمتـدّ فـي السّهول و تطلّـب اقتلاعهـا عمـلا متواصـلا مُضنيا ،وقـد طـال الأمـر الغابـات كـذلك لتـوفير مـساحات زراعيـة إضـافية وذلـك بحـرق الأشـجار التـي يُـسَمِّدُ رمادهـا الأرض بالإضافة إلى أن حرق أشجار الغابة من شأنه طرد الحيوانات المفترسة [2].

ح - توفر اليد العاملة:

لم تكن نوميديا تحتاج إلـى يد عاملـة وافدة أو إلـى عبيد للعمل فـي الزراعـة، لأن اليد العاملـة كانت من الكثرة بحيث لم تشكل نقصا يعيق عمليـات الإسـتصلاح أو الحـرث والبـذر والحـصاد. ومـع ذلك فإن الكثيـرين أبقـوا علـى مهنـتهم الرعويـة ولـم ينخرطـوا فـي الزراعـة لأن الرعـي كـان يـشكل ضرورة حيوية للنوميديين.[3]

2-العوامل الخارجية:

أ- ضعف قرطاج:

لقد أُنْهِكَتْ قرطاج من جرّاء حروبها ضد الرومان وضد التمردات الداخليـة فـي الأراضـي التي ضمتها،و تشتتت قوتهـا الهجوميـة و الدفاعيـة معـا خاصـة بعد المعاهدات التـي كبّلتهـا بهـا رومـا .وشـــكّل هـــذا عـــاملاً مُهمًّـــا وظرفـــا ملائمـــا جعـــل ماسينيـــسا لا يتـــردد فـــي التوغـــل داخل ممتلكات قرطاج بحجة استعادة أرض أجداده مثل الحملة التي شنها سنة 193 ق.م " ليتتبع فيها

(1) -G.Ch.Picard,La Civilisation de l' Afrique romaine ,éd .Plon, Paris,1959,p.66.
(2) - S.Gsell,op.cit.,p. 189.
(3) –Ibid.

أحد المتمردين الذي كان اسمه "فالتان" (Phalten) فارضا دفع ضرائب على بعض المدن في منطقة طرابلس "[1] .

ب-الإرث البوني :

إنه من دواعي النكران و الجحود نفي التأثير البوني في الحضارة النوميدية بشكل عام و الزراعة بشكل خاص لأن الأراضي التي سعى ماسينيسا إلى ضمها بحجّة استعادة أملاك أجداده، كانت أراضٍ زراعية من أجود أراضي بلاد المغرب نظرا لخصوبتها وتوفر مياهها وغدق عطائها المتنوع من حبوب و فواكه ومواشي،إذ يمكن القول أنها كانت نموذجا يحتذى في الزراعة [2] كما ورث النوميديون تقنيات وآلات زراعية مثل عربة الدرس البونية (Plaustellum Poenicum)[3]

ج- مساندة الرومان له:

إلتقت مصلحة الرومان في القضاء على قرطاج مع مصلحة ماسينيسا في استعادة أرض أجداده فأطلقت عدّوة قرطاج يد حليفها العاهل النوميدي ليُحجِّم قوّتها إلى أضعف صُوَرِهَا حتى يسهل الانقضاض عليها وتدميرها. وإذا كان ماسينيسا قويا بشخصيته وجيشه،فقد كان أقوى بحليفته روما التي ساندته في استعادة ما سلبته قرطاج من المغاربة في إطار سياستها الإفريقية بعد هزيمتها في معركة هيميرا، وذلك بتكبيلها بمعاهدة زاما التي منعت عليها الحرب إلاّ بإذن منها [4].

---

[1] **محمد الصغير غانم، المرجع السابق،ص.86 .**

[2] **بالإضافة إلى توفر السهول في هذه المنطقة فإن تربتها المستقرّة تتلقى كميات معتبرة من الأمطار تؤمّن إنتاجا جيّدا للحبوب.**

[3] **محمد الهادي حارش، التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول ،203-46 ق.م ،دار هومة ،الجزائر،1996،ص.103.**

[4] **محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم.....،المرجع السابق،ص.70.**

ثانيا: الملكية ووسائل الانتاج:

إذا كانت أغلب الأراضي الزراعية النوميدية تتوزع بين أرض استصلحها ماسينيسا تحت رعايته وأخرى استعادها من قرطاج بحجة أنّها أرض أجداده،فإن كل هذا يطرح مسألة الملكية الزراعية في نوميديا،فكيف كان تنظيم هذه الملكية؟وما هي الوسائل المستعملة فيها؟.

1- الملكية الزراعية:

كانت القبيلة النوميدية تمتلك أراضيها الرعوية ملكية جماعية أي أن لجميع أفرادها الحق في استغلالها،فترعى فيها قطعان ماشيتهم،ولا يحق لقبيلة أخرى دخولها إلا بإذنها،وبصفة الرعي فقط دون الملكية.أما الأراضي التي لا تصلح للرعي والزراعة كالغابات فبقيت ملكيتها دون حيازة و يحق للجميع استغلالها [1].

أما بالنسبة إلى أراضي زراعة الحبوب فقد اقترح "قزال" ثلاث فرضيات للملكية [2]يمكن تلخيصها كالتالي :

أ) الفرضية الأولى:

أن تكون الأرض ملكا مُشاعا لمجموع السكان الذين ينْتظمون فيما يُشبه جمهورية قروية صغيرة حيث تستغل الأرض جماعيا ويوزع المحصول على الأسر حسب عدد أفرادها،غير أن مجموع الأسر هو أساس المجتمع المغاربي القديم،وأن الفرد فيه لا يميل إلى الإندماج الشيوعي[3].

ب) الفرضية الثانية:

أن تبقى الأرض ملكية جماعية على أن تُقسّم الحقول المراد زرعها حسب العائلات و تبقى الأراضي البُور[4] خارج هذا التقسيم ملكا جماعيا للرعي،تماما مثل الهشيم بعد الحصاد . ورأى قزال أن هذا النوع من الملكية الذي عرفه الجرمان قديما يلائم

المجتمع المغاربي على مرّ الزمن ،ولا يزال يُمارس أو كان يُمارس إلى عهد قريب في بلاد المغرب

---

(1) **-S. Gsell,op.cit.,pp.205-206.**

(2) **-Ibid,pp.206-207.**

(3) **عـُرف هذا التنظيم في عدة مجتمعات زراعية وتطور مفهومه عبر الزمن،ففي تاريخنا المعاصر شهدت الأنظمة الشيوعية تجارب مماثلة نذكر منها نظام الكومونات في الصين ونظام الكولخوز في الاتحاد السوفياتي سابقا .**

(4) **هي الأرض المتروكة التي لم تزرع . أنظر: إبن منظور،المرجع السابق،ص.196.**

ومن الملاحظ أن هذا التقسيم يسمح ببروز الجهد الفردي أو الأسري الضيّق لأن مسؤولية الإنتاج محدّدة لا يمكن التنصّل منها بسبب الكسل أو التواكل[1] وهنا تبرز قيمة المبادرة الفردية التي أصّلها ماسينيسا في رعيته .

ج) الفرضية الثالثة:

أن تُجزّأ الأرض إلى ملكيات خاصة إما للأسر حيث يكون للأسرة مسيرٌ للملكية دون امتلاكها أو لأشخاص يكونون أحرارا في التصرّف فيها.ويقوم هذا النموذج على مبدإ خدمة الأرض واستصلاحها فمن استصلح أرضا فهي ملكٌ لهُ ولمن يرثه طالما واصل خدمتها، فإن تركها فستؤُول لمن يُحييها من جديد [2].

وكما هو مُلاحظ في كل الفرضيات التي قدّمها قزال ،فإن الملكية الخاصة هي السائدة سواء تعلّق الأمر بالأسرة أو الفرد.ومن البديهي أن الملكية الخاصة هي من أهم عوامل التوطين والإستقرار و الإرتباط بالأرض.

إن الملكية كما هو معلوم تَشحذ عند صاحبها التّوْقَ إلى استغلالها الإستغلال الأمثل كما أنها شرط ضروري لغراسة الأشجار التي تتطلب الصبر والإعتناء الدائم [3].

ومن ناحية أخرى،يمكننا وعلى ضوء ما صنّفته اللجنة العشارية (Decemvir)[4]،التي أرسلها مجلس الشيوخ من روما لإحصاء الأراضي في إفريقيا،يمكننا القول بوجود ملكية خاصة .

---

[1] لا يزال هذا النظام يُمارس في بلاد المغرب فيما يعرف بأرض العرش إلى يومنا هذا،ففي منطقة أوراس.النمامشة، ومهما اتسعت القبيلة وتعددت أسَرُها،فإن الأرض تحرث وتزرع ليقسم المنتوج كل سنة على عدد من أسر القبيلة في جدولة متتالية .

[2] " الأرض لمن يخدمها" و الأرض لمن يستصلحها هي نظريات لا تزال قائمة إلى اليوم في الجزائر مثل قانون الثورة الزراعية سنة 1971، وقانون استصلاح الأراضي سنة 1983 .ولكل منها جذور في التراث الإسلامي.

[3] - S. Gsell. op.cit.,p.107 .

[4] لجنة من مجلس الشيوخ الروماني تضم 10 قضاة (Decem: عشرة،Vir: رجل).أنظر:

-F.Gaffiot, op.cit., p.204.

على ضوء تقرير اللجنة المذكورة أعلاه،يمكن تقسيم الأراضي إلى ثلاثة أصناف: [1]

أ) أراضي الدولة الرومانية وتشمل أملاك الدولة المنهزمة.

ب) أراضي المُلاّك المغاربة المحايدين في الحرب البونية الثانية الذين عوّضهم قانون 111 عن أرضهم التي كانت عرضة للحجز.

ج) أراضي المدن الحُرة التي انحازت إلى روما .

من خلال التصنيف،تتبين الملكية الخاصة أو الفردية التي يكون بعضها تابعا لوجهاء المدن وكبار المُلاك بما فيهم أراضي الأسرة المالكة [2].

وبما أنه لا مجال للحديث عن الملكية الزراعية بدون الحديث عن اليد العاملة فيها،فإن النوميديين،و رغم الملكيات الخاصة قد اكتفوا بجهودهم الشخصية أو لجأوا إلى يد عاملة من الأحرار،كما كانوا يخضعون للضرائب،وفي بعض الأعمال التي تتطلب جهدا إضافيا لا يتردد المزارعون في تشغيل النساء دون استخدام العبيد ولعل ذلك قد يعود إلى فقر الفلاحين الذين لا يستطيعون اقتناء العبيد.[3] وكمثال على نوع العمالة السائدة في الملكيات الواسعة التابعة للقصر،"يمكن الإعتقاد بأنها كانت مستغلة مثل أملاك السالتوس(Saltus) الرومانية التي أعقبتها من طرف عمال أحرار أقاموا في الملكية بدون عقد ولا تحديد مدة، وهم ملزمون بدفع حصة من إنتاجهم لمالك الأرض " [4]

وبالنظر إلى طبيعة النوميدي التوّاقة للتحرر، فلا يمكننا مجاراة الفرضية القائلة بأن الفلاحين لا يقتنون عبيدا لأنهم فقراء،بل لإنهم نابذون للعبودية .أليست كلمة أمازيغ و التي قد تكون مشتقة من كلمة ماسيل تعني الرجال الأحرار؟!.

غير أن ما يهمنا أكثر في بحثنا هذا هو ما أبدعه المغاربة القدامى وما أضافوه من زراعات وتقنيات ووسائل إنتاج طوّرت العمل الفلاحي وضمنت تدفق المنتوج الذي أوصل البلاد إلى تأمين غذائها بل وتعداه إلى التصدير.

---

[1] محمد البشير الشنيتي،الرومنة في بلاد المغربي(146 ق م- 40 م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر، ص. 106.

[2] محمد الهادي حارش،التطور السياسي والاقتصادي ....،المرجع السابق،ص ص. 99-100.

[3] **-S.Gsell,op.cit.,p.110.**

[4] ألا يمكن اعتبار نظام الخماسة(العمل مقابل خمس الإنتاج) المعروف ببلاد المغرب،تطورا لهذا النوع من العمالة الزراعية ؟ . -Ibid.

2 -وسائل الإنتاج :

بعد استقرار الإنسان وتعاطيه خدمة الأرض،إستطاع توظيف آلات ووسائل توصّل إلى اختراعها أو طورها لضرورة الحاجة إليها،سواء تعلّق الأمر بالآلات الزراعية المتنوعة للحرث وتقليب الأرض أو الحصاد أو الدرس،أو الوسائل الضرورية التي يفرضها الإنتاج نفسه بعد الجني من مخازن و مطاحن .

أ - الآلات الزراعية: ويأتي المحراث على رأسها،وقد كُنّا تناولنا المحراث البوني سابقا غير أن المحراث النوميدي ،والذي لا يزال مستعملا في بعض مناطق بلاد المغرب مثل القبائل بالجزائر و الريف بالمغرب ،هو من أهم الأدلة على قدم الزراعة في نوميديا.

فهذه الآلة المتفرّدة والمتميزة محلية أصيلة وهي محراث اليد المرخية (Charrue à manche sep)ولا يزال المحراث التقليدي هذا مع المحراث البوني متداولين في بعض المناطق التي تمارس الزراعة التقليدية حتى اليوم[1](أنظرالشكل 8 ،أ،ص. 156)

ومن الآلات الأخرى التي استعملها النوميديون المعول والمجرفة و المعزق [2] ولكن أهم الآلات بعد المحراث هي المنجل الذي كان استعماله قديما ،قد يعود إلى ما قبل التاريخ [3]وقد أسلفنا الحديث عن الآلات البدائية التي عرفها المغاربة وهم يتلمسون طريقهم للزراعة منذ فجر التاريخ [4].

أما بالنسبة إلى درس الحبوب فهناك الطريقة التقليدية المتمثلة في إستغلال الحيوانات الكبيرة كالثيران والبغال والتي تدوس على السنابل المكدسة على الأرض بعد حصدها في حركة دائرية لفصل الحبوب ولا تزال هذه الطريقة مستعملة في العديد من مناطق الريف المغاربي وهناك من استخدم العربة التي اختص

---

(1) -G.Camps ,L'araire berbère,in B.A.C,III[eme] ,colloque de l'archéologie de l'afrique du nord,Monpelier,1985.

(2) محمد الهادي حارس، نفس المرجع، ص.101.

(3) -S.Gsell,op.cit.,p.196.

(4) من المنطقي أن يكون المحراث مثله مثل الآلات الأخرى متعدد الأصول نظرا لتعدد التجارب الإنسانية في الزراعة ومن النادر أن تكون أي واحدة من هذه الآلات أحادية المصدر و الأصل .

بها البونيون[1] خاصة في الأراضي التي استعادها ماسينسا والتي تطرقنا إليها آنفا .

ب- وسائل التخزين: أجمعت الكتابات القديمة و الحديثة على وفرة إنتاج الحبوب في نوميديا،بحيث أصبح القمح و الشعير أهم المنتوجات الإستراتيجية لأنها توفر الأمن الغذائي للسكان،لهذا وجب تخزينها للإستهلاك القريب أو المتوسط أو حتى البعيد في السنوات العجاف، ناهيك عن إمكانية التصدير كما سيأتي لاحقا،فقد تحدث سالوست عن قلاع محصنة استعملها يوغرطة لتأمين غذاء جيشه من القمح، [2] بالإضافة إلى مواد أخرى،لحفظها من التلف وحمايتها من النهب.

ويكون قد ورثها عن أسلافه ،في حربه ضد الرومان ،إذ اعتقد قزال أن المحليين خارج ممتلكات قرطاج كانت لهم مخازن قمح ولم ينقلوها عن الفينيقيين وعرفتها شعوب أخرى كالإسبان منذ العصر الحجري الحديث.

وتُشيّد هذه المخازن في الضيعات القريبة من الحقول حيث يتجمّع المزارعون في قرى محمية تحرسها الجماعة،وأغلبهم يمتلكون مخازن تحتوي بالإضافة إلى الحبوب على مواد أخرى لحفظها وحمايتها[3]وتقام المخازن في مواقع تضمن صعوبة الوصول إليها على الأعداء المهاجمين أو الغزاة المتربصين،كما تضمن سهولة مهمّة حمايتها من طرف أصحابها فتكون منحدرات وعرة مثل قلعة "نهر ملّوشة " (ملوية) التي أوردها سالوست [4].

أو تُقام في أواسط القرية،أو أحد جوانبها الحصينة، أو في أعاليها بحيث يُضمن لها أقصى حظوظ الحماية لأنها تُمَثّل الأمن الغذائي الذي تزداد أهميته أثناء الحروب والحصار،لذلك وحرصا منهم على السرية وإمعانا في ضمان حماية الغذاء يُكْتَمُ أمر منافذ المطامير على العامة [5].

وسواء كانت هذه المخازن على شكل قلاع مُحصّنة أو مطامير أو بيوت مؤونة فإنها ساهمت في تثبيت السكان واستقرارهم على اعتبار أنها مجتمعة تحتوي الغذاء كمنتوج استراتيجي لا بديل عنه

---

[1] **استخلص دوكري وفنطر من ذلك وجود تقليد محلي أصيل وعادات مكتسبة وردت مع الفينيقين عشية الاحتلال الروماني،تماما كما أوجد الاستيطان الأوروبي في العصر الحديث قطاعين زراعيين في بلاد المغرب: قطاع تقليدي وأصيل ومتوارث،وقطاع حديث أسسه المستوطنون،أنظر: -F.Decret et M.H.Fantar,op.cit.,p.134.**

[2] **- Salluste ,op.cit., XC.**

[3] **- S.Gsell,op.cit.,p.198.**

[4] **- Salluste ,op.cit., XC.**

[5] **محمد الهادي حارش، المرجع السابق،ص.103.**

وهو يعني الجميع وقد توارث المغاربة فكرة التخزين هذه حتى اليوم[1].

ج- أدوات الطحن: هي من الوسائل المكمّلة للإنتاج لأنها تعطي الطحين كمتنوج نهائي قابل للإستهلاك.ومن الراجح أن"المِهراس"المتكوّن من جُرن ومدقٍّ وكذلك "الرحى" تعود إلى العصر الحجري الحديث [2] وتُعتبر الرّحى أهم أدوات الطحن فهي تتكون من اسطوانتين دائريتين من البازلت أو الغرانيت يصل قطر الواحدة 40 سم تحتوي الإسطوانة السفلى على محور ثابت يتوسطها،تُركّب الاسطوانة العلوية المثقوبة من وسطها لإدارتها وصبّ الحبوب فيها.ومن خلال مقبض مُثبت في جانب الاسطوانة العلوية تُحرّك دائريا لتُطحن الحبوب المصبوبة من الكفّ.(أنظر الشكل، 8 ،ب ،ص.156) .

وقد عُثر على نماذج من هذه الآلة في مغارة "ريُوصَلادُو" Rio Salado على الساحل الوهراني وفي مغارة برزينة بالأطلس الصحراوي [3] ولا يزال استعمال الرحى مألوفا في بيوت الأسر المغاربية وفي معظم الأقطار إلى اليوم لإعداد الطحين ، أو شربة القمح الأخضر المشوي المعروف بالفريك [4]و شربة الشعير المعروفة بالمرمز و اللتان تقدمان كفاتحة في موائد رمضان بعد الإفطار.ولا تزال قرية (القطار)قرب مدينة قفصة موْطنا لصناعة الرحى وقد ذاع صيتها في تونس وشرق الجزائر، كما لا تزال أنواع " المهاريس"الخشبية و النحاسية محل استعمال واسع [5]في بلاد المغرب ، إذ لا تخلو البيوت المغاربية منها ، و أصبحت هذه الآلات على ندرتها محل توارث من السلف إلى الخلف.

---

(1) لقد امتدت فكرة المخازن إلى المدن،ففي القرن الثاني عشر ذكر الإدريسي أن كل المنازل تحتوي على بيوت مؤونة تحت الأرض Gsell,op-cit,note n°1. وفي بعض المنا طق لا تزال بعض المنازل مزوّدة بما يُعرف ببيت الخزين وتخزن فيها المواد الغذائية الأساسية وتقام فيها المطامير للقمح و الخوابي لتخزين التمور.

(2) **-S.Gsell,op.cit.,p.55.**

(3) **-Ibid.**

(4) هل يمكن تأصيل كلمة " فريك " دلاليا على أنها مشتقة من أفريقيا خاصة وهي أكلة مغاربية.وقد حملت بلاد المغرب اسم إفريقيا في القديم.

(5)) لا يقتصر عمل الرحي على طحن القمح والشعير فقط بل تستخدم لطحن الدقيق لصناعة الخبز أو الكسكس وهو الغذاء الأساس لسكان المغرب كما تستخدم لطحن الملح و التوابل .

ثالثا:الانتاج الفلاحي في نوميديا

نتج عن الإعتناء بالزراعة في نوميديا منذ عهد الملك ماسينيسا أن حققت نجاحا يثير الإعجاب تمثل في الإكتفاء الذاتي،وتعداه إلى الأمن الغذائي،بل و تعدى ذلك إلى التصدير(1). وتدل على كل ذلك العديد من الشواهد، سواء الأدبية منها أو المادية. ومن خلال هذه الشواهد نستطيع تتبع ملامح الإنتاج الزراعي في نوميديا وخاصة على عهد كل من الملكين الأب ماسينيسا و الإبن مكوسن و اللذين حكما نوميديا لمدة تفوق الثمانية عقود (2) .

1 - الإنتاج النباتي :

إذا كان الإنتاج الفلاحي عند البونيين قد تركز أساسا على الأشجار المثمرة وتربية الحيوانات ،فإن الإنتاج الفلاحي في نوميديا قد ارتكز أساسا على الحبوب بالإضافة إلى تربية الحيوانات ولكن هذا لا يعني إهمال النواحي الإنتاجية الأخرى التي ترتبط بالزراعة .

أ- الحبوب:

لقد خرج الإنسان من تجربة زراعة الحبوب بحقيقتين مقنعتين تحبّذان الإستقرار: أولاهُما الحصول على غذاء وفير بقليل من الجهد ، والثانية قابلية الحبوب للتخزين في ظروف عادية مدّة طويلة يجعل التغذية متيسّرة في غير أوقات الحصاد(3) .

لقد عرف المغاربة، الذرة البيضاء والدّخن كحبوب برّية تغذّوا عليها قبل معرفة الزراعة،كما سبقت الإشارة إليه(4).وانسجاما مع التطور الحضاري و الإنتقال من حياة الرعي و الحل و الترحال،إتجه النوميديون إلى زراعة القمح و الشعير لأنهما زراعتين لا تتطلبان أكثر من حملتين موسميتين هما موسم الحرث و البذر في فصل الخريف،وموسم الحصاد و الدرس في فصل الصيف.وهذا ما يوفر للمُزارع الوقت للإعتناء بالقطيع وممارسة تربية الحيوانات.وهكذا يمكننا تصور الدورة الإقتصادية التي تشكل حياة المُزارع في المتتالية الآتية:- حرث وبذر،- إعتناء بالقطيع، – حصاد ودرس وذلك باستخدام الحيوانات، – العودة إلى القطيع الذي يعيش على هشيم الحصاد .

(1) -S.Gsell,op.cit.,p.189.

(2) **حكم ماسينيسا منذ سنة200 ق م حتى وفاته سنة 148 ق.م ثم خلفه ابنه مكوسن بعد وفاة أخويه حتى سنة 118 ق.م.**
أنظر: شجرة الملوك النوميديين، محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية .....، المرجع السابق، ص. 74.

(3) **-S.Gsell,op.cit.,p.189.**

(4) **-S.Gsell,op.cit.,p.189.**

كما تشكل الحيوانات بفضلاتها مجتمعة سمادًا طبيعيا للأرض بالإضافة إلى كونها مصدرا للّحوم و الألبان و الجلود و الصوف و الشعر،بينما تُستغلّ الحيوانات الكبيرة منها في أعمال الحرث و الدرس بالإضافة إلى كونها وسائل لنقل البضائع و الأشخاص.

وتكمن أهمية إنتاج الحبوب في الكمية المُنتجة وتَغطيتها للإستهلاك الداخلي وكذا في تصديرها كتجارة خارجية تجلب العملات الثقيلة [1]أو السلع و المواد التي تحتاجها السوق الداخلية .

ويمكننا أن نسوق بعض الأرقام التي أوردها تيت ليف Tite-live عن شُحنات من الحبوب تمّ بيعها أو إهداؤها إلى بلاد اليونان أو روما لعدّة سنوات تمثّلَ بعضها في الكميات التالية:

- إرسال ماسينيسا إلى جيوش روما المحاربة في مقدونيا 200 ألف صاع من القمح أي (17508 هكتولتر) وذلك سنة 200 ق. م [2]

- إرساله مليون صاع (78540 هكتولتر) إلى جيوش الرومان المحاربة في مقدونيا سنة 171 ق.م[3].

- وإذا كانت هذه الكميات لا تعطينا رقما دقيقا عن كمية الإنتاج،بل حتى عن الحجم الحقيقي للصادرات،ذلك لأن هذه الأخيرة تخص العائلة المالكة فقط ،ومع ذلك فإن هذه الأرقام تجعلنا نستنتج بأن الإنتاج كان من الوفرة بحيث شكّل فائضا للتصدير بعد تأمين مخزون استراتيجي للإستهلاك المحلي.

---

[1] **تمكن ماسينيسا،بالإضافة إلى المقايضة أن يؤمن عملة ذهبية وفضية مقابل الشحنات التي كانت تباع إلى جزر اليونان وروما إذ صدّر القمح إلى جانب العاج وريش النعام وبيضه .**

[2] محفوظ قداش،محمد الهادي حارش:المرجعين السابقين نقلا عن : -Tite Live:XXX,19.

[3] -Ibid.

ومن الدلائل الأخرى على وفرة الإنتاج وارتفاع المردود في بعض الأراضي،فقد أورد "سالوست" "إن البلاد خصبة بالحبوب كما أنها أرض تربّي الماشية" [1].

وقد أوردنا رأي هيرودوت آنفا بأن القمح في سهل كنيبس [2] يُعطي مردودا بثلاث مائة حبّة للبذرة الواحدة .كما أورد سترابون عن منطقة نوميديا الغربية (ماسيسيليا) " أن البعض منهم يملكون أرضا تَغِلّ مرتين..مرة في الربيع وأخرى في الصيف إذ تبلغ قصبة النبتة ارتفاعا يصل إلى خمسة أذرع بسمك يقارب أصبع الخنصر ويصل المردود إلى مائتين وأربعين حبة للبذرة الواحدة. وفي الربيع لا يتمّ البذر،بل يتم الإكتفاء بنبش الأرض بأغصان شائكة لأن الحبوب التي سقطت أثناء الحصاد الربيعي تعطي محصولا مكتملا في الصيف " [3].

غير أن قزال شكك في كل ما أورده سترابون قائلا " إنها أساطير وأن هذا الرقم المرتفع جدا،والذي يُنسب إلى عدّة مناطق من بلاد البربر في عز العهد الإسلامي ليس عاديا وفي حالة ما إذا ثبت هذا المردود، فإنه يدخل ضمن الخوارق النباتية[4]، ولكن مسألة الجني مرتين ممكنة وقد وردت في القديم، غيرأن الجني مرتين ولنفس المحصول يُجهد التربة فيجب اختيار محصول آخر مثل الذرة البيضاء [5].

ب الأشجار المثمرة:

مع احتلال الحبوب مكان الصدارة في الانتاج الزراعي النوميدي وهو ما أقرّته المصادر المختلفة،إلاّأن الزراعات الأخرى ومنها الأشجار المثمرة،عرفت إنتاجا وفيرًا وخاصة الزيتون و التين و العنب و اللوز و التمور،كما تطور إنتاج الفواكه بعد استرداد ماسينيسا للأراضي التي اعتبرها ملك أجداده شرقا و التي كانت تزخر بعدّة أنواع من الأشجار المثمرة أدْخل عليها الفينيقيون و أحفادهم القرطاجيون فواكه أخرى كالتفاح و الرمان.

إن الظروف المناخية لبلاد المغرب سمحت للعديد من الأنواع أن تنمو وتتكاثر،بل وتعطي المردود الجيد مثلها مثل مواطنها الأصلية تماما.

---

(1) -Salluste,op.cit.,XVII.

(2) يقع سهل كنيبس بين السرت الكبير و السرت الصغير بليبيا حاليا.

(3) -Strabon,II,3.

(4) جاء في القرآن الكريم قوله تعالى:" مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئةُ حبّة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم " (صدق الله العظيم)سورة البقرة، الآية 261.

(5) -S.Gsell,op.cit.,T.V,pp.194-195.

- الزيتون:

كما أسلفنا ومع أن أصلها يعود إلى الشرق،فقد احتفظت مع انتشارها باسمها السامي الذي عُرفت به الشجرة والثمرة على حد سواء.وقد جاء في القرآن الكريم:":"وشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سِينَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وصِبْغٍ لِلْآكِلِين".(صدق الله العظيم) [1].

وفي بلاد المغرب أكّدت المتحجّرات النباتية و الرواسب وجود أشجار زيتية (Oléastre) في خليج قابس تعود إلى الألف السابعة وتمثلت في نبات تطور على الزيتون و الفستق [2].

وتجد كلمة " زبّوج " التي تعني (الزيتون البري) لها نفس الدلالة عند البربر ولا تزال موجودة إلى اليوم،غير أنهم يُسمُّون (أزمور) الزيتون المُلقم أما عن الثمار والزيت فيطلقون عليها اسم زيتون وزيت [3].

وقد أسلفنا أن بلين تحدّث عن شجرة الزيتون الألفية التي تعمّر لعدة قرون وتعطي مردودا خياليا.وقد يعود طول عمر شجرة الزيتون إلى فصْل الفسيل عن الزيتونة الأم و غراسته فيُعطي منتوجا بنفس المواصفات، وهكذا يُطبّق نفس الإجراء كلما دعت الحاجة، لتتوالد أشجار الزيتون من بعضها لقرون عديدة. [4]

أما التلقيم فقد أسلفنا بأنه تقنية أدخلها الفينيقيون لبلاد المغرب.وبخصوص صناعة الزيت، فخلافا للمعصرة البونية السالفة الذكر فإن البربر عرفوا أساليب محلية أصيلة.

---

(1) سورة المؤمنون،الآية رقم20 .

(2) -Rouvillois- Brigol(M) ,La steppisation en Tunisie depuis l'époque punique: détermination humaine ou climatique in BAC,colloque de grenoble 1983,p.218.

(3) -S.Gsell,op.cit.,p.202.

- لا يزال اسم" أزمور" أو " زمور" يطلق على عدة مواقع في بلاد المغرب إلى اليوم منها قرية زمور قرب مدينة قليبية في تونس،وزموري البحري قرب مدينة بومرداس بالجزائر،وقرية أزمور على مصب نهر أم الربيع بالمغرب،وكل هذه المواقع تحفل بأشجار الزيتون .

(4) - Pline,op.cit. XVII,129.

- نفس هذه التقنية لا تزال تطبق على النخيل إلى اليوم،فإذا أريد الحصول على النوع الأصيل من التمر وجب غرس فسيل من النخلة الأم،وإذا استُعمل الفسيل الناتج من نواة الثمرة الأصلية فسيكون الثمار مختلفا.وقد استطاعت الهندسة الوراثية عن طريق الاستنساخ استحضار عدد الفسائل المرغوب فيها مخبريا.

فعند قبائل بني سنـَاسِنْ بـالمغرب الأقصى "يتعلـّق الأمـر بحفر أحواض في الصخر الصلب لسحق الزيتون وتحتها حوض شبه دائري لترسيب الزيت،وتجلس النسوة على حافة الأحواض ليدُسْن بأقدامهن الزيتون المهروس مسبقا" [1].

وبعد ضمّ الأراضي القرطاجية،ورث النوميديون ما وجدوه من معاصر للزيتون مثل معصرة سيرتا التي تتطابق مع معصرة قمّرت السالفة الذكر،ومع أنه ليس لدينا مصادر تتحدث عن كمية الإنتاج،ومع أن إنتاج صناعة الزيت قد يكون من الوفرة بحيث يشكل إكتفاءً ذاتيا أو موضوعا للتصدير،إلا أن مسألة فرض يوليوس قيصر على مدينة لبدة غرامة بثلاثة ملايين رطل من الزيت سنويا [2] يدل بدون أدنى شك على مستوى التطور الذي شهدته زراعة الزيتون حتى وصل الإنتاج إلى هذا المستوى المذهل، ذلك أن مدينة لبدة لوحدها فقط، أصبحت قادرة على دفع كمية مماثلة،مع أنها ليست المركز الوحيد لإنتاج الزيت حتى و لو أنها كانت تنتج أكثر من حاجتها بكثير.وهنا لا بد أن نتساءل عمّا إذا كانت الزيوت قد شكّلت مجالا للتصدير خاصة وأن الزيت الروماني وزيوت مناطق أخرى من حوض المتوسط حاضرة في الأسواق العالمية آنذاك [3].

- التين:

لا يزال التين يلعب دورا كبيرا في اقتصاد الشمال المغاربي مثل دور التمور عند سكان الواحات،وهذا يوحي بتراث جدّ قديم في غراسة التين و الإعتناء به [4].

غير أن التين وإن كان معروفا بصفته البرية، فإنه لم يكن صالحا للإستهلاك حتى مجيء الفينيقيين الذين أدخلوا عليه تقنيات التأبير و التلقيم فأصبح التين الإفريقي (figus Africana) والتين الليبي (figus libyas) كلاهما ذو شهرة إخترقت الآفاق،حتى أن هذه الشهرة كانت وراء توصية كاتون لغراسة هذه الفاكهة في إيطاليا.و قد كانت وراء دعوته مجلس شيوخ روما لتدمير قرطاجة إذ

---

[1] -A. Samuel , Bassin de décantation d'huile, Beni Sinassen au Maroc oriental in encyclopédie Berber n°29, p.1.

[2] -J.César,La Guerre d'Afrique,XCVII,3,Traduction de A.Bouvet.Ed.Les Belles Lettres,Paris,1949.

[3] - S.Gsell,op.cit.,p.203.

[4] -M .Hammad :Arboriculture fruitiere berbère in encyclopedie berbère , n°.30,1982, p.2.

لم يجد،ما يأخذه من أرضها إلى أعضائه،سوى حبات من فاكهة التين قائلا " إن الأرض التي تُنتج هذا التين تقع على مسيرة ثلاثة أيام منكم" [1].

لقد كان منتوج التين من الوفرة بحيث تعدّى الإستهلاك الفصلي، والتجفيف، إلى التصبير. فقد تأكّد أثريا وجود منشآت قرب سوسة حيث مدينة حضرموت (Hadrumète)،قد تكون استُعملت لتصبير التين [2].

- الكروم:

كما سبق،علمنا أن الكروم البِرِّيَة عُرفت منذ القديم في بلاد المغرب،ولكن هل نستطيع القول بأن الليبيين قد عرفوا زراعتها قبل توافد الفينيقيين؟.

إن الدّلائل اللغوية تقول بوجود مساهمة محلية في مجال زراعة الكروم حيث نجد المُسمّيات البربرية لها في العديد من اللهجات ألفاظا مشتركة. فالكرمة (شجرة العنب) يُطلق عليها اسم " إيزورين " ويُطلق على العنب إسم " أديف " أو " تيزارين " [3].

وعن استهلاك الخمور يقول قزال " إن النوميديين يتذوقون الخمر أكثر من العنب ولكن ميولاتهم للعربدة كانت قليلة،و الخمر المستورد أو المصنوع حول المدن البونية لا يصلهم وهم لا يصنعونه أو يصنعون القليل منه [4].

أما عن تصدير الخمور فيبدو أنه ربما يكون قد تم نحو جزر اليونان بعد أن توسعت أملاك النوميديين شرقا على حساب قرطاج بينما كان استيراد الخمور يتم من إيطاليا و "رودس" [5].

وإذا كان بعض المؤرخين القدامى قد أشادوا بإنتاج كروم نوميديا وخمورها بعد خمور كريت [6] مرتبة، فإن الفترة موضوع الإشادة تكون بدون شك بعد التوسّع على حساب قرطاج أي بعد أن ورث النوميديون الأرض وما حوت من زرع و ضرع،لأن الخمر الإفريقي الذي تُعالَجُ حموضته بالجبس أوالجِير أحيانا لا يُعتقد أنه سيكون موضوع ترحيب في الأسواق

---

(1) -G.Walter,op.cit.,pp.468-470.
(2) -L.Foucher,Hadrumète,P.U.F,Paris,1964,p.91.
(3) -R. Lequement , La vie africaine à l'époque impériale ,in A.A,T XVI,1989, p185.
(4) -S.Gsell, op.cit.,p.202.
(5) - Ibid,p.203.
(6) -Pline,op.cit.,XIV,2.

الخارجية لحوض المتوسط حيث الخمور اليونانية والرومانية[1].

وإذا كان المغاربة القدامى يُعمّرون طويلا فإن ذلك بدون شك يكمن في ابتعادهم عن الخمور و المواد التي تعجّل بالشيخوخة.

ج- نخيل التمور:

ذكر هيرودوت كما أسلفنا،وفرة إنتاج نخيل"أوجلة"فقد استقر السكان حول واحاتها و أنشأوا نظاما للرّي لا تزال تقنياته مستعملة إلى اليوم في بعض مواقع بلاد المغرب[2].

وإذا كان البونيون قد جعلوا من النخلة موضوع تعبّد،ظهر في بعض النقائش،فإن قيمتها الزراعية ليست بهذه الأهمية لأن أرض قرطاج التي تنحصر في الشمال والوطن القبلي وجزء من الساحل لا تنتج تمرا،وإن أنتجته فهو من النوع الرديء نظرا للظروف المناخية الرطبة،وموطن النخيل يبدأ من تاكاب Tacape (قابس) وينتشر إلى الجنوب منها حتى فزان[3] ليتواصل حتى واحة سيوه بمصر، بينما يتواصل غربا حتى أعمدة هرقل على شكل واحات متتالية تفصل بينها مسيرة عشرة أيام[4]،كما نقلنا عن هيرودوت سالفا،وتتطابق مع مواقع الواحات اليوم[5] وإن كانت ضاربة في القدم حتى قبل عصر هيرودوت.

إن مسميات التمور تحمل أقوى الدلالات على قِدم غراسة النخيل في بلاد المغرب القديم .ولعل المسميات الأمازيغية للعديد من أنواع التمور، التي وردت في كتاب الصروف في تاريخ الصحراء وسوف[6]، تُحيلنا إلى أصالة بعضها من خلال ما تزخر به بلاد المغرب من أنواع لا تزال معروفة إلى اليوم (أنظر : الملحق رقم 7) .

---

(1) -Ibid,XVI,12.

(2) -J .Tixéront, op.cit., p.29.

(3) فزان: مقاطعة ليبية في أقصى الجنوب الغربي بليبيا عاصمتها سبها.

(4) لعل السر في أن تقام الواحات الواحدة على مسافة من الأخرى هي تعمير الصحراء في سلسلة متتالية من الواحات وهذا ما كفل لها توازنها البيئي بتوالد قراها تباعا .وحين استقر السكان وتضخمت المدن كانت الكارثة الإيكولوجية التي عرفتها عدة مناطق صحراوية وخاصة صحراء العرق الشرقي و المتمثلة في ظاهرة صعود المياه في ولايتي الوادي و ورقلة.

(5) لعبت الواحات دورا كبيرا كمحطات استراتيجية لجيوش الفتح الاسلامي منذ حملة عقبة الأولى لما توفره من ماء ومؤونة أساسها التمور. -J .Tixéront, op.cit., p.100.

(6) الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تأليف إبراهيم إبن محمد الساسي العوامر، تعليق الجيلاني بن إبراهيم العوامر،الدار التونسية للنشر و التوزيع،تونس/ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1977.

وتنتمي بعض هذه الواحات إلى القرطاجيين حول السرت الكبير و الصغير والبعض الآخر داخل القارة مثل جنوب تونس حيث مدينة قفصة ذات التمور قليلة الجودة مثلها في ذلك مثل واحات السواحل [1]. وقد ورث النوميديون تلك الواحات بعد استرداد ماسينيسا أرض أجداده من القرطاجيين

وقد استطاع السكان المستقرون في هذه الواحات ممارسة الزراعة المتدرجة: نخيل،أشجار مثمرة ،حبوب أو خضر، وذلك باستعمال المعزقة(المعول) وليس المحراث، مثلما هو الحال على أيامنا تماما[2].

د- الخضر :

لم يقتصر الإنتاج النباتي في نوميديا على الحبوب و التمور والأشجار المثمرة ،ولكن تعدّاه إلى إنتاج الخضر التي كانت معروفة لديهم مثل الفول و العدس والجلبان[3]. كما أورد بلين إنتاج البصل والخرشوف [4]مع إنتاج الكرّاث والقرع و الكوسة والخيار[5] .

ومن البديهي أن النوميديين،وبعد توسعهم على حساب قرطاج أصبحوا ينتجون مختلف أنواع الفواكه كالرمان و التفاح و اللوز، وأصبحت الخضر مثل عهدنا تماما من اختصاص المزارعين حول المدن الكبرى[6]،هذه المدن التي شكلت أسواقا داخلية يلتقي عندها المزارعون والموّالون و الحرفيون لتكتمل الدورة الإقتصادية فيعرض المزارعون فائض إنتاجهم من الحبوب، والرعاة ماشيتهم وأصوافها وجلودها، والحضريون موادهم المُصنّعة من آلات زراعية و أوانٍ [7] .

ومن المؤكد أن الفصل المواتي لهذه التجمعات التجارية الكبرى هو الصيف بعد موسم الحصاد الذي يكون فيه المحصول جاهزا للتسويق. وهو كذلك فصل صعود الرّحّل في هجرتهم إلى التّل بماشيتهم،وهو أيضا نفس الفصل الذي يتهيأ فيه المزارعون لموسم البذر المقبل .

لقد كان الإنتاج الزراعي النوميدي محل تبادل داخلي ،ليس في أسواق المدن الرئسية فقط،بل كان يتم كذلك بين أقاليم نوميديا من خلال موانئ صلداي (بجاية) وإيول (شرشال) وبين إيول

---

(1) -S.Gsell,op.cit.,p205.
(2) -Ibid,p.203.
(3) -G.Camps, Massinissa……,op.cit., p.80.
(4) -Pline,op.cit.,IX,22.
(5) -Camps,op.cit.,p.81.
(6) -S.Gsell,op.cit.,T.VI,p.79.
- أهم المدن: باجة (Vaga) والكاف (Siga)،وسيرتا (Cirta) .
(7) محمد الهادي حارش،المرجع السابق،ص. 148.

و قونوقـــو (قورايـــــة) وظـــل هـــذا التبـــادل قائمـــا إلـــى وقـــت متـــأخر[1].

وهكذا تكون الزراعة في نوميديا قد خلقت حركية اقتصادية بين المدن و الأقاليم مما كان له بدون شك الأثر على العلاقات الاجتماعية بنقل التجارب والأفكار مع الإختلاط عن طريق الإتصال والمصاهرة وكانت محصلة كل ذلك المساهمة في نسج ملامح الشخصية المغاربية المتفردة. مع أنه لا يجب أن ننسى أنّ رواج المنتوج الزراعي المغاربي في الأسواق الداخلية قد جلب له الوسطاء من الأجانب لتصبح المدن النوميدية مراكز كبرى تستقطب رأس المال من كبار التجار في المجال المتوسطي. ولم يقتصر هذا التبادل التجاري عن بلدان الحوض الغربي للمتوسط القريب من نوميديا مثل إيطاليا وبلاد غالة وشبه جزيرة إيبيريا،بل تعداه إلى الحوض الشرقي مثل بلاد الإغريق ومصر وجزر البحر الأيوني[2] .

وهذا ما لفت لبلاد المغرب أنظار الطامعين وجلب لها الإستيطان المبكر لتبقى على مرّ العصور منطقة جذب بشري سواء من الجنوب أو الشرق أو الشمال .

إن اهتمام ماسينيسا بالزراعة لم يكن طفرة خاصة بعهده، بل تعدّاه إلى كل من خلفوه على عرش نوميديا،حتى بعد تقسيمها لأن ملوكها توارثوا سياسة الملك المُوَحِّد فاتّبعوا منهجها رغم الحروب و الفتن التي طبعت المنطقة بعد الإحتلال الروماني.

لقد ازدهرت الزراعة في أجزاء كبيرة من نوميديا ، على عهد يوغورطة [3] وتواصل ذلك على عهد يوبا الثاني،وذلك خلافا لجارتها مملكة موريتانيا التي كانت متخلّفة عن نوميديا لأن قيمة أرضها،كما أورد قزال عن بُمبنيوُس ميلا،"تفوق قيمة رجالها ولم يكن لهم معلّم كماسينيسا"[4].

---

[1] **المرجع نفسه،ص. 149.**

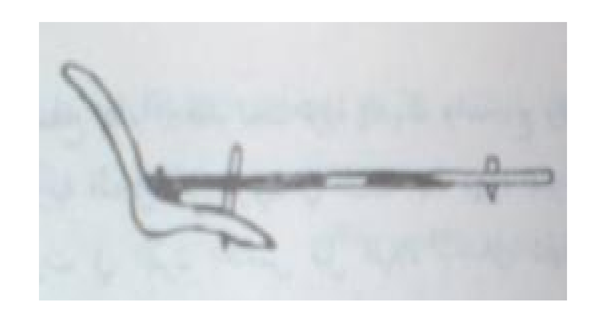
[2] **المرجع نفسه :ص ص. 153-162.**

- شملت بلاد غالة:فرنسا وبلجيكا وشمال إيطاليا،إحتلها يوليوس قيصربين 58 و50 ق.م

[3] **-Salluste,op.cit.,XVI,XLVI,XVLII.**

[4] **-S.Gsell,op.cit.,T.V,p.190.**





الصورة أ :محراث بيد مزحفية
(من الأوراس،عن محمد الهادي حارش،.op.cit,p.116-)

الصورة ب: آلة طحن الحبوب المعروفة بالرّحى



الصورة ج:عملة ماسينيسا نُقش عليها حصان.
عن: -M.Kaddache,op.cit.,p.67.

الشكل رقم بعض مظاهر الزراعة النوميدية 8.

2 - الإنتاج الحيواني:

إعتمدت المنظومة الحضارية المغاربية ،كما أسلفنا،على القبيلة التي تطبعها حياة الحل و الترحال متمركزة حول مورد إقتصادي أساسي هو القطيع الذي يتشكل من حيوانات صغيرة وأخرى كبيرة توفر الغذاء من لحوم وألبان،والكساء من جلود وأصواف وشعر،كما توفر وسائل للنقل،قبل أن توفر قوة الجرّ عند الحرث وقوّة الدّرس عند الحصاد،وذلك بعد أن شرعت بعض القبائل في الإستقرار الدائم أو الموسمي مع بداية حكم الملوك النوميديين خاصة. وحتى سياسة التّوطين لماسينيسا أو مسيبسا أو يوبا الأول تدل على أن الملوك استمدوا قوّتهم من القبيلة الضاربة في القدم لفرض سلطانهم حتى لو اختاروا المُدن كمقرّات لحكمهم [1].

ومع سياسة التوطين و الإستقرار بقيت تربية الحيوانات تحتل مرتبة عظمى في إقتصاد النوميديين حتى بالنسبة للقبائل التي انخرطت في الإستقرار ومارست الزراعة. وهنا يمكن تصديق ما أورده بوليب من "أن كثرة الأحصنة والثيران والأغنام وحتى الماعز في هذه المنطقة هي من الوفرة بحيث لا أظن أنه يوجد مكان مماثل لها في العالم"[2]. ولعل استعراضنا للخيول كأهم الحيوانات في نوميديا ما يؤكد كتابات بوليب وأمثاله من الأولين[3].

أ- الخيول النوميدية:

لعب الحصان لدى النوميديين دورًا كبيرًا في زمن السلم كما في زمن الحرب، وقد انتشر الحصان حتى في الصحراء،ولكن تعاطي تربيته كانت مقتصرة على نوميديا. وليس أدل على أهمية الخيل وقيمتها، من النسبة المرتفعة للفرسان بالنسبة إلى المُشاة في الجيوش النوميدية وحتى القرطاجية.

---

(1) -G.Camps,op.cit.,p.51.

(2) -Polype, op.cit.,XVII ,5.

- إن توفر المراعي في الجبال والمنحدرات وخاصة في السهول المرتفعة جعلت بلاد المغرب منذ القديم موطنا لتربية الحيوانات بكثافة غير معهودة وقد درّت على الموالين عبر العصور أرباحا طائلة حتى أن سوق الماشية في بعض مناطق الجزائر لا يزال يعرف إلى اليوم سوق المال.

(3) من الذين أشادوا بالإنتاج الحيواني في بلاد المغرب القديم بالإضافة إلى هيرودوت، سترابون، بلين،سالوست، بومبينيوس ميلا، وتتليف و أبيانوس.

" ونحن نعلم كم كان الفرسان النوميديون فاعلين في جيوش قرطاج وكم كانت فاعليتهم مجدية لملوكهم وللرومان أيضا "[1]ففي عهد هيمبْسال كان باستطاعة سيرتا لوحدها توفير عشرة آلاف حصان للملك النوميدي،وكان من عادة الملوك الإعتناء الفائق بخيولهم، وكانوا يأمرون بإحصاء الأمهار المولودة كل سنة [2] .

وقد عشق الملوك ركوب الخيل تماما مثل رعاياهم،وفرضوا على الأمراء تشكيل جيش من الفرسان لتوطيد سلطتهم،ولعل فوز أحصنة مصطنبعل في سنتي 168و164 ق.م بجوائز في الألعاب الأثينية أكبر دليل على قدرة الحصان النوميدي التنافسية التي ضربت الآفاق فبيع منها حوالي 4000 فرس على عهد ماسينيسا بين200و170 ق.م، وقد بلغ من حب الحصان عند ملوك نوميديا أن نقشوه على عملتهم لأنهم إعتبروه رمزا لمملكتهم[3] ومصدر قوتهم وتوطيد حكمهم. (أنظر الشكل رقم 8 ج، ص. 156)

- صفات الحصان النوميدي:

علمنا أن الحصان المغاربي أو النوميدي وصل بلاد المغرب عن طريق مصر والصحراء،لهذا نستطيع القول أن الحصان قد سلك نفس الطريق الذي سلكه الحصان العربي في تواجده ببلاد المغرب[4] .

ويتصف الحصان النوميدي " برأس كبير نوعا ما، وجبهة محدّبة مع قلة بروز في قوسي محجريه،وبقصبة أنف معقوفة(chanfrein) ،وخدين (عارضين) قويين،ومنخرين متوسطين،وشفاه دقيقة وفم صغير وأذنين مستقيمتين صغيرتين وعنق مدوّر وعريض،وعُرف كثيف،وغارب مرتفع وصهوة وأصلاب قصيرة وكفل قصير وحاد وذيل كثّ مشدود إلى الأسفل وقوائم قوية،وهو قليل الإرتفاع(متوسط1.50متر)مختلف البوص(اللون)ويطغى عليه اللون الرمادي،وهو في هيئته العامة

---

(1) **-S.Gsell,op.cit., p.181.**

(2) **-Strabon, op.cit., XVII,3,13et19 .**

- أعطى سترايون رقم 100 ألف مهر سنويا ونحن نؤيد رأي قزال الذي رأى مبالغة مفرطة فيه لأن البلاد على عهده لا تملك أكثر من 220 ألف رأس لذلك فقد اقترح عشر العدد أي 10 عشرة آلاف حصان.

(3) **-S.Gsell,op.cit.,p.182.**

- من المؤكد أن يكون هذا العدد موزع على دفعات غطت السنوات المذكورة .

(4) **توجد النماذج الأصلية من الحصان العربي في بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية فقد ورد في معلقة امرئ القيس الكندي وصفا دقيق له : مكــر مفــر مقبل مدبــر معــا * كجلمود صخر حطه السيل من عــل...**

له أيـــــــطلا ظـــبي وساقا*وإرخـــــاء سرحان وتقريب تــتــفل

- أنظر: أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات السبع،دارالفكر،بيروت،ب ت،ص ص. 40-45.

ثقيل يفتقد الرشاقة ولكنه يملك خصالا كبيرة،من طاعة وسرعة وقوّة ومقاومة للحرمان والتعب"[1](أنظر الشكل رقم 9،أ، ص.162).

أما الحصان العربي فيتصف بجبهته العريضة المسطحة،وقوسي محجريه البارزين وقصبة أنفه المستقيمةأوقليلة التحدّب،وخديه المسطحين ومنخريه الأعرض من الحصان النوميدي وأذنيه الصغيرتين،وعُرفه الأقل كثافة والأكثر نعومة،وهو خفيف جيد الهيئة برشاقة وانسجام لا يستثنيان القوة [2](أنظر شكل رقم 9،ب،ص.162).وقد أنتشر هذا الحصان في بلاد المغرب والأندلس مع الفتح الإسلامي و تمّ تزاوجه مع كل من الحصان المغاربي والأوروبي[3].وإذا كانت الهيئة العامة للحصان العربي تبدو أجمل وأكثر رشاقة،"إلاّ أن الحصان النوميدي يتّصف بشدّة التحمل، فهو لا يتطلب عناية إذ لا يكلف صاحبه عناء غسله أو تنظيف حوافره،أو مشط عرفه،فبعد رحلة طويلة يترجل الفارس ويتركه يبحث عن قوته في المراعي القريبة وهو يصبر على الجوع والعطش،ولا يأكل الشعير،ويتغذى على العشب ولا يشرب إلا نادرًا"[4].وبالإضافة إلى ذلك فالحصان النوميدي طيع،سهل التربية والإنقياد ويركبه حتى الأطفال،ويتبع مالكه ويطيعه كما يفعل الكلب[5]وهو حسّاس لصوت الناي الذي يُنظّم مِشيته عند الحاجة[6].ونظرا للصفات المُشار إليها آنفا شغف النوميديون بأحصنتهم ونشأت بينهم وبينها علاقة وجدانية تجلت في عدم تعريضها للأعمال المضنية كالجرّ والحرث

---

(1) -S. Gsell,op.cit., pp.229-230.

(2) -Ibid .

(3) -تم تدجين الحصان الأنجليزي(Pur sang)من الحصان العربي منذ القرن السابع عشر عند ما أدخل بعض المُورّدين نماذج منه إلى بريطانيا.انظر:قزال - Ibid.

(4) -S.Gsell,op.cit.,T.V,p.183 .

(5) -Strabon, XVII 3.7.

(6) لا يزال الفرس يشكل مجالا واسعا للإهتمام و الإحتفال عند البدو والذين يركبون الخيل وهي ترقص على أنغام الزرنة كما تفعل بعض القبائل في محيط القيروان بتونس وتيارت بالجزائر.

لتبقى مطيّة لرحلات الصيد والتجوال والقتال فلقد أشتهر النوميديون بأنهم فرسان مهرة منذ الطفولة .[1]

ومن عادة النوميديين ركوب الخيل بدون سرج[2] وهذا ما تؤكده المصادر والنقوش فقد داوم ماسينيسا على ركوب الخيل بدون سرج مثل رعاياه حتى سن الثامنة والثمانين ويبقى الحصان عاريا من دون سرج أو زينة ماعدا عِقد قد تُعلّق به بعض التعويذات كما يظهره نُصب وُجد بمنطقة القبائل يحتوي حصانا محاربا يحمل ما يشبه التعويذات في عنقه.[3] (أنظر الشكل رقم 9،ج،ص.162) .

ب-الضأن والماعز:

لم يكن الليبيون من أكلة لحم الخنزير تماما كجيرانهم الوافدين الفنيقيين،غير أن الحيوانات الصغيرة الأخرى كانت محل إشادة من طرف بعض المؤرخين القدامى مثل بوليب الذي أكّد وفرة هذا المنتوج الحيواني[4] ولم يكن الليبيون يأكلون عادة لحوم الضأن والماعز ولكن كانوا يجعلونها موارد للألبان والصوف والشعر، وذلك لأن المصدر الرئيسي للحوم عندهم هي الطرائد التي يوفرّها القنص، كما يُربّى الماعز مع الأغنام وتستخدم الأصواف والشعر في صناعة الملابس[5] مع إستخدام الجلود في صناعة الملابس والنعال والدّروع. (أنظر الشكل رقم 9،د-هـ ،ص.162) .

ج-الأبقار:

بالإضافة إلى دورها الغذائي في توفير اللحوم والألبان،ودورها الصناعي في توفير الجلود[6]،لعبت الأبقار دورها في الحرث بجرّ المحراث،ودرس السنابل بعد الحصاد،ولا تزال الثيران تستخدم في المغرب الأقصى بالأطلس الأوسط لجر المحاريث ودرس السنابل. (أنظر الشكل رقم 9،و ،ص.162).

أما عن أهمية تربية الأبقار في نوميديا،فيمكن أن نذكر ما فرضته قرطاج على القبائل النوميدية من غرامة تمثلت في 20ألف رأس من الأبقار عقابا لها لتحالفها مع ريغولوس(Regulus)

---

(1) -S.Gsell,op.cit.,p.185.note N° 4 .

(2) -Ibid ,note n° 5. 6 p.185.

(3) -Ibid ,note n° 9.

(4) كان بوليب من أهم من كتبوا عن نوميديا،وقد عاصر العاهل النوميدي ماسينيسا الذي استضافه وبجّله فكتب بوليب عنه ومجّده.

(5) -S.Gsell,op.cit., p.179.

(6) - بالإضافة إلى النعال كانت بعض جلود البقر تستخدم لصناعة الدروع لصلابتها وخفتها .

فـــي أواســـط القـــرن الثالـــث قبـــل المـــيلاد [1]ورغـــم مـــا فـــي العـــدد مـــن مبالغـــة، إلاّ أن منطقتي الشمال الغربي والوسط التونسيتين كانتا ولا تزالان موطناً لتربية الأبقار.وقد تكون هذه المضارب هي نفسها مضارب القبائل المتحالفة مع المغامر المذكور أنفا .

د- تربية النحل:

تحدّث هيرودوت عن إنتاج العسل في القرن الخامس قبل الميلاد[2]وأبرز بلين وفرة العسل وجودته في القرن الأول الميلادي [3] وبين التاريخين المذكورين نستخلص أصالة تربية النحل عند النوميديين وقد استفادوا في ذلك من خبرة القرطاجيين.وقد كانت للبربر عدّة أنواع من الخلايا المـــستطيلة والإســـطوانية مـــصنوعة مـــن الخُـــوص أو القـــصب أو جـــذوع الأشـــجار أو لحاء الفلين أو من الطين المشوي[4].

وقد تجاوزت شهرة العسل الإفريقي الآفاق،وكان محل طلب كبير وساهم في قيمة الصادرات النوميدية[5].

ومن كل ما تقدّم نلمسُ بوضوح مجمل الجهود التي بذلها النوميديون في مجال الزراعة بإنتاجها النباتي والحيواني على حد سواء. وقد حققت سياسة الملوك النوميديين منذ عهد الملك ماسينيسا، الإكتفاء الذاتي بل تعدّته إلى تحقيق الأمن الغذائي مع تأمين الغذاء لبعض المجتمعات المتوسطية. ويُمثّل كل ذلك أرقى ما يمكن أن تصل إليه الأمم وخاصة مملكة نوميديا الناشئة وسط تحديات وتوازنات دولية وأخطار تتّسم بالتنافس والتسابق على مناطق النفوذ ومصادر الثروة وخاصة ثروة الغذاء.

لقد تناولنا أهم المنتوجات الزراعية الأساسية التي تُشكل مواد إستراتيجية في فترات السلم وتزداد أهميتها خلال الحروب وفترات الحصار،ويأتي القمح على رأسها جميعا.

مع استقرار الإنسان وامتهانه الزراعة وتدجين واستئناس الحيوانات وتربيتها،لم ينس

---

[1] - S.Gsell,op.cit., pp.179-180.

[2] -Hérodote,IV, 194 .

[3] -Pline,XVI , 49.

[4] -S.Gsell,op.cit.,p.205.

[5] محمد الهادي حارش، المرجع السابق ص.155.




صورة أ:حصان مغاربي عن:.Encarta,2005 صورة ب:حصان عربي.عن:

- E.Villena,Technicien en elevage,Ed,Cultural,2003,p.121.




صورة ج:نقشان للحصان على عملتين نوميديتين يبدو فيها بدون سرج.
عن:.M.kaddache,op.cit,pp.72-101-



صورة د:كبش من سلالة ميرينوس
عن: .E.Villena,op.cit.,p.82-



صورة هـ: عنز محلية مغاربية.
عن الموقع: WWW.INRA.COM-



صورة و: ثور للجر والدرس . E.Villena,op.cit.,p.239-

الشكل 9: حيوانات مغاربية أليفة .

استثمار بيئتة الطبيعية كمورد مكمل للزراعة كاستغلال الغابات وما تعج به من حيوانات برية و مفترسة.

لقد استُغلت بعض أخشاب الغابات في عهد ملوك نوميديا مثل العفصية (Thuya) التي استُنْزفت لحد اختفائها نهائيا [1] ومما لا شك فيه أن أخشاب غابات العفصية الغنّاء قد كانت محل نهب لأنها تُستخدَم في الأثاث الفاخر الذي يزين بيوت الحكام والأثرياء[2].

وبالإضافة إلى استغلالها في تسقيف المنازل،فقد استُغلت الأخشاب في صناعة القوارب و السفن في موانئ المدن الساحلية حيث تنتشر غابات الصنوبر والبلّوط وغيرها في الجبال المحاذية لها.وهذا ما شجّع النوميديين لاستغلالها لبناء الأسطول التجاري الذي نقل المنتوجات النوميدية وعلى رأسها القمح إلى جزر اليونان وغيرها [3].

أما الحيوانات البرية فقد شكلت طرائد تغذى على لحومها النوميديون.بينما أضافت لهم الحيوانات المتوحشة موردا ماليا ومنها الفيَلة التي كانت محل تربية ورعاية بعد قنصها.وقد أرسل ماسينيسا مجموعتين منها إلى جيوش روما المحاربة في كل من إسبانيا ومقدونيا[4].

وشكلت الأسود والفهود والدببة موردا آخر للتجارة الخارجية لاستغلالها في ألعاب روما[5].دون أن ننسى الصناعات الجلدية التي توفّرها الحيوانات المختلفة، مثل جلد الفيل الذي تُصنع منه دروعاً تجمع بين الخفّة والصلابة، مِمّا يُساعد على سهولة تحرّك الجندي بدون ضجيج بما يضمن عنصر المفاجأة عند نصب الكمائن[6] .

إن هذه الثروات مجتمعة،أثرت النوميديين وخزينتهم ،وكان لابد لها من أسطول تجاري بحري لنقلها إلى الأسواق المختلفة سواء في الحوض الغربي أو الشرقي للبحر المتوسط ،وقد تحوّلت بعض المدن الساحلية الكبرى إلى ما يشبه منطقة التبادل الحر نظرا لتدفّق السلع وتوافد التجار والوسطاء[7].

رابعا:نتائج سياسة ماسينيسا الزراعية :

كان لخيار سياسة ماسينيسا في توطين البدو الرحل أن مَكّـن نوميديا سواء في عهده أوفي عهود من خلفوه أن حققت عدّة نتائج أدخلت البلاد من خلال الإستقرار والزراعة إلى مستوى

---

[1] -S.Gsell,op.cit.,p.211.

[2] -العفصية: أشجارها من فصيلة الصنوبريات وتتميز بسرعة نموها .

[3] محمد الهادي حارش،المرجع السابق،ص ص. 150-152.

[4] أرسل مسينيسا مجموعة من الفيلة إلى الجيش الروماني المحارب في إسبانيا بقيادة ليكولُوس Lucullus وإلى جيشها المحارب ببرسة بمقدونيا أرسل مجموعة ثانية.أما يوغرطة حفيد مسينيسا فقد طبع صورة الفيل على أحد وجهي عملته.

[5] اشتهر الرومان بمصارعة الحيوانات المفترسة والتي تقام لها حلبات خاصة(arène) تنتهي حتما بموت الحيوان المفترس أو المصارع .

[6] -Jugurtha,op.cit.,XCIV.

[7] إبراهيم صبحي تاريخ الرومان من أقدم العصور حتى 133 ق.م ج1 مكتبة الأنجلاء ،القاهرة 1983 ص.341 .

حضاري مكّـنها من ُمسايرة البلدان المتوسطية المعاصرة لها والتفاعل معها باقتدار وندّية سواء تعلق الأمر ببلدان الحوض الغربي الذي تنتمي إليه نوميديا أو بلدان الحوض الشرقي للمتوسط الذي شهد أقدم الحضارات الإنسانية.

مع أن قزال رأى مبالغة المؤرخين القدامى من أمثال بوليب و سترابون وأبيان في تأكيدهم أن ماسينيسا هو الذي أدخل الزراعة إلى نوميديا، إلا أنه لم ينفِ أن العاهل النوميدي هو ناشر الحياة الزراعية في الدولة الواسعة التي أسسها[1].غير أننا لا نرى في الأمر مبالغة على خلفية أنه لا بد لكل مشروع حضاري ناجح من رائد يتزعمه حتى يثـبُت على قدميه" فَـلِما لا تكون العناية هي التي جعلت ماسينيسا يستصلح رقعة واسعة من الأرض كان النوميديون فيها يتغذون على الحشائش فقط، لأنهم لم يعرفوا الزراعة من قبل ؟ " [2].

إن دور ماسينيسا، يتعدى دور الحاكم العادي،لأن الممارسات والأنشطة والنتائج الباهرة كانت بحجم نُـقلة حضارية كبيرة لا يمكن أن نُصنّفها أو نَصِفها بأقلّ من ثورة زراعية أبْرَزت حضور نوميديا الإقتصادي الذي دعّم كيانها السياسي فدخلت عصر التفاعل الإيجابي مع المحيط الدولي آنذاك.

وبدون مبالغة يمكن القول أن الإنتاج الزراعي النوميدي هو الذي جعل " موانئ المملكة بوابات على عالم البحر المتوسط،فيما عدا الموانئ المجاورة لقرطاج نفسها وذلك من سيقا حتى السرت الكبير" [3].

ومن خلال كل ما سبق يمكن إستخلاص نتائج سياسة ماسينيسا الزراعية وخلفه من بعده خاصة إبنه مسيبسا:

---

[1] -S. Gsell,op.cit., p. 187.

[2] **محمد الهادي حارش،المرجع السابق ص.95.**

[3] **نفس المرجع، ص. 151 .**

1- تثبيت السكان :

تم ذلك بعد عناء حياة الحل و الترحال وما ترتب عنهما من هواجس أمنية سواء من الحيوانات المفترسة آنذاك أو من قُطّاع الطرق أو غارات القبائل المتمرّدة أو المُعادية لنظام الإستقرار الذي هو شرط أساسي للتقدم الحضاري [1] .

2- تأسيس المناطق الحضرية :

إستلهم ماسينيسا من تنظيمات القرطاجيين نظاما إداريا محكما بحيث تُحكَم المدينة من طرف قضاة يُدعون بالأشفاط (Suffetes) وهذا بالموازاة مع مجالس القبائل في القرى وتنتشر المُدن من نهر (ملوشا) غربا حتى خليج السّرت شرقا،باستثناء ممتلكات قرطاج[2].

3- تثبيت العقار الفلاحي والملكية الزراعية:

تم ذلك عن طريق الإستصلاح طويل النفس على حساب الغابات والأحراش، وقد دام سنين طويلة وسمح بتوسّع الملكية الزراعية،بالإضافة إلى الأراضي الواسعة التي استردّها ماسينيسا من الإستيطان القرطاجي الذي انتزعها بالقوة من أجداده،وذلك بعد أن اتجهت قرطاج إلى الزراعة على إثر هزيمة أسطولها أمام الإغريق في هيميرَا سنة480 ق.م [3] .

4- توفير الأمن :

أمّنت حملات قنص الحيوانات المفترسة حول الأراضي المستصلحة وما حولها،المزارعين والرعاة معا لأنها تهم الرّعي والزراعة على حد سواء[4] كما كانت تؤمّن موارد مالية للتجارة الخارجية.

5- تحديد مسار تحرّك القبائل الرعوية :

طُبّق على القبائل التي لم تنخرط في الإستقرار والزراعة.ومع إيلافهم حياة الحل والترحال بقطعانهم بين الجنوب والتل صيفا بحثا عن الكلإ،نظرا للظروف المناخية المتباينة فحدّد لهم الملوك،وخاصة ماسينيسا مسالك مُحدّدة محافظة على الأمن واجتهدوا في تنظيم

---

(1) –S.Gsell,op.cit.,187.

(2) -Kaddache ,op.cit., p .75 .

(3) -F. Decret ,Carthage ou l’Empire de la mer,Ed. Seuil , Paris,1977,p.86 .

(4) -S.Gsell,op.cit.,p.176.

تنقلات الرحل ومنعهم من التجاوزات[1].

6- تعويد الرعايا النوميديين على الحس المدني(Civisime) :

أكّد سترابون أن ماسينيسا هو الذي جعل من النوميديين اجتماعيين كما جعل منهم مزارعين وذلك من خلال إكسابهم الإنضباط والطاعة المتمثلة في الإلتزام بدفع الضرائب العينية للدولة[2] النوميدية التي تضمن لهم بدورها الأمن والحماية،وهذا ما يفسر ضخامة كميات القمح عند الملوك [3] .

7- تأمين وحماية الرعايا الجدد من المزارعين:

نقصد بهم أولائك الذين كانوا تحت سلطة قرطاج والتزموا بدفع ضرائب عينية معقولة خلافا لما أرهقتهم به قرطاج من ضرائب مجحفة ،وفي ذلك تجسيد لشعار أفريقيا للأفارقة[4] أو بالأحرى أفريقيا وخيراتها للأفارقة.

8-تحقيق الأمن الغذائي للنوميديين:

استطاعت سياسة ماسينيسا وخلفه أن تضمن الإكتفاء الذاتي خاصة من الحبوب كمنتوج استراتيجي وتعدى الأمر إلى توفير الأمن الغذائي الذي سمح بتصدير فائض الإنتاج وذلك في زمن كانت فيه الحضارات العريقة والمعاصرة لنوميديا تستورد غذائها، بل منها من هجرت أرضها وخرجت تبحث عن أراض تنتج الغذاء[5].

9- تنشيط التجارة الداخلية:

نتج ذلك عن اكتمال الدورة الإقتصادية بعد الإستقرار وممارسة الزراعة ووفرة الإنتاج الذي حرّك السوق الداخلية،إذ إلتقى المزارعون لتصريف إنتاجهم،بالمربين لبيع مواشيهم والتقى هؤلاء جميعا بالحرفيين في المدن حتى أن بعض المؤرخين المحدثين أعادوا ثراء قرطا (سيرتا) إلى نشاط أحيائها التجارية التي يأتيها الناس من كل صوب فأصبحت الأسواق على شكل معارض أسبوعية[6].

---

(1) **-Ibid,p.178.**

(2) **-Strabon,XVII,3,15.**

(3) **-M.Kaddache,op.cit.,p.58.**

(4) **-Ibid,p.65.**

(5) **المقصود الإغريق و الذين استوردوا القمح والشعير من نوميديا،وهاجرت منهم أقوام استوطنت جنوب إيطاليا وصقلية لقرون عديدة ،بل استوطن بعضهم مواقع الساحل الليبي.وذلك قبل الاحتلال الروماني ، منذ 631 ق.م.**

(6) **محمد الهادي حارش، المرجع السابق،ص.148.**

10 – ظهور تجارة بينية بحرية:

إضافة إلى التجارة الداخلية البرية برزت حركة تجارية كبرى بين أقاليم نوميديا الواسعة." وفي هـذا الإطـار تكـشف لنـا النقـوش العلاقـات الواسـعة القائمـة بـين صـلداي (بجايـة)، و إيول شرشال، وبين هذه الأخيرة و قونوقو (قوراية)، وبين إيول و تنجيس(طنجة)،كما ظل الإتصال بين تنجيس والمرسى الكبير قائما عن طريق البحر حتى وقت متأخر" [1]، ولقد اهتم ماسينيسا بالمدن الساحلية وعزّزها بأسطول بحري تجاري إلى جانب أسطوله الحربي[2].

11- انبعاث تجارة خارجية نوميدية:

تقاطر الوسطاء والتجار نحو أهم المدن المغاربية وخاصة الساحلية منها فأضحت نوميديا متفتحة على العالم وكسرت احتكار قرطاج للتجارة الخارجية في بلاد المغرب [3] نظرا لتطور الإنتاج الزراعي النباتي أو الحيواني وتدفقه الدائم والمُتنامي ونتج عن ذلك فائضا سمح بتطور التجارة و المبادلات من خلال موانئ البلاد من مدن إقليم طرابلس شرقا إلى موانئ هيبو ريجيوس (بونة) و روسيكادا (سكيكدة)، وما يعزّز هذا التبادل هو العثور على بقايا أثرية تمثّلت في عملات عُثر عليها في مختلف موانئ جنوب المتوسط [4].

12 - تطور العلاقات النوميدية مع دول البحر المتوسط:

نشطت دبلوماسية الدول المتوسطية وسعت لكسب صداقة نوميديا من خلال التقرّب من ملوكها الذين كانوا محل تبجيل وتكريم وليس أدل على ذلك من أن بعض الجزر مثل ديلوس ورودس كرّمت ماسينيسا و هيمبسال بنصب تمثالين لهما في مدخل الميناءين الرئيسيين نظرا لضمان تدفق واردات المنتوجات الزراعية النوميدية [5].

13-التطور الاقتصادي والاجتماعي لنوميديا:

تجلّى ذلك في اتساع المدن واستتباب الأمن بحيث لم تُسَجّل تمرّدات أو حركات انفصال أو ثورات هدّدت المملكة بصفة جدّية في عهد ماسينيسا الطويل،حتى أصبحت سرتا العاصمة،محط رِحَال العلماء وكبار التجار. وقد ذاع صيت ماسينيسا حتى أنه استقبل واحدًا من كبار معاصريه

---

[1] محمد الهادي حارش،التاريخ المغاربي القديم........،المرجع السابق،ص.129.

[2] -F.Decret et M.Fantar,op.cit.,p.132.

[3] محمد الهادي حارش، التطور السياسي والاقتصادي........،المرجع السابق،ص.151.

[4] محمد الهادي حارش،التاريخ المغاربي.........، المرجع السابق، ص.31 .

[5] تمثلت خاصة في الحبوب وخشب العفصية .

الكتاب وهو المؤرخ الإغريقي بوليب الذي يعتبر من أهم مؤرخي فترته.(أنظر ملحق رقم 6) وقد ارتبطت نوميديا منذ عهد ماسينيسا بعلاقات مع الشرق والغرب بدون المرور بقرطاج [1].

14-إندماج النوميديين :

تقارب النوميديون عن طريق التنقل و الإختلاط و الإتصال وما ينتج عنه من مصاهرة وعلاقات بعد أن توفر الأمن والاستقرار بالإضافة إلى تطور مستوى المعيشة وكان لكل ذلك انعكاس على بروز مجتمع بدأ يتفرد بشخصية متميزة يطبعها الإرتباط بالأرض وما تنتجه من زرع وضرع.

15- إستقرار الحكم في العرش النوميدي:

طال حكم الملك الموحد ماسينيسا أكثر من خمسين سنة، لم تعكر خلالها صفو عرشه مؤامرة أو جريمة عائلية [2]رغم أن عدد أبنائه فاق الأربعين،ورغم محاذاة قرطاج التي كانت تناصبه العداء.

وإذا كان لابد من تفسير لهذا الوضع، فإن ذلك يعود إلى شخصية ماسينيسا القوية والمحبوبة التي أكسبته كارزمية جعلت الأبناء والرعية معا يلتفون حوله .

16- تأسيس إقتصاد قائم على الزراعة:

كانت الزراعة هي محور سياسة ماسينيسا إذ رفع شعار الأرض،من أجل إسترداد أملاك أجداده،و وطّنَ البدو وقادهم إلى استصلاح الأرض وجعل من الزراعة ثروة نوميديا الأولى، فهي التي وفّرت الغذاء وأمّنتهُ ،بل ووفّرت للبلاد موارد مالية من تجارة الحبوب الخارجية .وبذلك ارتبط الإقتصاد النوميدي بالأرض و الإستقرار فيها ، فمثّل ذلك وعيا مغاربيا مُبكرا بالإقتصاد الزراعي باعتبار أن الأرض وحدها هي مصدر الثروة ، وهذا ما قامت عليه نظرية الفيزيوقراط (الطبيعين) [3].

فإذا كان ماغون القرطاجي قد أسَّس مبكرا لهذه النظرية فإن ماسينيسا طبقها فعلا على أرض الواقع .

17- بروز الشخصية النوميدية:

نتيجة للعوامل السابقة برز كيان الدولة النوميدية كواقع جيوسياسي تفاعل مع محيطه الإقليمي والدولي تأثيرًا، وتأثرًا على أساس تراث قبلي استفاد من تجارب جيرانه الوافدين وهكذا يمكن القول أن ماسينيسا قد رفع شعارإفريقيا للأفارقة و قد جمع في

---

(1) -M.Kaddache,op.cit.,p.76.

(2) -Polybe,op.cit.,XXXVI,16.

(3) **هي مجموعة من مؤسسي علم الاقتصاد سمُوا بالطبيعيين، واعتبروا أن الأرض هي المصدر الوحيد للثروة الاقتصادية،وأن النشاط الاقتصادي المُنتج هو الخاص باستغلال الأرض،أي الزراعة باعتبارها المنتج الصافي والمزارعون هم الطبقة الوحيدة المُنتجة، و ما دونها من أنشطة هي غير منتجة: للمزيد أنظر: عبد الرحمان يسري أحمد، تطور الفكر الاقتصادي،مؤسسة شباب الجامعة،الاسكندرية،2000 ص ص.237-241.**

ذلك بين الأصالة والمعاصرة [1] وتمَكّن من توحيد نوميديا التي امتدت بين واد ملوشة غربا،إلى السرت الكبير شرقا فيما عدا ممتلكات قرطاج الضيقة،وحكم في هذه المملكة الواسعة هو و خلفاؤه من بعده ما يقارب القرن والنصف من الزمن[2].

18- تنظيم إدارة المملكة:

تم ذلك بما توفر من إحداثيات نتجت عن التحول البنيوي للمجتمع النوميدي بالإندماج في الإقتصاد الزراعي المرتبط بالأرض، وذلك من خلال إدارة محلية في الأقاليم ومدنها فقامت على الولاء القبلي وعزّزتها المصاهرة والزيارات الميدانية.وبالمقابل ضمنت هذه الأقاليم تدفق الضرائب لخزينة الدولة وأكدت ولاءها بالإستجابة للخدمة العسكرية عند الحروب[3].

تلك هي أهم نتائج سياسة ماسينيسا الزراعية التي كانت بمثابة مشروع بعث حضاري أزعج الرومان فوضعوه نصب أعينهم لأنهم ، وإن تحالفوا معه للبطش بقرطاج ،فإنهم لم يكونوا ليسمحوا له ، أو لمن جاء بعده، بتأسيس دولة مغاربية قوية قد تقلب موازين القوى من جديد في حوض البحر المتوسط .

لقد أرست الدولة النوميدية مفهوم المواطنة الذي ارتبط بالتعلّق بالأرض إنبثاقا من سياسة ماسينيسا الذي،وإن كان براغماتيا، إلا أنه كان واضح الهدف في استعادة ما اغتصبته قرطاج من أرض أجداده .

---

[1] كان مسينيسا داريا بالنتائج وعارفا أن الأرض هي أساس الوطن الأول لذلك عمل على توطين البدو وتثبيتهم قبل أن يتجه لاسترداد أرض أجداده من الاستيطان القرطاجي .

[2] - F.Decret et M.Fantar,op.cit.,p.107.

[3] - Ibid,pp.109-110.

الخاتــمة

لقد ترتب على انعدام المصادر المحلية و ندرتها فيما يخص تاريخ بلاد المغرب القديم أن فُـــتح الباب لتداول المصادر الكلاسيكية الغربية،الإغريقية منها و اللاتينية. لكن ذلــك لا يعنـــي على الإطلاق الإستسلام لما كتبه أبناء مجتمعات ناصبتنا العداء منذ بدايات الإتصال بين ضــفتي البحر المتوسط.

وإذا كانت التعمية وأحادية الرؤية و الأحكام الموجهــة التـــي تكــرس سياســة الهيمنــة والعنصرية منذ القدم قد طبعت كتابات الأولين، فإننا لا يجب أن ننتظر الإنــصاف مــن بعــض المعاصرين الذين انخرط معظمهم في مسلك تبرير الإندماج في الكيانات الكولونيالية إبــان فتــرة الإحتلال.

ومع كل هذه المعوّقات، بقي لنا أن نقارب الحقــائق بتحليــل هــذه الكتابــات ومقارنتهــا وإخضاعها لما وُجد واستجدّ من كشوفات أثرية مثل الرسوم الــصخرية و النقــائش و النُّــصُب، وكذلك الكتابات المعاصرة التي ميّز بعضها الحياد و التجرّد، ومن البحوث والدراسات المتخصصة التي بشّرت بها مدرستنا التاريخية الوطنية، وهذا ما حاولنا الإعتماد عليه في بحثنا الذي خلــصنا في نهايته إلى مجموعة من النتائج،نوردها في ما يلي:

- أن بلاد المغرب القديم بحسب موقعها الإستراتيجي في العالم القديم شكّلت همزة وصــل بين قاراته الثلاث، وهذا ما أهّلها أن تكون واحدة من أقدم محطات الإنتشار البشري التي توالــت عليها الحضارات المتعاقبة وتوّجتها حضارة الطاسيلي التي خلّدتها الرسوم الصخرية.

- أن الإنسان المغاربي القديم استطاع توفير قوته باستثمار إمكانيات بيئته المتاحة فتــدرّج في ذلك تباعا، من الجمع و الإلتقاط و القنص و الصيد إلى الإستئناس و الرعي قبل أن يبدأ فـــي الإستقرار الذي وفــّــره المرعى. وهكذا كانت الزراعة نتيجة من نتائج هذا الإستقرار وليــست سببا له. كما أن الإنتقال من مرحلة إلى أخرى لم يتم بشكل إنقلابي مفاجئ، بل تمّ بسلاسة جعلــت بعض الأنشطة تتزامن وتتعايش، بل تواصل بعضها ولم ينقطع، مثل الرعي الذي لازم الزراعــة، والقنص الذي واكب كل المراحل ولا تزال ممارسته تشكل تراثا مغاربيا إلى اليوم.

- إن المعطيات الجغرافية من تضاريس وعـــــرة ومناخ متباين، وانعدام مجار مياه دائمة قد أعاقت مسيرة الإنسان المغاربي القديم ودفعته إلى رفع التحدّي، فكان التطور الداخلي منــسجما مع ما استجد من ظروف بيئية جديدة أحدثتها فترة الجفاف الذي زحف على الصحراء منذ العصر الحجري الحديث وتمثل ذلك في قيام النظام القبلي الذي طبعته حياة الحل و الترحال جــاعلا مــن القطيع حجر الزاوية في اقتصادياته وذلك خلافا لمصر الفرعونية التي كان تدفق النيل الدائم فيهـا أكبر العوامل في تنظيم المجتمع واندماجه السريع في الدولة المركزية.

- أن الآلات الزراعية البدائية من كُويرات مثقوبة ومطارق للحفــر ومناجــل ومعــاول، بالإضافة إلى المساحات الزراعية و المدافن المتنوعة تؤكد بما لا يــدعو مجــالا للــشك مــسألة الزراعة الباكرة في بلاد المغرب القديم وخاصة في منطقة الطاسيلي أين عُثر في موقع " أمكني " على غبار الطّلع إلى جانب فخّار وأدوات زراعية تعود إلى الألف الثامنة قبــل المــيلاد، ولكــن الإنقلاب البيئي أعاق تواصلها التاريخي، ولولا ذلك لكانت سبقت أو عاصرت أقدم مواقع ظهــور الزراعة بالشرق الأدنى مثل أريحا بفلسطين ، وجرمو بالعراق .

- إن الأصول الباكرة للزراعة في منطقة القبائل الليبية المزارعة شمال نهر تريتون تعود إلى الكنعانيين أجداد الفينيقيين، وتكون قد سبقت تواجد الفينيقيين أنفسهم ببلاد المغرب لقرون عديدة ، تماما مثل الأصول الباكرة للزراعة في الواحات و التي تعود بمنظومة الري فيها إلــى أصــول مصرية وشرقية نظرا لتشابه الأساليب التقليدية التي لا تزال مستعملة إلى اليوم مثــل الفقــارة و الشادوف و الخُطــّارة .

- أن البونيين الذين كانوا نتاج اختلاط الفينيقيين الوافدين بأبناء بلاد المغــرب القــديم قــد حملوا من تراث فينيقيا ما أثــّر في تطوير الزراعة سواء تعلــق الأمــر بالتقنيــات أو الأنــواع المغروسة أو الوسائل المستعملة ، وتوجت ذلك كله توصيات ماغون التي تضمنها كتابه الذي قرر مجلس شيوخ روما أن يُترجمه إلى اللاتينية للإستفادة منه في تأسيس علم الزراعة الذي تــضمنته كتابات فارون وكوليمال وغيرهما. وهكذا يكون كتاب ماغون القرطــاجي إنتاجــا فكريــا ثقافيــا بالإضافة إلى تخصصه في الزراعة و الإقتصاد الزراعي .

- أن قرطاج وجدت في الإقتصاد الزراعي بديلا عن هشاشة إقتصادها المنهار في التجارة البحرية الدولية فتوجهت إلى إغتصاب أراضي من استقبلوها وأحــسنوا وفادتهــا مــن المغاربــة فتوسعت على حسابهم لضمان أمنها الغذائي ولكن ذلك سبب لها متاعب ساهمت في زوالهــا بعــد قرون .

- أن الملك النوميدي ماسينيسا هو الذي بعث الإقتصاد الزراعي في المملكة النوميدية الموحدة وذلك من خلال عدّة عوامل أهمها قوة شخصيته وطول مدة حكمه والولاء القبلي له وإشرافه الشخصي على عملية الإستصلاح الزراعي فكان من نتائج ذلك تثبيت السكان واستقرارهم و الإندماج القبلي في الدولة المركزية وتحقيق الأمن الغذائي بل وتصدير فائض الإنتاج الزراعي .

-أن سياسة ماسينيسا المتمثلة في المناداة بـ"إفريقيا للأفارقة" وإن كانت على خلفية التحرر من الأجنبي لكنها كانت تصب في إطار استعادة أرض أجداده و إستفادة مواطنيه من أراض خصبة إغتصبتها قرطاج حينما أعمتها قوتها الجريحة فوجهتها بكل لؤم إلى الذين أكرموها .

- أن النوميدين ، كانوا قد إستفادوا من تجارب البونيين الزراعية ، وبذلك إستطاعوا تأسيس اقتصاد زراعي ساهم إلى حد كبير في بلورة الشخصية النوميدية التي تفاعلت قبل رحيل عرّاب نوميديا وموحدها ماسينيسا و تواصلت في إبنه وأحفاده من بعده قبل أن تلتهم فلول الإحتلال الروماني أخر رموز الدولة النوميدية سنة 40 م .

أخيرا نخلص إلى أن الزراعة في بلاد المغرب القديم شكلت واحدة من أبرز الفعاليات التي أثـّرت في حركية التاريخ المغاربي والمتوسطي القديم كما أكدت دور سكانها اللأصليين في إستثمار إمكانيات بيئتهم المحلية للوصول إلى أرقى ما وصلت إليه شعوب العالم القديم بتوفير الأمن الغذائي بل تخطوه إلى ضمان غذاء شعوب رائدة في الحضارة كالإغريق وهذا ما يُلهم أجيالنا الحاضرة بأخذ العبرة من همم الأجداد ، أما جهود الوافدين الفينيقيين فقد وجدت مجالا خصبا إستثمروه بعناية فائقة أكدته عصارة الفكر الحضاري البوني الذي شكلته تعليمات ماغون

ختاما، ومن كل ما سبق يُمكننا التأكيد أن أبناء المغرب القديم قد ساهموا بفعالية في الحضارة الإنسانية كغيرهم من الشعوب التي عاصرتهم خلافا لما روّجته بعض المصادر وكرّسته بعض الدراسات المعاصرة. ونعتبر بحثنا هذا خطوة لإنصاف جانب من حضارة بلاد المغرب، و التي ستتلوها خطى لاحقة في جوانب أخرى إن شاء الله .

الملاحق

ذكر السلفيوم

من كتاب الجامع لمفردات الأدوية و الأغذية

لضياء الدين ابن البيطار (الجزء الأول ص ص 58–59).

هو ورق شجر الحلتيت والحلتيت صمغه والمحروث أصله /**إسحاق بن عمر** :هو صنفان أحدهما الأبيض الطيب المأكول الذي يسمى السرخس وتسمى عروق أصله المحروث ويستعمل في الأغذية و الأدوية ،و الأخر الأسود المنتن الذي يخلط ببعض الأدوية ،وصمغ الأنجدان هو الحلتيت والطيب منه يكون من الأنجدان الطيب و الطيب من الأنجدان المنتن. /**أبو حنيفة :** المحروث أصل الأنجدان و منابته في الرمل التي بين بست و القيفان . والحلتيت صمغ يخرج من أصول ورقة ، وأهل تلك البلاد يطبخون الحلتيت وليست مما تبقى في الشتاء. /**محمد بن عبدون:** هو نبات كالكاشم ينبت ببَال يبيعه البقال مع التوابل. / **أبو عبيدة البكري :** الأنجدان الأسود المنتن الذي هو صمغه الحلتيت المنتن هو أصل غليظ يضع ورقا منبسطا عل الأرض جعدا كالكف في السعة متركب منن ورق صغير كهدب الجزر.../ **دسيفور يدوس** في الثالثة : **سلفيوم**، وهو شجر الأجدان ينبت في البلاد التي يقال لها **قورينا** وأرمينيا و ميديا ...وله ساق يسمى بسقطس شبيه في شكله بالقنا وهو الكلخ ، وورق شبه بورق الكرفس وبزر يسمى ماعد طارس . وأصله منق نافع مجشئ مجفف عسر الانهضام مضر بالمثانة .وإذا خلط بالقيروطي وتمرّخ أبرأ الخنازير و الجراح وإذا تضمد به أبرء من كمنة الدم العارضة تحت العين ... وإذا طبخ بخل في قشر رمان وتضمد به أذهب البواسير النابتة في المقعدة .../ **جالينوس** في الثامنة لبن هذا النبات حار جدا وكذا ورقه وقضبانه وأصوله تسخن إسخانا شديدا ... ينفع في عسر البول وبرد المقعدة ويدر الطمث ./ **ابن ماسوية** : مجفف للرطوبة المعدة ... يغير رائحة القفل والبدن ./ **محمد بن الحسن**: سيتخرج الأجنة ويسهل الطبيعة ... / **الرازي :** المحروث مقوّ للكبد والمعدة معين على الهضم .

ملحق رقم :2

وصف الريف القرطاجي (أثناء حملة أغاثوكليس على الوطن القبلي)

" في وسط الأرض التي كان عليهم اجتيازها،انتشرت الحدائق وبساتين الأشجار المثمرة من كل نوع،حيث أن السواقي والتـّـُرع كانت قد حُفرت لتروي كل جزء...لا تبدو نهاية لبيوت المدينة المترفة والفخمة المطلية بالكلس الأبيض الذي يدل على غنى أصحابها. كانت البيوت مليئة بكل ما يُمتع ويُبهج...

أما محاصيل تلك الارض فكانت الكرمة والزيتون وأشجار فاكهة متنوعة،وفي بقية المناطق انتشرت قطعان الماشية من الابقار و الاغنام وفي المروج المجاورة انتشرت حظائر الخيل... لقد امتلأت المنطقة بثروة ضخمة.

فمعظم نبلاء قرطاج كانت لهم أملاك هناك.ويعود الفضل في ذلك إلــى مــواردهم التـــي جعلتهم يُكرّسون أنفسهم للاستمتاع ببهجة الحياة .

Diodore de Sicile,Bibliothèque historique,XX,8,4.

ملحق رقم : 3.

حفظ فاكهة الرمان لماغون

الكيفية الأولى: " يوصي ماغون القرطاجي،أن يُسخّن ماء البحر وتُغمر فيه ثمار الرّمـــان ملفوفة في الكتان أو عجينة الحلفاء لبعض الوقت حتى تفقد لونها. بعد ذلك تُجفّف في الشمس لمدّة ثلاثة أيام ثم تُعلّق في مكان بارد. وحينما يُراد استهلاكها، تُغمر في ماء عذب بارد أثناء الليل حتى ساعة النهار التي تُقدّم فيها للاستهلاك "

الكيفية الثانية: " تُطلى فاكهة الرمان حديثة الجني بطبقة سميكة من الطين المُعــد للفخـــار والمعجون جيدا،وحين تجف تــُعلـــّق في مكان بارد،وقبل استهلاكها توضع في الماء للتخلص من الطين . وهذه الطريقة تحفظ لها كل نظارتها".

الكيفية الثالثة: " في وعاء جديد من الطين تــُوضع نُــشارة خشب الحَوْر (Peuplier) أو البلوط الأخضر (Yeuse) ثم يُوضع عليها الرّمّان .ويُحشى الفراغ ما بين حبات الفاكهـــة بـــنفس النشارة. و تُغطّى طبقة الرّمان بطبقة من النّشارة لتُوضع عليها طبقة ثانية من الفاكهـــة ،وهكـــذا دواليك حتى يمتلئ الإناء ثم يُغطّى ويُغلّف بطبقة سميكة من الطين" .

Columelle,De l'agriculture XII,46,5-6

ملحق رقم:4 .

بذر اللوز لماغون

من بين الأشجار التي تنبت من البذور،عالج ماغون مُطوّلا أنواع الجوزيات .وقد أوصـــى ببذر اللوز في طين رخو مُعرّض لاتجاه الجنوب. كما أن بذور اللوز تُحبّذ البذور الصلبة والدافئة كذلك. ففي الأرض الخصبة الرطبة تغدوا عقيمة وتموت .

ويجب اختيار البذور المقوّسة على شكل منجل والتي تُجنى من شجرة فتيّـــة،وقبل بـــذرها تجب تغطيتها ثلاثة أيام في الدبال المُحلل أو عطسها ليوم كامل في ماء مُعسّـــل.

عند البذر تُغرز من رأسها وشقّها الحاد موجّه نحو الشمال.ويجب بذرها ثلاثا بثلاث علـــى شكل مثلث أبعاده شبر واحد ،ثم تُرش كل عشرة أيام حتى الإنبات ".

Pline l'Ancien,XVIII,63.

ملحق رقم: 5

نصائح لماغون تتعلق بصفات الثيران .

يجب أن تكون فتيّة،قصيرة وسمينة بأطراف ضخمة وقرون طويلة قوية سوداء،جبهتها عريضة مجعّدة وأذناها هُلبيتان . أما عيناها وشفتاها فسوداوان،بخيشوم مفتوح إلى الوراء. أما مؤخرتها فمتينة البنية، ولغدها رحب يصل إلى الركب.أما صدرها فضخم عريض مثل أكتافها ،تتمتع بخاصرتين عريضتين وبطن كبير وظهر مستقيم يكاد يكون مستويا مع أجناب ممتدة . أما السيقان فتكون مستقيمة قصيرة. والأرداف مدورة ملآ ،وركب حسنة المظهر وحوافر ضخمة،وذيل طويل ذو شعر خشن كثّ يكسو جسدها وبر أحمر أو بنّي قصير ناعم الملمس .

Columelle,V,1,3.

ملحق رقم:6

ماسينيسا باعث الزراعة في نوميديا

" كان ماسينسا ملك النوميديين،أفضل ملوك عصرنا. لقد حكم لأكثر من ستين سنة قضاها في صحة جيدة، وعمّر طويلا حتى بلغ التسعين سنة من عمره. لقد تفوّق على كل معاصريه بفضل قوة جسمه، فعندما كان الأمر يتعلّق بالوقوف، فإنه يظل واقفا لمدّة يوم كامل في نفس المكان، وعندما يجلس فإنه لا يكون بحاجة للوقوف أبدا. كان يتحمّل التعب الذي تفرضه الرحلات الطويلة على ظهر الحصان، تلك الرحلات التي تتواصل ليل نهار دون أن تنال منه .

وهناك أمر آخر يبيّن قوّته البدنية، هو أنه عندما توفي في سن التسعين، ترك ابنا في سن الرابعة عشر يدعى "ستيمبانوس" ،والذي تبنّاه مسيبسا فيما بعد، وأنجب قبل مولد هذا الأخير تسعة أبناء آخرين. وبفضل المحبّة التي تجمعهم، لم يحدث أن عكّر أمن مملكته أية مؤامرة أو جريمة عائلية.

ولكن أنبل أعماله وأروعها تمثلت في أن نوميديا كلها كانت عقيمة وكان يُعتقد أن أرضها لا تستطيع أن تنتج أيّ محصول. ولكن ما سينيسا بموارده الذاتية، برهن أنها تستطيع إنتاج كل أنواع الفواكه مثل أية مقاطعة، وذلك من خلال تهيئة ملكيات خاصة بـ عشرة آلاف بلاثر*، كان قد وزّعها على أبنائه وتبيّن بأنها جدّ خصبة. إننا نذكّر بهذا لنُهدي لذكراه تحية مستحقّة .

* عشرة آلاف بلاثر= 875 هكتار.

المصدر: Polybe,op-cit,XXXVI,16.

الملحق رقم:7.

تسميات أمازيغية لبعض أنواع التمور

وأنواع النخيل عندنا كثيرة متباينة بالألوان و الغلظ والرّقة والطول و القصر والملوسة و التجعيد، واتساع الأعلى أو الأسفل أو ضيقهما والرائحة الطيبة و المتوسطة و الكريهة والطعم الحلو و الحريف و المتوسط واللين و اليبس والتعجيل في النضج والتأخير فيه إلى غير ذلك ممّا هو معهود. والذي حضرني الآن من أسمائه ما يأتي: الغرس، وأخت الغرس، و الدّقلاوي ، ودقلة نور ، وأخت دقلة نور ، وفزاني ، وأخت فزاني،وكبّول فزاني ، وفطيمي ، وأخت فطيمي، وكبّول فطيمي، ومسّوحية ،ويتيم، وأخت يتيم، ودقلة بيضاء، وحمراية ، وخضراية، وخضراوية ، ودقلة صفراء ، وشتّاية ، وكبول شتاية ، والهتيلة ، والجائحة ، وتمر جرت،و أخت تمر جرت ، والعنابية، والسّرسارة ، و المسوسة، والدنجالة، و الحتحاتة،والموشّمة، ووجه العزوز، والرطبة ، والعجروتة ، والشهباء،وصبرى، وبشعير،والقامدة ،وأم القطوشة، وفم البهيم ،ولولو ،والنباتة ، و بوسعيد ، والكركوبية، والبلوطية ، ونعيمة والحرّة ، ودقلة عش ، ودقلة الفرس،وحسينية ،وبضين جمل ، وبضين كلاب، وبيض حمام ، وزق المقار ،والمفتولة، والحلاوية، وبسر حلو ،والسكرية،ودقلة بعول ،ودقلة اللحم، وباجو، وكنتة، وأخت مسوحي ، وأصباع عروس ، وبزول خادم ، و لية خادم ، وكنتيشي، ومناخر، ودقلة النوارة ، و تاتي ،ودقلة العجين، وفاخت، ودقلة الباب، وحلاوية الزاب، وراس الداب، وعبد العزاز، والشواكة والغدامسية، وتوزنت، وقطارة ، وعلي أوراشت، ورشتى،وعمارية، وأخت عماري، وبدارة، وتاشلويت وتانسليت، وبنت خبالة، و كسباية، ودقلة مامن ، وقصبة ،و لاقو، وقندي،وتاوراخت ، وظفير قط ، وسبعة بوذراع، وتامز ريت ، ودقلة مغص، وتنسين، وتافزوين ،وأخت تافزوين، وتفرزايت سوداء، وتفرْزايت سوداء ، و تكرمست سوداء، و تكرمست حواء ، وبوسالم ، وبوفقوس، والذكار ، وغير هذا كثير.

الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تأليف بن إبراهيم محمد الساسي العوامر، تعليق الجيلاني بن إبراهيم العوامر،الدار التونسية للنشر و التوزيع، تونس/ الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1977،ص ص،64،65.

فهرس المصادر و المراجع المعتمدة في البحث

أولا- المصادر:

1- المصادر باللغة العربية :

- القرآن الكريم .

- العهد القديم ،سفر التكوين، الموقع الالكتروني، www.al-mostafa.com .

- **إبن العوام(أبو زكريا يحيا الاشبيلي)**

  - في الزراعة مع ترجمة إسبانية لـ: دون جوزيف أنطونيو كيري،مدريد،1802.

- **إبن خلدون(عبد الرحمان)**

  - كتاب العبر وديوان المبتدإ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مجلّد 6،مؤسسة جمال للطباعة والنشر،بيروت،1979.

- **الطبري (محمد بن جرير)**

  - تاريخ الأمم و الملوك،مج1، ط3،دار الكتب العلمية ،بيروت،1991،ص96.

- **فرجيــل**

  - الأنياذة،ترجمة سلام الخالدي عنبرة ، دار العلم للملايين، بيروت.

2- المصادر باللغة الفرنسية :

- **Aristote,**

  - La Politique,II,11 (note et index de J.Tricot),Librairie philosophique, Paris,1970.

- **César (J),**

- La Guerre d'Afrique, Traduction de A. Bouvet.éd .Les Belles Lettres,Paris,1949.

- **Columelle,**

- Presenté par M. Nisard,dans les agronomes latins:Caton, Varron, Columelle, Palladius,Texte et traduction par Antoni,éd,Firmin- Didot, Paris,1887.

- **Diodore de Sicile**,

- Bibliothèque historique ,Traduit par A.F.Miot,Paris1934 .

- **Hérodote**,

- Histoire ,T.II,Euterpe,texte établi **et traduit par** Ph.Le grand,éd.Les Belles Lettres,Paris,1960.
- Histoire T.IV**,Melpomène,** texte établi **et traduit par** Ph.Le grand,éd.Les Belles Lettres,Paris,1960.

- **Pline l'ancien,**

- Histoire Naturelle,texte etabli et commenté par J.Beaujeu , éd.Les Belles Lettres,Paris 1950.

- **polybe,**

- Histoire,Traduction D.Roussel,éd.Gallimard,Paris,1970.

- **Salluste**,

- Jughurta, Texte établi et traduit par A.Ernout,10[eme] tirage,éd.Les Belles Lettres ,Paris, 1974.

- **Strabon,**

-Géographie universelle, II,5-33, Traduction B.Boumerque, Flammarion, Paris,1965.

- **Varron,**

- Presenté par M. Nisard,dans les agronomes latins:Caton, Varron, Columelle, Palladius,Texte et traduction par Antoni,éd,Firmin-Didot, Paris,1887.

ثانيا-المراجع:

1- المراجع باللغة العربية:

أ- <u>المجلات والدوريات:</u>

- **الجراري(محمد الطاهر)**

- الغاية من تأسيس قورينا،مجلة البحوث الليبية،السنة الثامنة، العدد1، طرابلس، جانفي1986.

- **الراشدي(محمود فرج)**

- دور نبات السليفيوم في ثراء المدن القورينائية، مجلة البحوث التاريخية،السنة12، العدد2،طرابلس،يوليو 1990 .

- **الشنيتي (محمد بشير)**

- التوسع الروماني نحو الجنوب وآثاره الاقتصادية والاجتماعية،مجلة الأصالة، وزارة

التعليم الأصلي والشؤون الدينية،عدد جانفي، الجزائر،1977.

- **صفدي(هشام)**

-أضواء جديدة على تاريخ المغرب، مجلة الأصالة،العدد 14-15 (ماي –جوان) ، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر،1973 .

-**غانم (محمد الصغير)**

- الملامح الباكرة لنشأة الزراعة في بلاد المغرب القديم،مجلة العلوم الإنسانية لجامعة قسنطينة،عدد 17،جوان 2002.

<u>**ب - الكـــتـــب:**</u>

- **العوامر (إبراهيم بن محمد الساسي)**

- الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تأليف ، تعليق الجيلاني بن إبراهيم العوامر،الدار التونسية للنشر و التوزيع، تونس/ الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1977.

- **إبراهيم (صبحي)**

- تاريخ الرومان من أقدم العصور حتى 133 ق.م ج1 مكتبة الأنجلاء ،القاهرة 1983.

- **إبراهيمي (ك)**

- تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر، ترجمة م.ب الشنيتي و ر. وروبية،ش.و.ن.ت، الجزائر،1982.

- **أرسلان (شكيب)**

- تاريخ غزوات العرب في فرنسا و سويسرا وإيطاليا وجزائر المتوسط،دار مكتبة الحياة، بيروت1966.

- **بازمه (محمد مصطفى)**

- ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية، دار مكتبة الفكر طرابلس،1975.

- **بولم (دينيز)**

- الحضارات الإفريقية، ترجمة علي شاهين ، دار مكتبة الحياة، بيروت،1974.

- **توينبي (أرنولد)**

- تاريخ البشرية،ج1،ترجمة نيقولا زيادة، الأهلية للنشروالتوزيع ،بيروت،1981.

- **الجوهري (يسري)**

- جغرافية المغرب العربي،مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،2001.

- **جوليان (شارل أندري)**

- تاريخ إفريقيا الشمالية(تونس،الجزائر، المغرب الأقصى)،ج1 منذ البدء إلى الفتح الاسلامي سنة 647، تعريب م.مزالي و ب. بن سلامة، الدار التونسية للنشر 1969.

- **حارش (محمد الهادي)**

- التاريخ المغاربي القديم السياسي و الحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي،المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر 1995.
- التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء مسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول ،203-46 ق.م ،دار هومة ،الجزائر،1996.

- **حتى (فيليب)**

- تاريخ سوريا ولبنان و فلسطين،ج1 ،ترجمة جورج حداد و عبد الكريم رافق،إشراف جبرائيل جبور،ط2،دار الثقافة،بيروت،ب ت.

- **حسن (إبراهيم حسن)**

- تاريخ الاسلام،ج1،مكتبة النهضة المصرية،ط13،القاهرة،1991.

- **حسن (سليم)**

- مصر القديمة ج5 ،دار الكتب ،القاهرة ،1948.

- **حليمي (عبد القادر)**

- جغرافية الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر،1968.

- **خشيم (علي فهمي)**

- آلهة مصر العربية،ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة.
- نصوص ليبية،ط 2،دار مكتبة الفكر،طرابلس،1975.

- **زرقانة (إبراهيم)**

- الحضارات المصرية في فجر التاريخ،دار المعارف القاهرة،1948.

- **زكريا (مفدي)**

- إلياذة الجزائر،دار هومة، الجزائر،1996.

- **الزوزني (أبو عبد الله الحسين بن أحمد)**

- شرح المعلقات السبع،دار الفكر للنشر و التوزيع ،بيروت،ب ت.

- **شفيق (محمد)**

- ثلاثة وثلاثون قرن من تاريخ الأمازيغيين،دار مكتبة الفكر،طرابلس،1988.

- **الشنيتي (محمد البشير)**

- الرومنة في بلاد المغربي(146 ق م- 40 م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر.

-**عبد الرحمان (يسري أحمد)**

- تطور الفكر الاقتصادي،مؤسسة شباب الجامعة،الاسكندرية،2000.

- **العربي(إسماعيل)**

- الصحراء الكبرى و شواطئها،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1983.

- **العدواني (محمد الطاهر)**

- الجزائر منذ نشأة الحضارة ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1982.

- **غانم(محمد الصغير)**

- التوسع الفنيقي في غربي البحر المتوسط، المؤسسة الوطنية للكتاب 1992.

- مواقع وحضارات ما قبل التاريخ في بلاد المغرب،جامعة منتوري، قسنطينة،دار الهدى، عين مليلة 2003.

- الملامح الباكرة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا ،طبع دار الهدى ،عين مليلة ،2005.

- مقالات حول منطقة بسكرة والتخوم الأوراسية،الآثار،الزراعة،و التاريخ،مطبعة قرفي،باتنة،ب ت.

- مقالات وأراء في تاريخ الجزائر القديم،جامعة منتوري،قسنطينة،دار الهدى عين مليلة2005.

- **الكعاك (عثمان)**

- موجز التاريخ العام للجزائر، من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي،تقديم ومراجعة أبو القاسم سعد الله وآخرون،ط1 ،دار الغرب الإسلامي،بيروت ،2003.

- الكعاك عثمان، البربر،مكتبة دار الفكر طرابلس،1965.

- **لينتون (رالف)**

- شجرة الحضارة، تقديم محمد السويدي، ج 1 ، موفم للنشر،الجزائر،1990.

- **المدني (أحمد توفيق)**

- قرطاجنة في أربعة عصور، من عصر الحجارة إلى الفتح الاسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986.

- **ميجور (كيث.ر)**

- الحبوب كغذاء وعلف، ترجمة ممتاز الجندي من الكتاب السنوي للزراعة الامريكية،دار المعرفة، القاهرة،1967.

- **الناضوري (رشيد)**

- المغرب الكبير،ج1، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1966.
- جنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا، الكتاب الأول،مرحلة التكوين والتشكل الحضاري، إلى نهاية الألف الثالث ق.م، مكتبة الجامعة العربية بيروت،1968.

- **هورس- ميادان (مادلين)**
- تاريخ قرطاج، ترجمة إبراهيم بالش، منشورات عويدات، بيروت- باريس،1981.

ج- القواميس ودوائر المعارف

-**ابن منظور (أحمد بن مكرم)**

- لسان العرب،تقديم عبد الله العلايلي،المجلد الثالث،دارالعرب،بيروت،ب ت.
- **الأطلس العالمي**،المعهد التربوي الوطني، الجزائر(ب.ت).
- **الزركلي (خير الدين)**
- الأعلام،المجلد الثامن،الطبعة الخامسة،بيروت،1980.
- **المسيري (عبد الوهاب)**
- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية،المجلد الخامس، الموقع الالكتروني: www.al-mostafa.com .
- **منجد اللغة و الأعلام**،المطبعة الكاثولكية،بيروت،1969.

د- الرسائل الجامعية:

- **بلغيث (محمد الأمين)**
- الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين،أطروحة لنيل درجة دكتوراه الدولة في التاريخ الاسلامي،إشراف عبد الحميد حاجيات، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة ،الجزائر-2001-2002.
- **بن السعدي (سليمان جمعة)**
- شعوب البحر وعلاقتها بمصر ،1300-1150 ق.م (دراسة تاريخية)، رسالة ماجستير،

تحت إشراف محمد بيومي مهران ،كلية الآداب جامعة الإسكندرية،1992.

- **سلاطنية(عبد المالك)**

- المدافن الحجرية في الشرق الجزائري،رسالة ماجيستير في تاريخ وآثارالمغرب القديم،تحت إشراف محمد الصغير غانم،قسم التاريخ معهد العلوم الاجتماعية ،جامعة منتوري قسنطينة،1999.1998.

- **عيساوي(مها)**

- النقوش اللوبية في شمال إفريقيااللبيبة(دراسة تاريخية لغوية)،مذكرة ماجستير في التاريخ القديم،إشرف محمد الصغير غانم،قسم التاريخ،كلية العلوم الانسانيةوالعلوم الاجتماعية،جامعة منتوري قسنطينة،2004.

هـــ- مقالات في مواقع الانترنات:

- **أعشي(مصطفى)**

- نماذج من التواصل الحضاري بين شمالي إفريقيا والصحراء الكبرى خلال عصور ما قبل التاريخ،معهد الدراسات الافريقية،جامعة محمد الخامس،الرباط.مقال على الموقع الإلكتروني، www.tawalt.com.

- **باقر(طه)**

-عصورماقبل التاريخ وعلاقتها بأصول الحضارة القديمة،مقال من الموقع الالكتروني www.libsc.org.

- **عيسى (علي)**

- الليبيون من خلال المصادر الأثرية والتاريخية القديمة، قسم التاريخ جامعة الفاتح،طرابلس، الموقع الإلكتروني www.libsc.org.

2- المراجع باللغة الفرنسية:

أ- المجلات و الدوريات:

-Basset (H),

-Les Influences Puniques chez Les Berbères,R.A,n°62,O.P.U,Alger,1921.

- Berbrugger (A),

-Sur les inscriptions lybiques,R.A. N°12, 1968,O.P.U,Alger.

- Berthier (A),

-Un Habitat Punique à Constantine,Antiquités Africaines n° XVI,1980.

- Cadenat (P),

-Préhistoire de Columnate, Bulletin de La Société de géographie et d'archéologie d'Oran ,T.LXX,1948.

- Camps (G)

-Islam société et communauté,Anthropologie du Maghreb, les cahiers du C.R.E.S.M,Ed.CNRS,Paris,1981 .

- Camps (G),

-Les relations du monde méditerranéen et du monde sud- saharien durant la Préhistoire et la Protohistoire,mémoire du.R.A.P.E,Paris,1976.

- Doumergue (F),

-La Grotte de Polygone,Bulletin de La Société de géographie et d'archéologie d'Oran,T.XLVII,1927.

- Fantar(M.H),

-A Ghammarth avant la conquête romaine,in B.A.C,Fasc.17,1981.

- Fantar (M.H),

- Le vigne et le vin à l'époque carthaginoise, revue Afriqua,volume V.n°X, Institut nationale de patrimoine,Tunis,1997.

-Hammad(M),

-Arboriculture fruitiere berbère in encyclopedie berbère n°.30, 1982.

- Heurgon(J),

-l'Agronome Magon et ses Traducteurs grecs et latins,C.R.A.I.,3eme

trimestre,1976.
- **Hours Miedan (M),**
-Les representations figurées sur Les Stèles des Carthage,in Cahiers de Byrsa, 1951.
-Lacroix(F),
-Afrique ancienne,Procédés agricoles,R.A.,N°14,1970.
- **Lequement (R),**
- La vie africaine à l'époque imperiale ,in A.A,T XVI,1989 .

- **Mahjoubi (A) et Slim(H),**
-La maîtrise de l'eau à l'époque antique,Al-Madar,revue de la Cité des Sciences, n° spécial,Tunis,1992.
- **Malhomme**,
-Les représentations anthropomorphes du Grand Atlas(Maroc), Libyca, 1953.
- **Picard (Ch. G)** ,
-Civitas Mactarita, Karthago, Revue d'archéologie africaine, T.VIII,Paris, 1957.
- **Rodrigue(A),**
-Un Néolithique agricole dans Le Haouz,Bulletin archéologique du Maroc, T.XV,1985.
- **Rouvillois- Brigol(M),**
-La steppisation en Tunisie depuis l'epoque punique: determination humaine ou cluimatique in B.A.C.,colloque de Grenoble 1983.
- **Samuel(A),**
-Bassin de décantation d'huile,Beni Sinassen au Maroc oriental in encyclopédie Berber n°29,1981.

-Sznyser(M),

- Le problème de la"Megara" de Carthage, in B.A.C(Colloque de Montpellier) 1985.

- Tauxier (H),

-Notes sur Les variations de mots Bothr,Berbers,Roum,Afarek,Baranès,et Frank,R.A,n° 23,1879,O.P.U ,Alger.

- Etudes sur Les migrations des tribus berbères avant l'Islamisme, R.A n°6 ,1862,OPU,Alger.

- Tixéront (J),

-Reflexions sur l'implantation ancienne de l'agriculture en Tunisie, Karthago Revue d'archéologie africaine,T.X, Paris,1959-1960.

- Trousset. P,

- La pêche au Maghreb dans l'Antiquité,Cahier du Centre d'Etudes et de Recherches sociales n°11 (actes du séminaire:La pêche côtière en Tunisie et en Méditerranée,Zarzis,18-20 novembre,1994) Université des Lettres, TunisI,1995.

ب- الكـتـب:

-Albertini(E) et autres,

- Afrique du Nord française dans l'histoire,éd. Archat,Lyon(sans date.).

-Arnold(G),

- Les grandes Dates de l'Histoire du Monde,éd.Csterman,Paris,1983.

-Balout(L),

- Algérie Préhistorique, Arts et métiers graphiques, Paris,1958.
- Préhistoire de l'Afrique du nord,Arts et Métiers graphiques, Paris,1955.

-Ben Kort(B.A),

- Syhpax,Massinissa entre les impérialismes romains et carthajinois, E.N.AL,Alger,1984.

-Bernard(A),

- L'Algérie,Libraire Felix Aléan,Paris,1929.

-Camps(G),

- Les Origines de la domestication dans le nord de l'Afrique,(actes de colloque international de l'institut de recherches méditerranéennes sur l'élevage en méditerranée occidentale ,Senanque,mai,1976), Paris,1977.
- Aux Origines de La Berbérie,Massinissa ou le début de l'Histoire, Imprimerie officielle,Alger,1961.
- Berbéres aux marges de L'Histoire,éd.Les Héspérides,Paris,1980.
- Les Civilisations Préhistoriques de L'Afrique du nord,édition Dounin,Paris,1966.

- Carcopino(J),

- Le Maroc antique,éd.Gallimard,Paris,1943.

-Decret(F) et Fantar (M.H),

- L'Afrique du nord dans L'Antiquité, ed. payot,Paris, 1998.
- Carthage ou l'Empire de la mer , ed. Seuil , Paris,1977.

-Fantar(M.H),

- Carthage, La Cité Punique, ,C.N.R.S,Paris,1995.

-Foucher(L),

- Hadruméte, P.U.F.Paris,1964.

- Gaid(M),

- Aguellids et Romains on Berbèrie,SNED,Alger,1972.
- Les Bérbers dans L'Histoire,T.I,éd.Mimouni,Alger,1990.

- Ghaki(M),

- Recherches sur Les rapports entre Les Phéniciens –Puniques et Les Lybico-Numides(V^{eme} et I ^{er} siècle A.J.C), Paris 79.

-Gelloul (A),

- Magon,Columelle et Ibn-El-Awam,permanence de connaissances pratiques agricoles en Méditerranée,Colloque de Faculté des Sc.Humaines de Tunis(9 Avril)Décembre 1995.

- Gsell (S),

- textes relatifs à l'Histoire de l'Afrique du nord(Hérodote),
- Typographie A.Jourdan,Alger,1915.
- Histoire .A.A.N,(7 Tomes) ,edition Osnabruck,1972.
- Atlas archéologique d'Algérie,Alger1997.

-Guyot (L),

- Histoire des plantes cultivées,Ed.A.Colin,1963.
-

- Hégot.H(J)

- Le Sahara avant le désert,E d.Les Hespérides,Paris.

-Joret(Ch),

- Les plantes dans l'Antiquité et au moyen age,Histoire,Usage et Symbolisme,Paris,1987.

-Julien (Ch.A),

- Histoire de l'Afrique blanche,PUF,8eme Edition,Paris,1958.
- Histoire de l'Afrique blanche des origines à 1945, Ed.P.U.F,Vendome,1966.

-Kaddache(M),

- L'Algérie dans l'antiquité,3eme Ed,E.N.A.L,Alger,1992.

-LHote(H),

- Les gravures rupestres de l'Oued Djerat(Tassili-NAjjer –Mémoires du Centre de Recherches Préhistorique),T III ,SNED,Alger……
- Les Chars rupestres sahariens,Edition des Héspérides,Toulouse, Libyca, 1953.

- Martin(R),

- Recherches sur Les Agronomes latins et leurs conceptions économiques et sociales,Ed.Les Belles lettres,Paris,1971.

-Mercier (F),

- Rapport sur la jojoba,le pétrole vert pour demain, La Chaignée,France, 2000.

- Mzabi (H),

- La Tunisie du sud est,Ed.Université de Tunis I.

-Najah(A),

- Le Souf des Oasis,Ed. Maison du Livre, Alger, 1970.

-Paulme(D),

- Les Civilisations africaines,6eme édition, PUF,Vendome.

-Picard(G.Ch),

- Les régions de l'Afrique antique,librairie Plon.
  Que sais-je? Presses Universitaires de France,Vendôme,1966.
- Les Civilisations de L'Afrique romaine,Etudes augustiniennes, 2eme éd,Paris,1959.
- La Civilisation de l' Afrique romaine , Ed .Plon, Paris,1959.

-Picard (G.Ch et C),

- La vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal(IIIeme Siécle A.J.C),Hachette,Paris,1985.

-Reygasse,

- Découverte d'une technique campinienne dans le paléolithique inferieur de sud constantinois,extrait de Congrès préhistorique de France,X^{eme} session,1953.

-TlatIi(S.E),

- Le Carthage punique,étude urbaine,Paris,1978.

-Voisin(A.R),

- Le Souf,Monographie,Ed. Elwalid,El-oued ,2004.

-Vueillemot(G),

- Reconnaissances aux échelles puniques d'Oranie,Ed .Autaun, Paris,1967.

- Walter(G),

- La Destruction de Carthage,éd.Albin Micel,Paris,1947.

ج – القواميس ودوائر المعارف:

- Encyclopédia Britannica,Ed.,1911.
- Encyclopédia,Universalis,Paris,1980 .
- Encyclopédie Encarta 2005.
- Gaffiot.F,Dictionnaire Latin-Français,Hachette,Paris,2001.
- Larousse .P, Larousse illustré,Paris,1977.

فهرس الخرائط و الأشكال

أ- الخرائط

ب- الأشكال

فهرس الملاحق

فهرس الأماكن و البلدان والمدن :

فهرس الشعوب و القبائل .

فهرس الأشخاص و الأعلام

* فهرس الموضوعات *

ملخّص

تتميز بلاد المغرب بموقعها ، الذي يتوسط قارات العالم القديم، و تُطلّ على الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط ،كما أنها تشكل وحدة طبيعية عرفت التواجد البشري منذ الأزمنة السحيقة .

إن موضوع الزراعة في بلاد المغرب يقودنا إلى تتبع مراحل إنتاج القوت الذي يرتبط بتاريخ وجود الإنسان في هذه المنطقة .

و إذا كانت الجغرافيا في مصر مثلا ،قد أملت كل شروط التطور عند أهلها القدامى ، بفعل التدفُّق الدائم لنهر النيل وفيضانه، فإن ظروف الجغرافيا المتمثلة خاصة في انعدام مجرى مائي دائم في بلاد المغرب القديم وقفت حائلا أمام التطور الحضاري ، وجعلت إرادة البَشر تطغى على الواقع الطبيعي الذي زادت فيه عُزلة البلاد فوقفت الصحراء جنوبا والبحر المتوسط شمالا عائقا في وجه التيارات الحضارية الوافدة لقرون عديدة ، فكان تحدي الإنسان المغاربي أكبر من جاره المصري . وهكذا تركت الجغرافيا الكلمة للتاريخ ، فأبدع الإنسان المغاربي القديم.

وإذا كان الإنقلاب البيئي الذي واكب النيوليتي قد جعل من الصحراء منطقة طرد سكاني نحو مواطن أكثر ملاءمة ،فإن المغاربة القدامى جعلوا من الرعي منظومتهم الإقتصادية التي كان القطيع حجر الزاوية فيها، و التنقل نمطها المعيشي وذلك قبل الإستقرار وممارسة الزراعة الموسمية في مناطق محددة.

إن البحارة الفينيقيين الذين أسسوا المحطات الإستيطانية وتوّجوها بتأسيس قرطاجة ،قد أضافوا كثيرا للزارعة المغاربية بما نقلوه من تراث أسلافهم.

وقد استطاع أحفادهم البونيون أن يجعلوا من الأرياف مجالا واسعا لتربية الحيوانات وزراعة الأشجار المثمرة .

لقد أبدع هؤلاء في الزراعة لدرجة أن أحد علمائهم ، المدعو ماغون قد ترك مؤلّفا يعتبر أساسا لعلم الزراعة . وقد شاءت إرادة الغزاة الرّومان أن تجنّبه مصير المحرقة أثناء تدمير قرطاجة، بل و ترجموه إلى اللغة اللاتينية للإفادة منه بعد احتلالهم الإستيطاني لبلاد المغرب .

غير أن مسألة تواجُد أقوام سبقوا الفينيقيين إلى بلاد المغرب هي قضية قابلة للطرح ،ويتمثل ذلك في تشابه التقنيات الزراعية المتوارثة بين أرض كنعان و بعض مناطق بلاد المغرب .

و إذا كان الرّعي وما يفرضه من حركة تنقّل ، قد طغى على النشاط البشري المغاربي القديم، فإن نوميديا وعلى عهد ملكها المُوحِّد ماسينيسا قد توجّهت للزراعة كخيار استراتيجي دشّن عهد الإستقرار و التطور .

أما أهم النتائج التي توصّلنا إليها فتتلخص في :

- تمكّن الإنسان المغاربي من استثمار بيئته الصعبة إذ استطاع توفير الغذاء وتدرّج في ذلك من الجمع وصولا إلى الإستقرار و ممارسة الزراعة .

- دفع الإحداثيات المُعيقة للتطور للإنسان المغاربي إلى التحدّي فكان التطور الداخلي منسجما مع ما استجدّ من ظروف بيئية جديدة أحدثتها فترة الجفاف منذ النيوليتي .

- إمكانية سبْق أو معاصرة بدايات الإستقرار و الزراعة في بلاد المغرب لأقدم مواطنها في الشرق الأدنى من خلال تتبّع قدم الأدوات الزراعية و المدافن وغبار الطلع المُكتشف في الصحراء.

-العودة بأصول بعض مواطن الزراعة في بلاد المغرب إلى الكنعانيين أسلاف الفينيقيين بما في ذلك بعض أنظمة الري في الواحات .

- إبداع البونيين أحفاد الفينيقيين في الزراعة التي وجدوا فيها بديلا قويا للاقتصاد التجاري البحري وتَـوّجت كل ذلك تعليمات ماغون القرطاجي في كتابه الشهير.

- عظمة السياسة الزراعية لماسينيسا التي كانت مشروعا حضاريا أوجد كيان الدولة النوميدية المركزية بعاصمتها وعملتها وتجارتها الخارجية التي صرّفت فائض الإنتاج الزراعي لبعض شعوب المتوسط .

- إن الزراعة في بلاد المغرب القديم شكّلت واحدة من أبرز الفعاليات التي أثْرت حركية التاريخ المغاربي و المتوسطي ، وأكّدت دور سكّانها في الوصول إلى أرقى ما وصلت إليه شعوب العالم القديم بتوفير أمنهم الغذائي، بل و تعدَّوْه إلى ضمان غذاء شعوب رائدة في الحضارة كالإغريق ، وفي ذلك ما يُلهم أجيالنا الحاضرة لأخذ العبرة من أسلافهم.